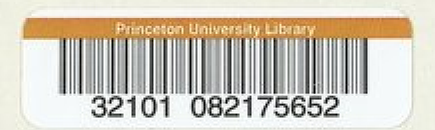
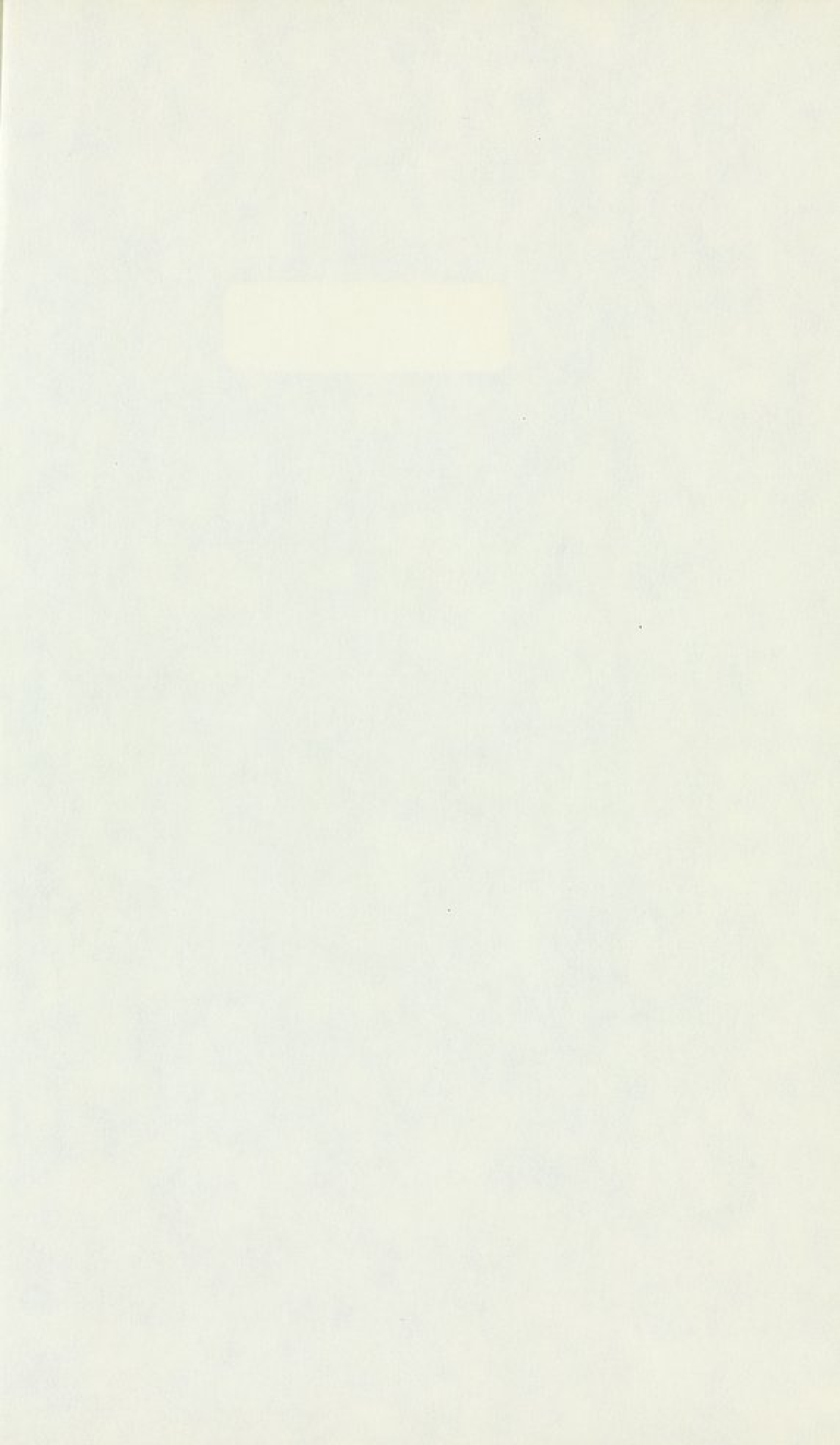
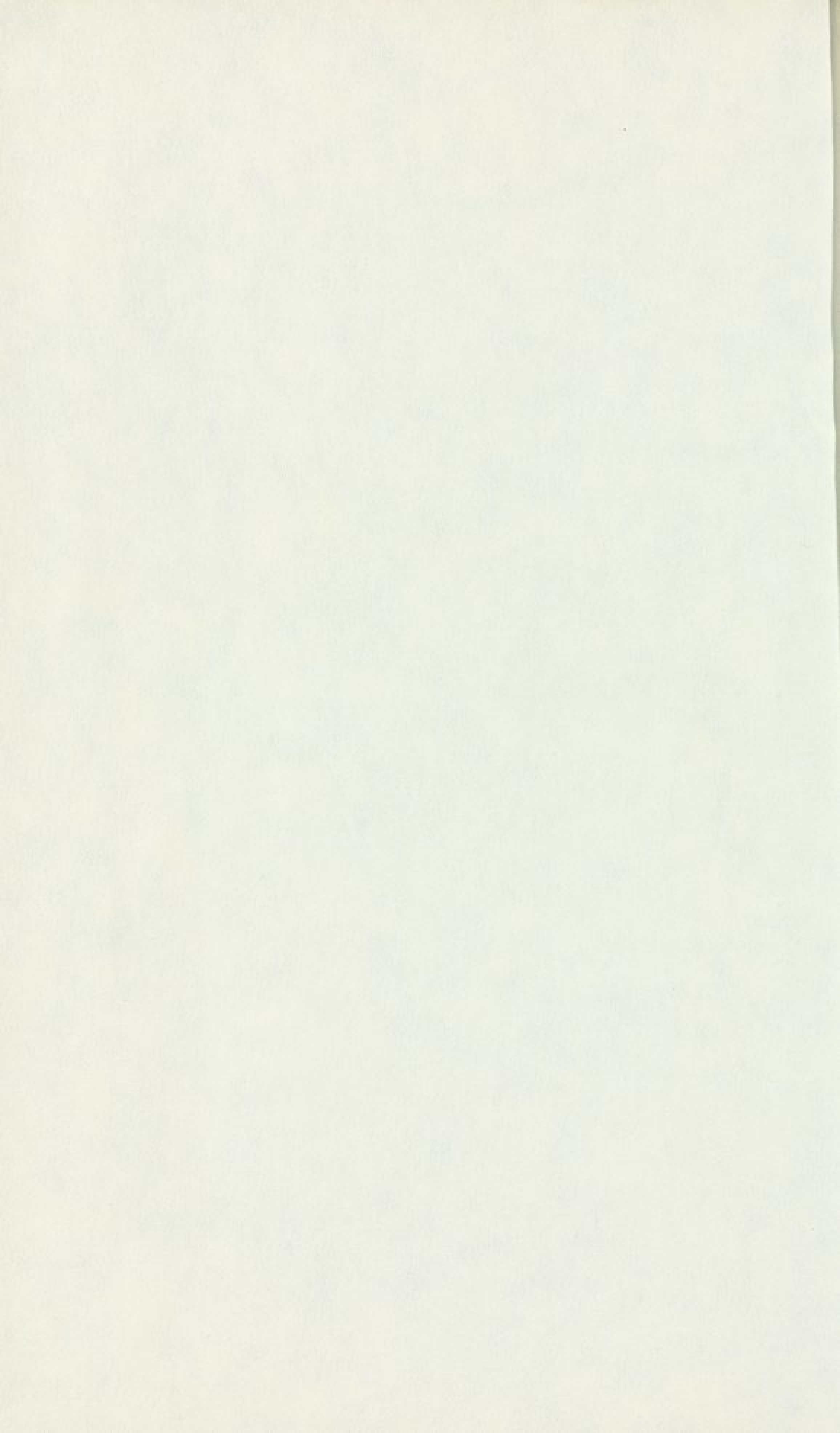
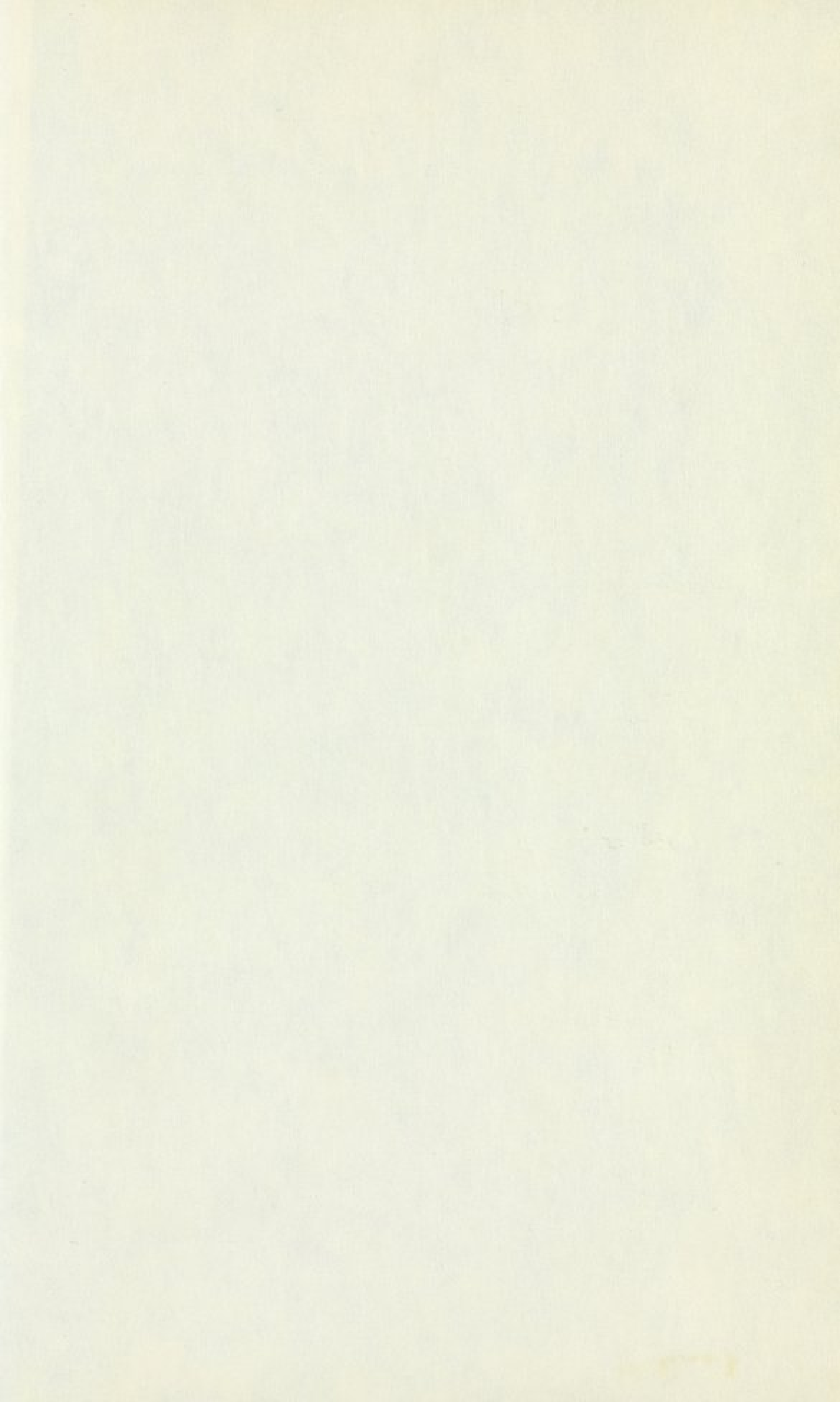


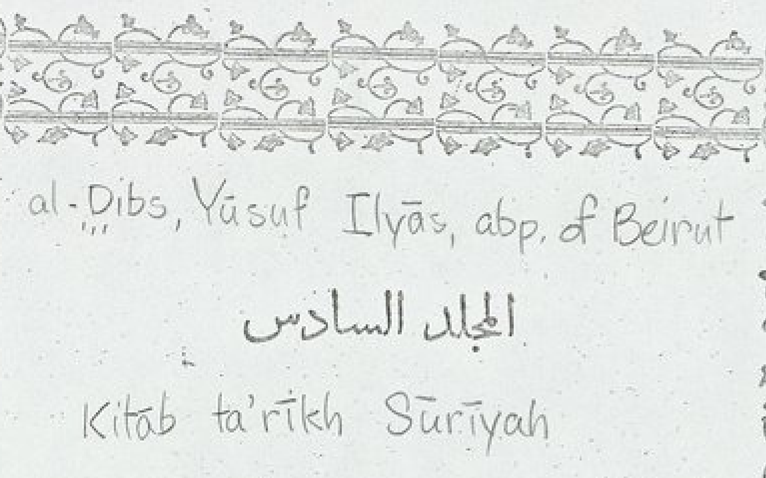
DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 082175652









المجلد السادس

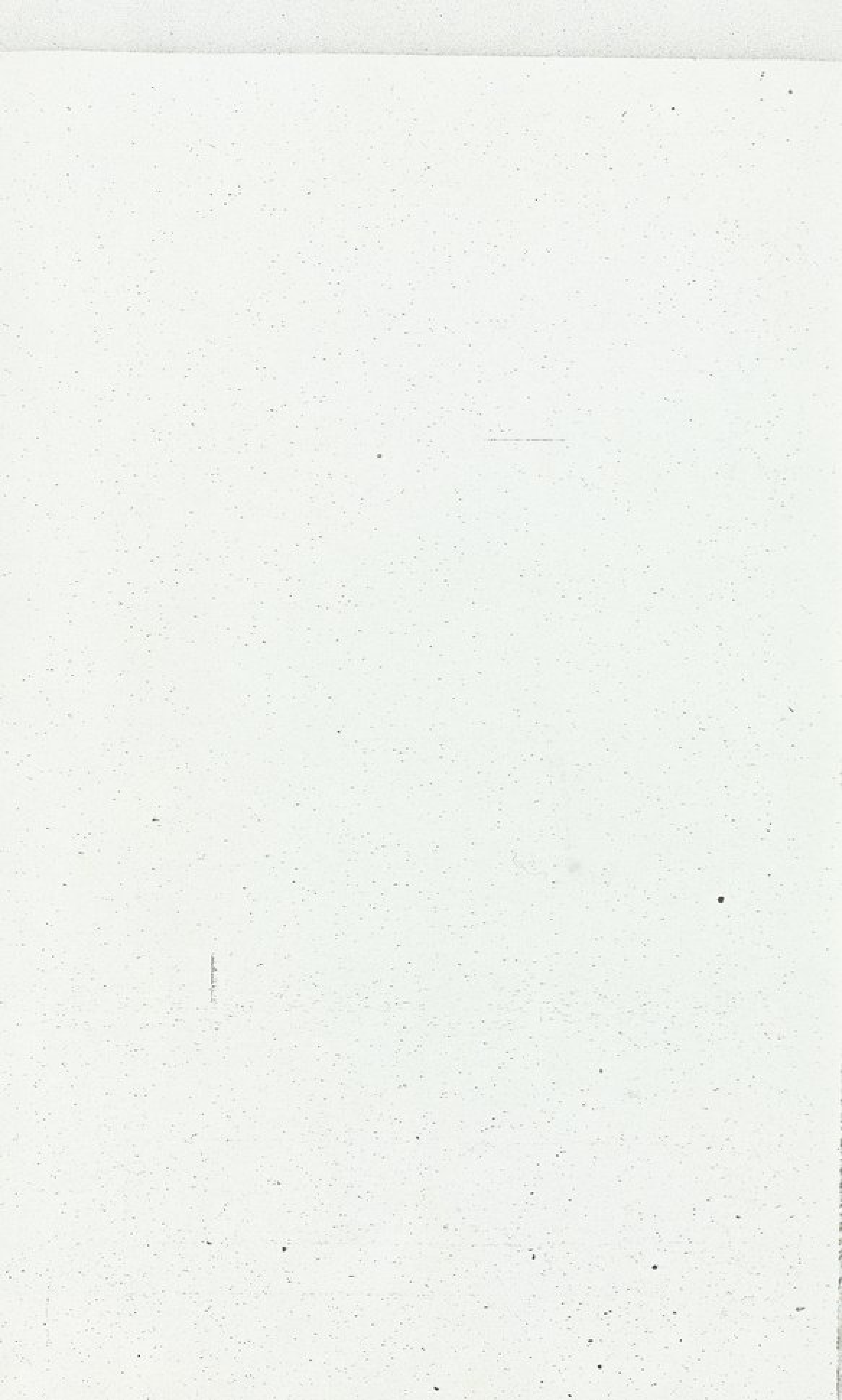
من تاريخ سورية للدنيوي والديني

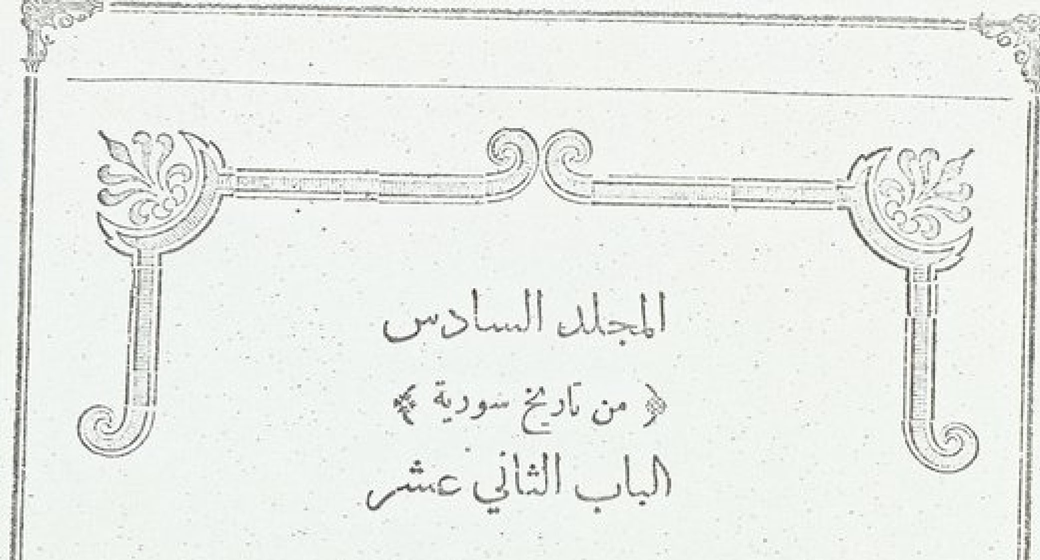
يتضمن هذا الجزء تاريخ سورية من اواخر القرن الحادي عشر
الى اوائل القرن السادس عشر

للحقير الفقير الى عفو ربه يوسف الياس الدبس
مطران بيروت الماروني



طبع في المطبعة العمومية في بيروت ١٩٠٢





المجلد السادس

من تاريخ سورية

الباب الثاني عشر

في تاريخ القرن الثاني عشر

القسم الاول

في تاريخ سورية الديني في هذا القرن

فاتحة الكلام

ان تاريخ سورية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مثالات يمثل بها كل عاقل ليلزم السلم والوفاق وينكب عن الخصام والخلاف . فجل احداث تاريخ هذين القرنين او كلها حروب ومغالبات على مدن سورية خاصة بين الافرنج الذين اكثروا من الحملات حينئذٍ على بلادنا وبين المسلمين الذين كانوا يلون هذه البلاد ولو اقتدى بعض المسلمين بابي بكر الصديق في الرفق بالنصارى كما اوصى غزاته الاولين او بعمر بن الخطاب اذ لم يشأ ان يصلي في كنيسة القدس لئلا يقول المسلمون بعده هنا صلى عمر . او تركوا النصارى وما يدينون كما أُمروا لنجا المسلمون والنصارى من غوائل الحروب التي خربت هذه البلاد مدة قرنين ولكن قام في

مصر الخلفاء العلويون الفاطميون ونازعوا الخلفاء العباسيين الولاية على سورية واذاقوا النصارى الامرّين بعد ان كانوا يترفون بعدالة هرون الرشيد واولاده واحفاده وقام من العلويين الحاكم بامر الله فعذب النصارى واليهود وبعض المسلمين ايضاً ودك معابدهم حتى احرق كنيسة قبر المسيح ومنعوا النصارى من ان يحجوا الى القدس الا ان يدفعوا ضريبة فاحشة فلم يصبر احبار رومة روساء الدين المسيحي وملوك النصارى بالمغرب على هذا الاعتداء ودعتهم فروضهم الدينية الى العناية بتامين النصارى بسورية ومصر واخذ مذ ذلك الحين في الاهتمام بتامينهم من الاضطهاد ووقاية معابدهم من الخراب الى ان تالبت في اخر القرن الحادي عشر جموع نصارى المغرب وسارت الى المشرق

ولولا الخلاف الذي كان بين المسلمين في ذلك العصر اعني بين الملوك السلجوقيين وخلفاء مصر العلويين وبين حكام الاعمال بانفسهم كما كان بين ولاة بغداد والموصل وحلب ودمشق وحمص وغيرها لما قدر الافرنج ان يدخلوا هذه البلاد ولا جسروا ان يكون لهم بها مطمع ولو لم يكن بين النصارى مثل هذا الخلاف بين ملوك الروم في قسطنطينية وملوك المغرب وبين اصحاب تلك الحملات بانفسهم ايضاً لما استطاع المسلمون ان يخرجوهم من هذه البلاد عنوة والحق يقال ان هذه الحروب الشديدة المديدة ارتنا بسالة المسلمين وصبرهم على القتال وعصبيتهم الشديدة فلم يتركوا الافرنج يستريحون في بلادهم سنة واحدة دون حرب فكانت في القرنين سلسلة حروب تتصل احدي حلقاتها بالاخرى كما سترى وكشفت هذه الاحداث من جهة الفرنج عن ورعهم وتحمسهم في الدين في ذلك العصر وتحملهم مضض مشاق السفر واخطار الحرب. ولكن كان في جانب ذلك المحاسدة والخلاف حتى الجئوا ان يجلوا عن هذه البلاد صاغرين ويورثوا سكانها غوائل الخلاف ونالنا نحن الموارنة نصيبنا من هذه المصائب وهو احراق عمل كسروان بجملته وخراب

جية بشري على اثر جلائهم لانهم انسوا بنا واستوطنوا بين ظهرانينا لجامعة الدين بيننا وبينهم وسترى في كل فصل من تاريخنا لهذين القرنين موعظة ناطقة بوجوب الموالاة والوفاق في امور هذه الدنيا بين الملل ولو اختلفت ديناً ومذهباً وطقساً ووجوب التنكيب عن العداوات والخصام طلباً لراحة كل فريق والسير في طريق التمدن والتراقي في مدارج النجاح والفلاح هدى الله كل ضال الى سراط الحق المستقيم

الفصل الاول

في قدوم الافرنج الى سورية واستحواذهم على بعض مدنها وما كان من الحروب في هذا القرن

عـد ٨١٢

في تألب الافرنج في بلادهم ومسيرهم الى قسطنطينية

كان المسلمون قد ضايقوا ملك الروم الكسيس كومنانس وانتزعوا اكثر املاكه واوشكوا ان يحصروه في قسطنطينية عاصمة ملكه فلجأ الى ملوك اوروبا واوفد اليهم وفوداً ورسائل منها رسالة الى روبرتس كنت فلاندرا الملحقة يومئذٍ بافرنسة والى جميع الامراء المسيحيين من الاكليريكيين والعامة يستجير بهم ويبالغ في مضايقة المسلمين له وفي احتقارهم الدين المسيحي وسطوهم على الكنائس والاديار ويسالهم الاخذ بناصره والانتصار لدينهم واستنقاذ قبر المخلص من ايديهم ويزين لهم كسب ما في المشرق من الكنوز والذخائر المقدسة والآثار الجليلة وكان في ابرشية

اميان بافرنسة وقتئذٍ حبيس اسمه بطرس عزم ان يحج الى اورشليم فامها واقام فيها اياماً وزار سمعان بطريرك هذه المدينة وحدثه سائلاً اياه عن حالهم فنم اليه البطريرك ما يقاسون خاصة من جرى مغالبة دول المسلمين على مدينتهم فساله بطرس اليس من علاج لهذه الشؤون فقال البطريرك اثامنا ابعدت بيننا وبين الهنا فلا يستجيب دعاءنا وكأن عقابنا لم يكمل بعد فاشار عليه السائح ان يرفع رسائل الى الحبر الروماني وامراء النصارى في المغرب وهو يوصل رسائله اليهم ويصنع ما يقدره الله عليه لاجابة سؤاله فراق هذا الكلام للبطريرك وكتب رسائله ودفعها الى السائح الذي قام في ذهنه ان الله يدعوه للجهاد في هذه المهمة الجلى فاتى الى رومة ودفع رسالة البطريرك الى البابا اوربانس الثاني فاجله وابدى ارتياحه الى مساعدة نصارى المشرق فمضى بطرس السائح يفري الفيافي بايطاليا وفرنسا حافي القدمين مكشوف الراس حاملاً صليباً مغرياً الكبراء والعامة ايضاً لنجدة نصارى المشرق اما الحبر الروماني فعقد مجمعاً في بلاسنس بنرمندية جمع فيه اساقفة ايطاليا وبوركونيا وافرنسة والمانيا وبفيارا وغيرها حتى اجتمع حينئذٍ مئتا اسقف ونحو من اربعة الاف اكليريكي واكثر من ثلاثين الفاً من العامة فلم تسعهم كنيسة فتالبوا في ساحة في اليوم الاول من اذار سنة ١٠٩٥ وشهد المجمع نواب بعض الملوك ووفود الكسيس ملك الروم الذين تضرعوا باخبات الى الحبر الروماني وامراء المغرب ان يمدوا ملكهم وينجدوه على اعدائه حباً بخير الكنيسة والدين الذي كاد يزهق في المشرق فحث البابا المؤمنين على ان يمدوا ملك الروم واقسم كثيرون من الحاضرين ان يسيروا الى قسطنطينية لامداد الملك وعزم الحبر الروماني ان يسير الى افرنسة ويعقد فيها مجمعاً فسار براً واستدعى الاساقفة الى الاجتماع في كلرمون باوفرنيا في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ فاجتمعوا في اليوم المعين وكان عدد رؤساء الاساقفة ثلثة عشر وعدد الاساقفة والرؤساء الكبار مئتين وخمسة وعدد الباقين

من الاكليريكيين نحوًا من اربع مئة وحشد يشذ عن العد من الامراء والسفراء والوجهاء والعامة حتى ضاقت عنهم المدينة وضواحيها وبعد ان بحث اباء المجمع عن بعض المسائل المتعلقة بالدين والتهذيب اليمي وقرروها عقد المجلس العاشر في ساحة فسيحة في المدينة فقام بطرس السائح وخطب في الجماعة خطبة حماسية رنانة وكان فصيحًا بليغًا سديد الحجة وكان لخطبته وقع شديد في قلوب سامعيه حتى كادوا يحاولون ان يطيروا من كلرمون الى اورشليم وخطب بعده البابا اوربانس وكان افرنسيًا مولدًا حاضًا ابناء وطنه والمسيحيين اجمع على استنقاذ الارض المقدسة بفصاحة عجيبة حتى نهض السامعون اجمعون وضجوا صارخين كانه بفم واحد **Dieu le veut! Dieu le veut** ان الله يريد ذلك . ان الله يريد ذلك . فقال البابا فليكن هذا الكلام شعارًا لكم في كل عمل صالح تأتونه وكان لكلامه تأثير شديد حتى عزم للحال اكثر السامعين من الاكليرس والعالمين على المسير الى المشرق وكان اويمر اسقف بوي اول من اخذ من يد البابا الصليب شعار الصليبين في حملاتهم الى المشرق وتبعه كثيرون واقام البابا براي الاساقفة اويمر اسقف بوي رئيسًا روحيًا للمتجندين وسفيرًا من قبله . وريموند كونت تولوز وسان جيل رئيسًا مدنيًا وطاف البابا في كثير من كنائس افرنسة مدبرًا شؤونها وحاثًا على المسير الى الشرق وموزعًا بيده الصلبان وجال بطرس السائح في كل فج داعيًا الى التجند واكثر الاساقفة من الحض على ذلك فعظم الاقبال على هذا التجند في افرنسة وايطاليا والمانيا وتبارى فيه الاكابر والاصاغر الرجال والنساء والاحداث والكهول حتى اضطر البابا ان يضع نظامًا لذلك وفي جملته ان لا تسافر المراة الا مع زوجها او اخوتها وكان بين الكبراء المتجندين ريموند كنت تولوز المار ذكره وروبرتس الثاني كنت فلاندرا وقد سمي بعدًا كنت اورشليم وروبرتس الثاني كنت نرمندية وغودفروا دي بوليون دوك لوران واخواه بودين واستاش

وبيومند امير تريدنتو . واما عدد الصليبين فلا يحصى وقال فوجر من شرتر الذي كان معهم ان عددهم لا يقل عن ستة ملايين ولكن عاد بعضهم من ايطاليا وبعضهم من غيرها وبعضهم مات وبعضهم قتل والموكد ان الذين بلغوا قسطنطينية كانوا نحو سنماية الف مقاتل . وقالت الاميرة حنه كومنانس التي كتبت تاريخ ابيها الكسيس كومنانس . من شاء احصاء عدد الصليبين فليحص عدد رمال البحر او نجوم السماء او اوراق النبات او ازهار الربيع ، هذه مبالغة تشير بها الى الكثرة

وقد اتفق الصليبيون ان لا يسيروا في طريق واحد او حشدًا واحدًا بل ان يسيروا متفرقين وموعد اجتماعهم قسطنطينية فسار جيش منهم مقدامه بطرس السائح في طريق المانيا وكان عدد هذا الجيش نحو تسعين الفًا وفي جملتهم نساء واحداث وشيوخ واخذ امرة فريق من هذا الجيش رجل اسمه كوتيار sans , avoir اي الفقير او الذي لا يملك شيئًا واسمه دال على ما كان عليه من المسكنة والفقر وكان عسكره كذلك وكان المومنون يقومون باودهم ما ساروا في ارض افرنسة وقد تبعهم بعض المانيين في طريقهم ولم يتعرض لهم احد وبلغوا الى بلغريا وقد عازهم الزاد وابى واليها ان يمدهم بشيء منه فتشتتوا في المزارع والقرى وسلبوا الماشية واحرقوا بيوتًا وقتلوا بعض من قاومهم فتالب البلغاريون عليهم وقتلوا منهم كثيرين وانهزم كوتيار سائرًا في الاحراج والمفاوز بمن بقي من جنده الى ان بلغوا نيسا فشفق عليهم واليها واحسن اليهم بازودة واسلحة وملابس وبلغوا اسوار قسطنطينية بعد شهرين مضنين بالتعب والجوع

واما الفريق الاخر من هذا الجيش الذي كان بامرة بطرس السائح فسار في طريق بفيارا واوستريا فاباحهم قولمان ملك اونغريا (المجر) ان يجتازوا بارضه آمنين بحيث لا يضرون باحد ويشترون ما يحتاجون اليه وبلغوا مدينة سملين فراوا على ابوابها بعض اسلحة كان اهل المدينة قد انتزعوها من الصليبين فضربوا المدينة

وفتحوها وقتلوا من اهلها اربعة آلاف ولكن جيش الانقاريون عليهم فانهزم بطرس السائح بعسكره وساروا في الاحراج وانتهوا الى نيسا فقدم لهم واليها الزاد ولكن وقع خصام بين بعض الاهلين وبعض الجند فاحرق بعض الالمانيين من الصليبيين سبع مطاحن فثار اهل المدينة بالصليبيين فقتلوا كثيرين واخذوا منهم الفي عربة واسروا كثيرين وعاد بطرس السائح الذي كان قد سار في مقدمة جيشه الى والي نيسا يساله تخلية الاسرى ورد العربات فابى واستأنف القتال ودارت الدائرة على الصليبيين فقتل منهم عشرة الاف وانهزموا في البرية نحو تراسة نادمين على ما جنوا على انفسهم وعلى غيرهم ولما علم الملك الكسيس بوصولهم الى تراسة ارسل يعتبهم على سطوهم ويعدهم بالصفح فساروا حتى انتهوا الى اسوار قسطنطينية

وحشد كاهن الماني اسمه كوتسكال عسكراً نحو خمسة عشر الفاً وكان اكثرهم من السباريت الجانين فافرطوا في السطو بانقاريا فقتلوا هناك عن اخرهم وتألب عسكر اخر من المانيا فسطا على اليهود ونكل بهم فشتتهم الاونقاريون والبلغاريون شذر مذر واما الجيوش المنظمة فسار فريق كبير منها بامرة غودفروا دي بوليون فلم يتعرض لهم الاونقاريون والبلغاريون . وسار فريق اخر بامرة روبرتس دوك نرمندية وروبرتس كنت فلاندرا وغيرهما في طريق ايطاليا . وسار فريق اخر بامرة بيوموند امير تريدنتو بحراً الى بلاد اليونان وسار الصليبيون من جنوب افرنسة برئاسة اويمر اسقف بوي سفير البابا وامرة ريموند كنت تولوز وكان عدد هذا الجيش نحواً من مئة الف مقاتل وساروا في طريق ايطاليا وبلاد اليونان باحسن نظام وبكل عبادة وورع واجتمعوا جميعاً في ضواحي قسطنطينية سنة ١٠٩٦ وكان معسكر قادتهم في قرية بيوكدرا احدى ضواحي قسطنطينية وقد كان عدد من قتل ومات منهم في طريقهم الوفاً مؤلفة (ملخص عن تاريخ روهر بخر عن تاريخ غوليلمس اسقف صور وغيره من مؤرخي ذلك العصر)

عـد ٨١٣

في ما كان بين الافرنج وملك الروم ومسيرهم الى انطاكية

ان الكسيس ملك الروم الذي كان قد استمد امراء المغرب ارتاع لما راى كثرة عديدهم ووجس من انقلاب ناجديه عليه واسف لانه اراهم ضعفه باستمداده لهم فعول على الحيلة والمكر بهم فرحب بهم وانسهم وقدم لهم هدايا وتقادم نفيسة واكثر من الوعود بمجاراتهم على كل ما يبتغون لكنه بالغ في تجسس احوالهم واستطلاع ما كنت سرائرهم وكان الكنت دي فرمندوا اخو ملك افرنسة قد القاه عاصف على شواطي الابير فدس الكسيس من احضره وحاشيته الى قسطنطينية بهيئة اسير آملاً ان يكون اخو ملك افرنسة رهينة عنده لحفظ الامانة له فكان عكس ما امل فان ذلك كشف للافرنج خبث نيته واراهم لزوم الحذر منه واخذ روساؤهم يعاملون الروم معاملة اعداء فندم الكسيس على قبح فعلته واستعطف اسيره وطلب عفوه وبالغ في اكرامه وفي تقدمة الهدايا له لكنه لم يلبث ان منع الافرنج الزاد فانتشروا في القرى وضواحي المدينة ينهبون ويسلبون واستمروا على ذلك اياماً فكان لهم ما يكفيهم واتت ايام عيد الميلاد فكفوا عن السلب تديناً وصالحوا الملك فعاد يجري الارزاق عليهم وكان الملك لا يدخر وسيلة من وعد ووعيد ليحلف له غودفروا يمين الامانة والطاعة وغودفروا لا يغتر بوعده ولا يرهب وعيده واوشكا ان يتعاركا وبلغ الخبر بيومند واستبشر بان تلك وسيلة لاسقاط ملك الروم واقتسام مملكته وكاشف غودفروا في ذلك فلم يحسن له . وعلم الملك بذلك فازداد رهبة وتوجساً وارسل ابنه ليكون في معسكر الافرنج فاغتروا بخدعته وصيدوا باحبولته واتى روساءهم الى قصره فبالغ في تكريمهم وتبنى غودفروا ووضع مملكته تحت حمايتهم فحلفوا له على انهم لا يخلون بحرمة الضيافة وانهم يسلمون اليه ما كان يخص مملكته من المدن التي يفتحونها ووعدهم الملك ان ينجدهم

براً وبحراً بجنده وسفنه وان يقدم لهم الازودة ويشاطرهم الكفاح والمخاطر والفخر في مهامهم

وكان اول من عبر البصفر منهم واحتل اسيا غودفروا وسار على اثره باقي الامراء وكان جيشهم حينئذٍ ست مئة الف مقاتل واول مدينة حصروها وافتتحوها كانت مدينة نيقية المشهورة بالمجمعين الاول والثامن اللذين عقدا فيها وكان تولاها حينئذٍ قلج ارسلان بن سليمان سلطان قونية من السلجوقيين وسماه ابو الفداء قليج ٥ فلاقى الافرنج بجموعه فقاتلوه فهزموه في رجب سنة ٤٩٠ ﻫ وهي سنة ١٠٩٧ م هذا ما رواه ابن الاثير وابو الفداء. وقد ذكر المؤرخون الافرنج اخذ نيقية باكثر تفصيل فقالوا ان مهاجمات الافرنج لهذه المدينة في الايام الاولى من حصارهم لم تجدهم نفعاً ورجعوا عنها خاسرين لانها كانت محصنة منيعة واتى السلطان قلج انجدتها بستين الف فارس فتاججت نار الوغى بينه وبين الافرنج من الفجر الى المساء فانكسر وتشتت جمعه وقتل من عسكره كثيرون وبعد هذه الوقعة شددوا الحصار على المدينة. ولم يبقَ الا ان يدخلوها فارسل الملك الكسيس كتيبة من جنده بامرة قائدين معروفين بالدهاء فدخل احدهم المدينة وارهب اهلها بما سيجريه الافرنج عليهم من الانتقام وزين لهم ان يستسلموا الى الملك ففعلوا ٥ واذ كان الافرنج يتحفزون للدخول الى المدينة راوا اعلام الملك الكسيس تخفق على اسوار المدينة وقلاعها ٥فدهشوا واحتدموا وكادوا يتمزقون غيظاً اذ منعوا من ان يدخلوا المدينة الا عشرة عشرة بعد اراقة دماء كثيرين منهم في فتحها واوشكوا ان يثيروا بملك الروم لولا ان يتدارك هو الامر باعتذاره عن فعلة قائديه وبسخائه على الجنود وتقديم الهدايا النفيسة لروسائهم فاغضى الافرنج على سؤ صنيعه وحذروا الاركان اليه

وفي ٢٥ حزيران من سنة ١٠٩٧ سار الافرنج بجيوشهم من نيقية منقسمين

الى عسكرين احدهما بامرة بيوموند وتنكراد وروبرتس دوك نرمنديه . والاخر بامرة غودفروا دوك لوران وبينما عسكر بيوموند على مقربة من دوريلا المعروفة الان باسكي شهر وثب عليهم في غرة تموز قلج ارسلان سلطان قونية السلجوقي بجيش جرار لا ينقص عن ثلثماية الف رجل واستعرت نار الحرب بين الفريقين منذ الصباح وانتهى جنود السلطان في احدى كراتهم الى معسكر الافرنج فقتلوا النساء والاطفال والشيوخ والمرضى. واتصلوا الى ان احاطوا بالافرنج من كل جهة وسدوا عليهم باب الهرب وكاد اليأس يستحوذ عليهم فاذا طلائع العسكر الاخر الذي بامرة غودفروا مشرفة عليهم من اعلى جبل قريب منهم فانتعشت قلوب اخوانهم وارتاع اعداؤهم وانكشفوا مرتدين فتبع الافرنج خطاهم يقتلون منهم فتحصن السلطان قليج في قمة جبل ظاناً ان الافرنج لا يلحقونه الى هناك فاحدقوا بالجبل وضيقوا على من تحصنوا به وقتلوا منهم كثيرين وغنموا ازودتهم وسلاحهم وخيمهم ودوابهم وقد سرتهم رؤية الجمال التي لم يكونوا يعرفونها في اوروبا . وكان عدد القتلى من الافرنج في هذه الوقعة نحو اربعة الاف وقد اطرأ المؤرخون النصارى المعاصرون لهذه الاحداث بسالة المسلمين وثبوتهم في القتال . اما السلطان قليج فانهزم بمن بقي من جيشه واخرب كل البلاد التي راى انه لايستطيع الدفاع عنها

وفي ٣ تموز سار الافرنج جيشاً واحداً مفكرين ان سيرهم معاً يقيهم الغدر ومباغتة اعدائهم فريقاً منهم لكنهم عرضوا نفوسهم بذلك للهلاك جوعاً في الاعمال التي اخربها قليج ولما توغلوا بهذه البلاد المقفرة الخربة عازهم الزاد واصابتهم مجاعة الجأتهم الى الاقتيات بحب الاشجار واصول النبات فهلك كثير من الجنود والدواب جوعاً وعطشاً واضطر الفرسان ان يترجلوا وبعضهم ان يركبوا الحمير والبقر وان يستخدموا الغنم والماعز والخنازير والكلاب لنقل امتعتهم وملابسهم ودوى غوليلمس

الصوري في كتاب تاريخه لهذه الحرب انه مات في يوم واحد خمس مئة نفس من الافرنج واستمروا على هذه الحال التعيسة المضحكة الى ان انتهوا الى انطاكية بيسيدية ففتح اهلها ابوابها لهم واستراحوا في هذه المدينة المخضلة الزاهية اياماً وقد ذاع خبر انتصارهم وكثرة جيشهم فتوارد اليهم وفود من اعمال كثيرة يرحبون بهم ويعدون بالطاعة لهم وامدادهم بما يبتغون وجاهر النصارى في اسيا الصغرى بالانقياد اليهم

وسار جيش الافرنج من انطاكية بيسيدية نحو قونية عاصمة ملك قليج السلجوقي وبلغوا هرقلية حيث اقاموا اربعة ايام واستأنفوا مسيرهم في اوعاد جبل طورس مقاسين من المشاق ما حملهم على ان يسموا هذا الجبل جبل الشيطان حتى انتهوا في خاتمة مطافهم الى مارينريا وهي مرعش وكان سكانها نصارى وفي قلعتها حامية من قبل الحكومة انهزمت عند دنوهم من المدينة . ومضى حينئذ بودوين اخو غودفروا بكتيبة اولاندية وتنكراد بكتيبة ايطالية لتجسس الطرق وتهزيم الاعداء عنها ولتامين النصارى في كيلكيا والامتيار فانتشروا في هذه البلاد وملكوها واستسلم اهل ترسيس الى تنكراد ثم استحوذ عليها بودوين فكان بينهما نزاع كاد يفضي الى القتال بينهما لولا ترفع تنكراد ونزاهته واستحوذ على اذنه فارس من بوركونية اسمه كوالف وتولى تنكراد المصيصة وانتهى الى اسكندرونة وكان يطوف في هذه البلاد بثلاث مئة فارس فيفر كل عدو منها رهبة من جيوش الافرنج

وعاد بودوين الى المعسكر العام في مرعش فونبه اخوه غودفروا على سوء معاملته تنكراد وطمعه باخذه ترسيس وكان رجل ارمني اسمه بنكراس يلي مملكة صغيرة فثار به اهلها فخلعوه وانقلب عليه الدهر حتى التقي في السجن في قسطنطينية ثم فر منه وانضم الى الافرنج تحت امرة بودوين وكان يزين له الاستيلاء على ارمينية والجزيرة (ما بين النهرين) فاذعن بودوين لرايه لكن لم يشاء ان يصحبه من الافرنج

الا نحو من الف رجل ومائتا فارس فسار بهم في ارمينية فلم يلف معارضاً وانفصل
عنه بنكراس مستحوذاً على بعض اماكن ولم ينبئنا التاريخ ما آل اليه امره واما
بودوين فاستولى على بعض المدن على عدوة الفرات فذاع اسمه وعظمت سطوته
ورهبته وكانت الرها الحقت بولاية ملك الروم كما رايت وكان عليها يومئذٍ امير
رومي اسمه توادورس يفي الجزية للسلاطين السلجوقيين وقد اجتمع فيها كثيرون
من النصارى فاجتمع راي الامير والشعب على ان يستدعوا بودوين ويملكوه فيهم
وسار اليه اسقف المدينة واثنا عشر وجيهاً من الشعب وسالوه ان يسرع الى مدينتهم
ويحكم عليهم فلبى دعوتهم ولما دنا من المدينة خرج الشعب كله لملتقاه حاملين اغصان
الزيتون ومترنمين بالتسابيح وكان الامير شيخاً لا ولد له فتبنى بودوين وجمله وارثاً له ثم
اغتال الامير بعض الناقمين عليه واستبد بودوين بالولاية على الرها ووسع تخوم
ولايته بما ناله من ارث الامير فاخذ سمياط وغيرها من المدن ثم ماتت امراته
فتزوج بنت اخي احد امراء ارمينية وسهلت له هذه الصلة بالنسب توسيع نطاق
حكومته الى جبل طورس حتى دان له قسم كبير من الجزيرة وسكان عدوتي الفرات
واسس هناك للافرنج كنتية الرها سنة ١٠٩٨ واستمر يدبر شؤونها الى ان
استدعي ليخلف اخاه غودفروا بعد وفاته في مملكة اورشليم كما سيجي وتخلى بودوين
حينئذٍ عن كنتية الرها لبودوين كنت بورج احد انسبائه. واما جيش الافرنج فسار
من مرعش نحو قنسرين وكان في طليعة الجيش روبرتس كنت فلاندرا في الف رجل
فاستحوذ على قنسرين بامداد النصارى سكانها فاسرع عسكر المسلمين الذي كان
في انطاكية لانجاد المدينة ولما راى الافرنج تبوأوها عدل عنها الى جسر الحديد
الذي على العاصي ليصدوا الافرنج عن العبور الى انطاكية وكان في جانبي الجسر
قلعتان مصفحتان بالحديد واجتمع هناك جيش كبير من المسلمين وكان روبرتس
المذكور اول من اوقد نار الحرب بطلائع جيش الافرنج فرد عن الجسر خاسراً

نحو الف رجل ثم ادركه الجيش العام فشتتوا جيش المسلمين وانهزم من في القلعتين واستحوذ الافرنج على ضفتي العاصي وساروا نحو انطاكية (ملخص عن غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب وغيره من المؤرخين المعاصرين كما روى اقوالهم روهربخر في كتاب ٦٦ من تاريخه)

عد ٨١٤

في حصار الافرنج انطاكية وفتحها

نلخص اولاً ما ذكره المؤرخون العرب في هذا الشان نقلاً عن ابن الاثير وابن خلدون وابي الفداء وغيرهم قالوا لما انتهت جيوش الافرنج الى انطاكية حاصروها تسعة اشهر وكان واليها يومئذ باغي سنان (وقد مر ذكره) من قبل الملوك السلجوقيين فاحسن الدفاع عنها وظهر من شجاعته وجودة رايه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره واخرج رجال النصارى من المدينة بحجة احتفار خندق ثم منعهم من العود اليها وابقى اطفالهم ونساءهم فيها وهلك اكثر الفرنج من الجوع والبرد والوباء ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد المسلمين ولما طال مقام الافرنج على انطاكية راسلوا احد المستحفظين للابراج وبذلوا له اموالاً واقطاعاً فدلهم على بعض المخارج ودخلوا منه ونفخوا البوق فخرج باغي سنان هارباً حتى اذا كان على اربع فراسخ من المدينة راجع نفسه وندم فسقط مغشيا عليه واراد اصحابه ان يركبوه فلم يكن فيه مسكة وقد قارب الموت فتركوه وساروا عنه واجتاز به رجل ارمني كان يقطع الحطب وهو باخر رمق فقتله واخذ راسه الى الافرنج بانطاكية وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق باننا لا نقصد الا البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب انطاكية وسنذكر تالبهم على الافرنج بعد اخذهم انطاكية وحصارهم لهم فيها نقلاً عن المؤرخين العرب ايضاً

واما ما ذكره المؤرخون الافرنج في حصار انطاكية وفتحها فنلخصه عن المؤلفين المعاصرين لهذه الاحداث كريموند دي اجيل او القريبين منهم كغوليلمس اسقف صور وغيره قالوا ان هذا الحصار استمر ثمانية اشهر من اوائل تشرين الاول سنة ١٠٩٧ الى اواخر حزيران سنة ١٠٩٨ وتقلبت فيها عليهم الاحوال تارة تسيء وتارة تحسن وكان المسلمون في داخل اسوار المدينة لا يسمع لهم جلبة ولا صياح فتوهم الافرنج انهم مرتعدون فشلون فلم يحتاطوا كما كان ينبغي وانتشروا في ضواحي المدينة وقراها لاهين بما لاقوا هناك من المؤن والثمار والجنات والمياه والمواشي التي لم يتمكن اهل المدينة من حرزها وفشا فيهم الفتور والانكباب على المطارب والملاذ وحمل ذلك اهل المدينة على الامل ونعش فيهم الشجاعة والنخوة فخرجوا على الافرنج فقتلوا واسروا كثيرين ممن كانوا مشتتين في البساتين او لاهين بما طاب لهم فندم الافرنج على سؤ تصرفهم وعزموا على ان يأخذوا بثار من قتل من اخوانهم ولكن لم تكن لهم الادوات اللازمة للحصار فطال مكثهم خارج المدينة ونفد اذخارهم واتت ايام الشتاء فتمزقت خيمهم وتعسر مسيرهم من قبل الاوحال وضربت المجاعة اطنابها فيهم فاجتمع رؤساؤهم وتشاوروا وارسلوا نحوًا من عشرين الف رجل منهم بامرة امير تريدنتو وكنت فلاندرا الى الاعمال المجاورة لهم ليمتاروا طعاماً فمضى هولاء وانتصروا في مسيرهم على عدة شراذم اعترضت لهم وعادوا موقرين ازودة وذخائر كثيرة وفي مدة غيابهم خرج المسلمون على عساكر الافرنج المخيمة حول مدينتهم فاكثروا من القتل والتنكيل بهم وذكر ريموند دي اجيل المؤرخ الذي كان في جملة الافرنج حينئذٍ انخذالهم وما قاسوه في ذلك اليوم وعزا انكسارهم الى انتقام الله منهم لآثامهم وقد ادركهم تعالى بنجاتهم من المجاعة بما وفق غزاتهم الى جلبه من المون سدًا لجوعهم الى وقت وقد فشت فيهم الامراض وتوافر عدد الموتى حتى روى بعض الشهود العيانيين ان الكهنة لم يكفهم الوقت للصلوات

على الاموات وضاقت سهول انطاكية عن المدافن وعاودتهم المجاعة حتى اكلوا الجيف وماتت خيولهم لقلة العلف فكان لهم في بدء الحصار ستون الف فرس ولم يبق منها الا الفان وكثر الاباق فيهم فقد حمل اليأس بعضهم على الفرار الى الرها حيث ولي بودوين وبعضهم الى كيليكيا حيث تولى تنكراد وبعضهم انسل مستخفياً الى بلاده وانحاز دوك نرمندية نفسه الى اللاذقية ولم يعد الا بعد مناشدته مرات وغادر تاتيس قايد عسكر ملك الروم بجنده المعسكر بحجة ان يستنجد ويمتار حتى اضطر قادة الجيش ان يقضوا بالموت على من يفر وطفق اوير اسقف بوي وغيره من الاساقفة والكهنة يعظون في الجيش ويحضونهم على التوبة والتكفير عن آثامهم ليراف الله بهم وفرضوا اصواماً وصلوات واقاموا محكمة تقضي على المجرمين وكان بعض النصارى يتجسسون اخبار الافرنج ويكشفون للمسلمين احوالهم فشنق يومئذ بعض هؤلاء عبرة لغيرهم

وكان غودفروا قد جرح والتام جرحه وخرج بين الجنود فانعش فيهم الامل وارسل اخوه بودوين كنت الرها وبعض امراء ارمينية مالاً وذخائر لجيش الافرنج واتتهم المون من قبرس وساقس وردوس فكان لهم كفافهم وقلت الامراض فيهم فعاودتهم الشجاعة والنخوة وقدم اليهم حينئذ وفد من قبل خليفة مصر العلوي فاستقبلوهم بالاجلال فقالوا ان مولانا يرغب في التقرب الى الافرنج على ما بين الفريقين من اختلاف الدين وانه مستعد ان يدخل بجنده الى فلسطين وسورية ليخرج منها اعداءهم الذين كانوا على ممر الايام اعداء الداء لذرية اهل علي وانه يعلم ان جل ما يقصدونه انما هو اورشليم فهو يعد بانه يجدد كنائس النصارى فيها ويذب عن دينهم ويفتح ابواب المدينة لكل من رغب في الحج اليها بحيث ان يدخلوا اعزالاً لا سلاح معهم وان لا يقيموا فيها اكثر من شهر فان قبلوا هذا الشرط كان الخليفة ناصراً ومنجداً لهم وان ابوا مولانه قامت على قدم وساق شعوب مصر والحبشة

وجميع سكان اسيا وافريقيا من بوغاز جبل طارق الى بغداد لمناواة الافرنج وكبتهم فساء كلامهم رؤساء جيش الافرنج وقام احدهم وقال للوفد المصري قولوا لمولاكم ان ديننا بعثنا على استنقاذ الارض التي ولد فيها رب هذا الدين ولا نحتاج في ما عزمنا عليه الى نجدة من دول الارض ولا ننسى ما اجراه المصريون من وقت قريب على حجاج المغرب ولا يمحى من ذكرنا ما انزله الحاكم بامر الله على النصارى ودكه كنائسهم ولا سيما كنيسة القبر المقدس فنحن لا نقصد زيارة اورشليم بل اقسمنا على ان نملكها ونستحوذ على كل ما هنالك فقولوا لمن ارسلكم ان يختار السلم او الحرب قولوا له ان الافرنج المخيمين حول انطاكية لا يروعهم شعب مصر ولا سكان الحبشة ولا اهل بغداد وعند انصراف الوفد المصري صحبه مفوضون من قبل الافرنج الى مصر كيلا يجاهروا خليفة مصر بالعدوان

وقد حشد في هذه الاثناء امير حلب وامير دمشق وغيرهم من الامراء عشرين الف فارس ليمدوا انطاكية ودنوا منها فخرج من معسكر الافرنج نخبة من جنودهم فقاتلوا اوليك الامراء وهزموهم وقتلوا منهم الفي رجل والف حصان وقد ذكر المؤرخون المسلمون هذه الوقعة بعد اخذ الافرنج انطاكية كما سيجي وقد قدم حينئذ اسطول من جنوا ودخل المرفا المعروف بمرفا القديس سمعان على مقربة من انطاكية فسر الافرنج خبر قدومهم ومضى من معسكرهم كثيرون الى ذلك المرفا ليرحبوا بهم ويستطلعوهم اخبار اوروبا ويمتاروا لهم اقواتاً وبيناهم راجعون واكثرهم اعزال لا سلاح معهم فاجاهم اربعة الاف رجل من المسلمين وقتلوا كثيرين منهم وشتتوا الباقين وبلغ الخبر الى الجيش فاسرع غودفروا بغيره من الروساء والجند لانقاذ اخوانهم فهزموا المسلمين فارسل باغي سنان والي المدينة نخبة من رجاله لامدادهم مهدداً اياهم بانه لا يفتح لهم ابواب المدينة الا ان ينتصروا فانتصر الافرنج على الفريقين معاً وابدى غودفروا وروبرتس دوك نرمندية

ايات البسالة ودام القتال النهار كله وانهزم المسلمون وغرق منهم نحو الفين في العاصي ولم تكن خسائر الافرنج قليلة وطفق باغي سنان يضطهد النصارى الذين لبثوا في المدينة وحبس البطريرك يوحنا واذاقه مر العذاب وضربت المجاعة اطنابها في انطاكية فسال باغي سنان الافرنج ان يعقد هدنة معهم فاجابوه اليها ولو لم تكن لهم مصلحة فيها وكان بعض الافرنج في مدة الهدنة يدخلون المدينة وبعض اهلها يخرجون اليهم فسنحت الفرصة ليوموند ان يصادق اميرًا اسمه فيروز كان رئيس الحرس في ثلثة ابراج وكان مسيحيًا ارمنيًا فاسلم وكشف ذات يوم ليوموند تونيب ضميره له وانه يريد ان يصالح النصارى وان يؤديهم خدمة ما فحضه بيوموند على اتمام ذلك فوعده فيروز ان يسلم اليه الثلاثة الابراج التي في حراسته ولمح بيوموند الى انه اهتدى الى وسيلة تضمن فتح المدينة وطلب ان يكون الوالي عليها فخالفه بعضهم واذا بخبر يقول ان كربوغا (وسماه بعضهم كربوقا) امير الموصل قادم بمئتي الف مقاتل لنجدة انطاكية فوعد اكثر رؤساء الجيش بيوموند ان يكون اميرًا على انطاكية وسالوه ان يسرع ما امكن باتخاذ الوسيلة التي اشار اليها لفتحها قبل وصول كربوغا فارسل بيوموند للحال الى فيروز يطالبه بانجاز ما وعد فارسل فيروز ابنه الى بيوموند ليكون رهينة عنده معينًا الغد ميقاتًا لتسليم الابراج فاذاع الافرنج ان جيشهم سائر لقتال كربوغا وقبل المغيب اصطفت صفوفهم وسارت في الطريق ولما سدل ستار الظلام رجعوا نحو اسوار المدينة فدرى اخو فيروز بخيانة اخيه واراد كشف سره فطعنه فيروز بمدية نفذت الى قلبه وكان الظلام حالكًا والريح شديدة والحراس نيامًا آمنين فدلى فيروز سلمًا على الاسوار فاصعد بيوموند على السلم ضابطًا اسمه بيان فقال له فيروز كل شيء معد فتعالوا واراه جثة اخيه للتوثق بقوله ومع ذلك اعترى الجنود الهلع فترددوا عن التسلق فتسلق بيوموند آملاً ان يتبع غيره آثاره فلم يقتفوه ولامه فيروز على ابطائهم فاسرع نازلاً محققًا لاصحابه ان لاخوف

فاخذوا يصعدون على السلالم فسلم فيروز اليهم الابراج الثلثة التي كانت بحراسته ثم استولوا على سبعة ابراج اخرى ودلهم فيروز على مدخل المدينة فدخلوا وانتشرت صفوفهم في شوارعها تصيح Dieu Le veut (هكذا اراد الله) ولما طلع الصباح ابصروا علم بيومند يخفق على اعلى ابراج المدينة وانسل باغي سنان مستخفياً ولمان يصحبه بعض خدمه الى خارج المدينة حيث غشي عليه ولم يعد يستطيع ان يستمسك على جواده وخاف خدامه فتركوه وفيه رمق فمر به رجل ارمني احتز راسه واتى به الى الافرنج في المدينة كما روى المورخون العرب وكان فتح انطاكية في غرة حزيران سنة ١٠٩٨ انتهى ملخصاً عن ريموند دي اجيل الذي كان في هذه الحرب وعن غوليلمس الصوري وغيرهما ممن كتبوا تاريخ هذه الحرب

عـد ٨١٥

حصار المسلمين للافرنج في انطاكية

نذكر اولاً ما دونه المؤرخون المسلمون ثم نردفه بما قاله المورخون النصارى في هذه الحرب ولا يخفى ما في هذه الطريقة من تحقيق الاخبار فلا يبقى سبيل الى الريب في ما اتفق عليه فريقان مختلفان غرضاً ونزعة وموطناً وتيسير ترجيح الصحيح على الفاسد في ما اختلفا فيه وناهيك من تفصيل الاخبار ماخوذة عن عدة من الرواة

فنلخص حصار المسلمين للافرنج في انطاكية بعد فتحها عن ابن الاثير وابن خلدون وابي الفداء قالوا ، لما بلغ كربوغا صاحب الموصل ما فعله الافرنج بانطاكية جمع عسكره وسار الى الشام واقام بمرج دابق واجتمع اليه دقاق بن تنش (وسماه بعضهم تتش بالنون وبعضهم تتش بالتاء ونظن هذه الرواية اصح) صاحب دمشق وطغتكين اتابك (هذه الكلمة بمعنى ابي الامراء وكان الملوك السلجوقيون يلقبون بها بعض عمالهم وخلع بعض هؤلاء العمال الطاعة لمواليهم واستقلوا في اعمالهم ومنهم

الاتابك الذين انشاوا دولة في سورية وسيجي ذكرهم) وجناح الدولة صاحب حمص وهو زوج ام الملك رضوان(وقد مر بنا ذكرهم) وغيرهم من الامراء والقواد وساروا حتى نازلوا انطاكية وانحصر الفرنج بها بعد ان كانوا ملكوها اثني عشر يوماً وعظم خوفهم ولم يكن لهم ما يا كلونه وتقوت الاقوياء منهم بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر فارسلوا الى كربوغا يطلبون منه الامان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم ما طلبوا وقال لا تخرجوا الا بالسيف واساء كربوغا السيرة في من معه من المسلمين واغضب الامراء وتكبر عليهم فخبثت نياتهم عليه واضمروا له في نفوسهم الغدر ولما ضاق على الافرنج الامر وقلت الاقوات خرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين فولى المسلمون هاربين وكثر القتل فيهم ونهب الافرنج خيامهم وتقووا بالاقوات والسلاح وعن ابن الاثير خاصة انهم خرجوا من الباب متفرقين من خمسة او ستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوغا ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فقال لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم جميعاً ولما تكامل خروج الافرنج ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا اولاً من الاستهانة والاعراض عنهم وثانياً من منعهم عن قتل الافرنج وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب احد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوغا معهم وظن الافرنج ذلك مكيدة اذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة فقتل الافرنج منهم الوفاً وغنموا ما في العسكر من الاقوات والاموال والأثاث والدواب والاسلحة فصلحت حالهم وعادت اليهم قوتهم

وانبأنا ابن الاثير ايضاً بما ذكره كثيرون من مؤرخي النصارى كما سياتي وهو وجدان الافرنج حينئذٍ الحربة التي طعن بها جنب المسيح فقال وكان مع الافرنج راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم ان المسيح عليه السلام كانت

له حربة مدفونة بالقسيان الذين بانطاكية وهو بناء عظيم فان وجدتموها ظفرتم وان
لم تجدوها فالهلاك محقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفا اثرها وامرهم
بالصوم والتوبة ثلثة ايام وفي اليوم الرابع حفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر
فقال ابشروا بالظفر فخرجوا في اليوم الخامس الخ

واما ما رواه المؤرخون النصارى فهو ان الافرنج بعد ان دخلوا انطاكية
عكفوا على الطرب والقصف واقام الكبراء مراقص ونسوا الله الذي اسبغ عليهم
احسانه ولكن ما لبث الطرب ان تولاه الكرب فانهم منذ اليوم الثالث بعد دخولهم
المدينة شاهدوا من اعلى الاسوار فرساناً تومّ نحو المدينة ومن ورائهم حشد غطت
خيامه شواطي العاصي وكانت القلعة المنيعة ما برحت بيد المسلمين فخيم هذا الجيش
حول انطاكية وقائدهم كربوغا امير الموصل ولم يكن للافرنج وقت لاعداد الاقوات
فكانت فيهم مجاعة اكلوا بها الحمير والخيل والبغال والجمال بل الجلود العتيقة ايضاً
وكان عند الدوك غودفروا قليل من المون وزعه على الاخرين ولما نفد لم يبق له
الا ان يعزيهم ويشجعهم بكلامه وفر بعضهم واسلم بعضهم طلباً للقوت ومات
بعضهم جوعاً وقتل المسلمون بعضهم وفر اسطفانس كونت بلوا (بافرنسة) وسار
بطريق اوروبا فالتقى بالكسيس ملك الروم قادم لنجدة الافرنج بمئة الف جندي
يصحبه عشرة الاف لاتيني بامرة كوى اخو بيومند فاخبره بحصار كربوغا انطاكية
وبكثرة جيشه وقال ليبرىء ساحته من عار الهزيمة انه لو دفع جيش الملك قوتاً
لجيش كربوغا لما ناب كل جندي منه فلذة صغيرة فارتاع الكسيس او تظاهر بالارتياع
فعدل عن مسيره وعاد الى قسطنطينية ولم يوقفه عن العود تضرعات اخي بيومند
اليه واستحوذ اليأس والقنوط على الافرنج بانطاكية حتى اضطر بيومند ان
يحرق بعض البيوت ليخرج الرجال منها وقال غوليلمس الصوري ان كثيرين منهم
اوشكوا ان يكفروا به تعالى ويتذمروا من انه كافأ تحملهم المشاق حباً به باهماله

لهم في هذه الشدائد المبرحة وظهر بينهم من يدعي انه كانت لهم مناظر سموية راوا فيها يسوع المسيح ووالدته والقديس امبروسيوس ونفوس من قتلوا في الحرب يحققون لهم النصر والظفر قريباً واستنطقهم اويمر سفير البابا بالايمان عن صحة ما يزعمون فحلفوا وعزا بعض المؤرخين الحدثاء النصارى هذه المناظر الى مخيلتهم التي قام فيها ان الله لا يترك من تجندوا حباً به وقاسوا هذه المشاق والمخاطر دون آية سموية تفرج ضيقهم وتزيل بوسهم وحقق اخرون ان ما هذه المناظر الا رؤى سموية لا تستغرب على قدرة من هو على كل شيء قدير او على رافته بعباده في هذه الضيقة القصوى وزى حالهم تغيرت بعد هذه المناظر واقسم روساوهم الا ينفكوا عن القتال والجهاد الى ان ينقذوا اورشليم

واتى كاهن من ابرشية مرسيليا اسمه بطرس برتلمي الى مجلس رؤساء الجيش فقرر ان القديس اندراوس الرسول ظهر له ثلاث مرات وامره قائلاً اذهب الى كنيسة اخي بطرس في انطاكية واحفر في جانب المذبح الكبير فتجد الحربة التي طعن بها جنب المخلص وهي تنجي هذا الجيش وتنصره كما جعلوها علماً في مقدمة رجالهم واستحلف سفير البابا هذا الكاهن فحلف على صحة قوله وفرض الصوم والصلوة ثلثة ايام ثم عينوا اثني عشر رجلاً من الكهنة والفرسان الثقات وفي جملتهم ريموند دي اجيل المورخ الذي كتب هذا الخبر مفصلاً للعناية بهذا الكشف فاشغلوا عدة من الفعلة في الحفر في المكان المعين فحفروا اكثر من اثني عشر قدماً وعند المساء ظهرت تلك الحربة قال ريموند المذكور لما ظهرت هذه الحربة بادرت انا كاتب هذه الخبر الى تقبيلها بكل عبادة وورع وانتشرت البشرى في الجيش فانستهم الجوع وازالت الخوف من قلوبهم واصبح الضعيف منهم بطلاً والوغد كمياً وارسلوا بطرس السائح الى كربوغا يقول له « انصرف عن المدينة ولك ثلثة ايام تستعد فيها للرحيل وان ابيت واصررت على الحصار فجنود النصارى لا يباغتون عدوهم ولا

يسترقون النصر بالخديعة فيبحون لك اختيار الحرب ان شئت وان احببت حجب اراقة الدم الكثير فاختر عددًا من شجعان جيشك وهم يختارون عددًا يوازيه من جيشهم وقاتل انت ان شئت احد امراء النصارى والله يولي النصر من شاء وان شئت الحرب عامة فنبه الى ذلك باشارة ، فلما سمع كربوغا هذا الكلام لبث مدة صامتاً مدهوشاً محتدماً من هذه الجسارة ثم قال قل لمن ارسلك ان على المغلوب ان يقبل الشروط التي توضع عليه لا ان يفترض شروطاً فانهم من الصعاليك الاوغاد يروعون النساء بجزعبلاتهم واما رجال الحرب في اسيا فلا يهولهم سقط الكلام وسيعلم النصارى ان هذه الارض ارضنا ومع ذلك ساراف بهم ان اسلموا وانا ناسي ان هذه المدينة جعلتها المجاعة في حوزتنا فقل لاصحابك ان يسرعوا باغتنام عفوي والا اخرجتكم بالسيف من انطاكية واراد بطرس السائح ان يجاوب فمد كربوغا يده الى سيفه وامر ان اطردوا هؤلاء الاوغاد فعاد بطرس يخبر قومه بما كان في وفادته واستعدوا للقتال

وصرف الجيش ليله بالصلوة وتقدم منهم في الصباح مائة الف الى مائدة الخلاص وخرجوا منقسمين الى اثني عشر صفاً وفي مقدمتهم ريموند المؤرخ حاملاً الحربة التي وجدوها وساروا الهوينا ولما رآهم كربوغا ظن انهم خرجوا طالبين عفوه لكنهم راوا علماً اسود على قلعة انطاكية وكان علامة لما يعتمد عليه الافرنج فعلم انهم خرجوا محاربين وكان من جيشه الفا رجل يحرسون معبر العاصي فهزمهم الافرنج عند دنوهم من المعبر فاوقعوا الرعب في قلوب سائر الجيش فاخذوا بالفرار فقطع كربوغا راس احد الفارين علّه يوقفهم وارسل يقول لامراء الافرنج ان يحجبوا الدماء ويختاروا عددًا منهم وهو يختار عددًا موازياً فيقتتل الفريقان وكان ابى هذه الطريقة في الامس فانكرها عليه الافرنج اليوم واستعرت نار الحرب ولم تكن ساعة الا وانهزم جيش كربوغا وسابقهم هو الى الفرار واستمر ولهان الى ان

عبر الفرات وكان في معسكره كثير من المون والاسلحة والملابس فظلوا اياماً ينقلونها الى انطاكية وقتل من الافرنج في هذه الوقعة اربعة الاف رجل . ولما راى من كان في القلعة من رجال المسلمين ما كان في جيش كربوغا استسلموا الى رؤساء الجيش وتنصر بعضهم وذهب بعضهم يروون ما راوا من سطوة الافرنج وكثرة عديدهم في انحاء سورية حتى تملك الرعب قلوب السوريين وقال ريموند دي اجيل لو مشى الصليبيون نحو اورشليم على اثر انتصارهم لما وجدوا من يعترضهم او يناوئهم لكنهم صرفوا اهتمامهم الى اعادة البطريرك يوحنا الى كرسيه وكرامته وفتحوا الكنائس واقاموا الكهنة فيها وخصوا نصيباً من غنائمهم من معسكر كربوغا بشراء آنية للكنائس وتجهيزها وانفذوا رسائل الى اصحابهم في المغرب يبشرونهم بما كان لهم من توفيق الله ويحضونهم على اللحاق بهم لمشاطرتهم الفخر والاجر وكان الكثيرون منهم يرون ان يسيروا للحال الى اورشليم ومن هؤلاء الدوك غودفروا على ان الكثيرين من رؤساء الجيش ارتأوا ان ينتظروا مرور ايام الحر اذ كانت الوقعة المذكورة في حزيران وارجأوا سفرهم الى ايام الخريف فاصابهم وباء مات به في شهر واحد خمسون الف نفس واعظم من اسفوا عليه حينئذ اويمر اسقف بوي سفير البابا ودفنوه في كنيسة القديس بطرس بانطاكية في المحل الذي وجدوا فيه الحربة المذكورة . انتهى ملخصاً عمن كتبوا تاريخ هذه الحروب من المؤلفين المعاصرين لها او شهدوها كريموند دي اجيل وغوليلمس الصوري

عد ٨١٦

ذيل في اقوال العلماء في الحربة التي وجدت حينئذ في انطاكية

ان كثيرين من المؤلفين الذين كانوا في جملة الافرنج الصليبيين او المعاصرين لهم وغيرهم اثبتوا ان هذه الحربة هي الحربة نفسها التي طعن بها الجند جنب المخلص وهو على الصليب معتمدين على ان الكشف عنها كان بوحي ومويدين رايهم بالآيات

التي اجراهـا الله بواسطة هذه الحربة على ان بعض اهل النقد منهم بايل وجول سيمون وتيار وغيرهم ممن هم على شاكلتهم من علماء هذا العصر قد انكروا انها الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلص فلم نر ان نغضي عن هذا المبحث صامتين بل ان نورد في هذا الذيل اقوال المؤرخين والعلماء في هذا الصدد

ان اندراوس اسقف كريت الذي كان في القرن السابع ابأنا (في مقالته في ارتفاع الصليب فصل ٥) ان الحربة التي طعن بهـا جنب المخلص دفنها اليهود مع الخشبة التي صلب عليها وغيرها من ادوات الصلب وقد حقق كثيرون ان القديسة هيلانة والدة الملك قسطنطين الكبير وجدت عند تنقيبها عن خشبة الصليب ثلاثة صلبان والحربة والمسامير ولم نعد نعلم ما كان من امر هذه الحربة الى ان تكلم فيها القديس غريغوريوس اسقف طور (بافرنسة) في القرن السادس وعدها (في كتابه في مجد الشهدا فصل ١٧) من جملة الذخائر الموجودة في ايامه وانبأنا بيدا المكرم في القرن التاسع (في كتابه في الاماكن المقدسة) انها كانت محفوظة في اورشليم في صليب من خشب بكنيسة القبر المقدس ثم وجدت هذه الحربة في كنيسة القديس بطرس بانطاكية كما رايت وحقق وجدانها واثبت انها الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلص ريموند دي اجيل الذي كان في جملة الموكول اليهم الكشف عنها والذي كان يحملها عند حملتهم على جيش كربوغا وقد اكد ذلك روبرتس كنت فلاندرا في رسالة الى امراته موصياً اياها ان تبني ديراً اكراماً للقديس اندراوس لانه هداه الى المحل الذي كانت فيه الحربة التي طعن بها المخلص وهذه الرسالة مثبتة في تواريخ فلاندرا وحقق ذلك كاهن اسمه تودابودس tudebudus كان شاهداً عيانياً لوجدان هذه الحربة ولحملها كلم في القتال وانتصارهم واودع ذلك كتابه الموسوم بتاريخ السفر الى اورشليم وقد اثبت تاريخه هذا دوشان في المجلد الرابع من مؤلفي تاريخ افرنسة وقد ذكر وجدان هذه الحربة انسلموس دي

ريبامون ribemont الذي توفي في حصار عرقا فانه كتب رسالة الى مناسا رئيس اساقفة رنس (بافرنسة) قال فيها ما ترجمته . بينا كنا في حالة تعيسة جدًا مدَّ الله يد عونه لعبيده وهداهم بحنوه الى الحربة التي طعن بها جنب المخلص وكانت مخبوءة تحت بلاط كنيسة القديس بطرس وطولها يوازي طول رجلين ولما سعدنا بوجدان هذه الدرة الثمينة احيي الرجاء قلوبنا . وقد كتب رؤساء الجيش رسالة الى البابا اوربانس الثاني ومما قالوه فيها . قد ضايقنا الجوع وغيره من المحن الكثيرة حتى نحر كثيرون منا خيلهم وحميرهم التي كانت معهم واقتاتوا بها على ان رحمة الله لطفت بنا ونجدتنا فان القديس اندراوس اوحى الى احد عباد الله وهداه الى المحل الذي كانت الحربة التي طعن بها لونجيس جنب المخلص مخبوءة فيه فوجدنا هذه الحربة المقدسة في كنيسة القديس بطرس بانطاكية فهذا الاكتشاف واوحية اخرى كثيرة اعادت الينا قوتنا وشجاعتنا حتى ان من كان اليأس والرعب قد استحوذا عليهم عادوا موعبين نخوة وجسارة واخذ يحرض بعضهم بعضاً على القتال وبعد ان بقينا محصورين ثلثة اسابيع واربعة ايام اعترفنا بخطايانا يوم عيد القديسين بطرس وبولس وخرجنا من المدينة مصطفين للقتال وكنا اقل عددًا من جيش اعدائنا العرمرم حتى ظنونا نحاول الهرب لا اننا نستنزلهم للقتال .

وقد انبأنا ريموند دي اجيل المذكور والبر المورخ من اكس وغوليلمس اسقف صور انه وقع في جيش الصليبين عند حصار عرقا خلاف في ما اذا كانت هذه الحربة هي الحربة التي طعن بها جنب المخلص فان ارنول خودى دوك نرمندية اخذ يذيع بينهم ان هذه الحربة ليست الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلص واستمال بعضهم الى رايه ولما سمع ذلك بطرس برتلمي الذي كان الوحي اليه بوجدانها احتدم واخذ يقسم على صحة ما كان من الوحي فانقسم الشعب ففرض عليهم بطرس المذكور ان يضرموا نارًا فيدخل هو فيها حاملاً الحربة فان نجا من النار ولم يمسه ضر

تحتم عليهم ان يصدقوا ان هذه الحربة هي هي الحربة التي طعن بها المخلص وان اهلكته النار فيريد ان يموت ضحية لكذبه فاضرموا نارًا عظيمة واجتمع العسكر والشعب واخذ هذا الكاهن الحربة وجثا فصلى ثم دخل النار المتاججة حافياً حاملاً الحربة ولبث مدة ثم خرج سالماً ولم يمسه ضر ولا حرق بجسمه او ثوبه فتهافت الشعب عليه بعضهم للتبرك به وبعضهم ليمتحنوا حقيقة حاله فاذوه اكثر من اذية النار له وقد ذكر بعضهم شهادات الكثيرين ممن شهدوا هذه الآية بانفسهم وقد اخذ الصليبيون هذه الحربة معهم من انطاكية الى اورشليم ثم نقلت هذه الذخيرة الثمينة من اورشليم الى قسطنطينية ثم باع بودوين الثاني فلذة منها الى البنادقة بمبلغ عظيم من المال كان في اقصى الحاجة اليه ثم شرى منهم القديس لويس ملك افرنسة هذه الذخيرة ووضعها في المعبد المعروف بالمعبد المقدس بباريس La sainte chaqelle واما ما بقي من هذه الحربة فاستمر محفوظاً في قسطنطينية في كنيسة القديس يوحنا الى ان فتح هذه العاصمة السلطان محمد الثاني الفاتح سنة ١٤٥٣ فامر ان تحفظ خزينة الملك وزينة الكنائس والذخائر وبعد وفاة السلطان محمد الثاني اختصم ابناه بازيد وزيزيم وتغلب بازيد على اخيه فتحى اخوه في رودس عند رئيس الفرسان المسمى بطرس ابوسون فرغب بازيد في ان يصادق الرئيس المذكور ليمنع اخاه من العود الى منازعته الملك وروى بوسيوس في تاريخ فرسان القديس يوحنا في اورشليم (ك ٧ فصل ٨) ان الرئيس المذكور حث السلطان بازيد ان يهدي الى البابا اينوشنسيوس الثامن الحربة المقدسة فارسلها اليه بازيد مع سفير ورافق هذا السفير كويدو بلانكفور ابن اخي بطرس الرئيس المذكور فبلغا الى رومية سنة ١٤٩٢ فارسل البابا كردينالاً لملاقاة هذا السفير ولما انتهوا الى رومة لاقى البابا هذه الذخيرة مصحوباً بالكرادلة وحشد من الكهنة والشعب الى الباب المعروف بباب الشعب واخذ الذخيرة بيده ووضعها في كنيسة القديس بطرس

وهذه الاخبار ماخوذة عن مذكرة كتبها ثلاثة علماء من الرومانيين دونوا فيها كل ما كان هناك في ايامهم وقد روى ذلك ايضاً الكردينال مرقس فيكوريوس الذي كان بانكونا (بايطاليا) عند مامر سفير بازيد حاملاً هذه الهدية النفيسة الى الحبر الروماني وقد فند الاب اونورا الكرملي كل ما ورد على هذه الذخيرة من الاعتراضات في مولفه في قواعد الانتقاد في المجلد الثالث منه انتهى ملخصاً عن معجم التاريخ لكوردان وعن معجم الصليبين لاولت دومسنيل من طبعة الاب مين

عد ٨١٧

في سير الافرنج من انطاكية الى اورشليم

لم يذكر المؤرخون الافرنج فتح المعرة وحمص وشيزر بعد انتصارهم بانطاكية ولكن ذكره ابن الاثير وابن خلدون وابو الفدا فقالوا ما ملخصه لما انهزم المسلمون امام الافرنج عند انطاكية سار الافرنج الى معرة النعمان فنازلوها وحصروها وقاتلهم اهلها قتالاً شديداً فعمل الافرنج برجاً من خشب يوازي سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر ذلك المسلمين ولكن تداخل بعضهم الفشل والهلع وظنوا انهم اذا تحصنوا ببعض الدور امتنعوا فيها فنزلوا من السور واخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ورآهم غيرهم ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم ايضاً من السور وتبعهم غيرهم حتى خلا السور فصعد الافرنج اليه على السلالم ودخلوا المدينة واعملوا سيوفهم في اهلها ثلاثة ايام فقتلوا ما يزيد علىماية الف وسبوا السبي الكثير وملكوه واقاموا اربعين يوماً وساروا الى عرقا فحصروها اربعة اشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها وساروا الى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة وخرجوا على طريق النواقير الى عكا فلم يقدروا عليها هذا ما ذكره المؤرخون العرب المذكورون

واما ما رايناه في كتب المؤرخين الافرنج التي لدينا فهو انهم استمروا متربصين في

انطاكية ينتظرون حلول اجل سفرهم الى اورشليم في الربيع سنة ١٠٩٩ وكان بعض رؤساء الجيش يحملون حملات خصوصية على بعض المدن فربما كان من ذلك فتحهم المعرة ومصالحة والي شيزر وحمص لهم على هاتين المدينتين كما روى المؤرخون العرب ولما حل او فات ايضاً الميقات المضروب للسفر الى اورشليم كثر التذمر في الجيش الافرنجي من هذا الابطاء ولا سيما اذ بلغهم ان خليفة مصر الفاطمي سير جيشاً فاستحوذ على اورشليم قبل ان يسبقهم الافرنج اليها فعولوا على السير ومشى في مقدمة الجيش كنت تولوز ويصحبه من الرؤساء تنكراد وروبرتس كنت نرمندية وكان الرعب من سطوتهم وانتصاراتهم قد تولى قلوب سكان البلاد فبادروا الى ملاقاتهم النصارى ليستمدوا عونهم والمسلمون ليسألوهم العفو والرضى عنهم وكان الفريقان يقدمان للجيش ما يحتاجون اليه من المون والماوى وغيرها وزادهم سروراً ان كثيرين من اخوانهم الذين كانوا يظنونهم قتلوا قد عادوا اليهم اذ كان المسلمون قد اسروهم فخلوا حينئذٍ سبيلهم وسافر غودفروا من انطاكية في اوائل اذار سنة ١٠٩٩ بما بقي من الجيش ورافقه اخوه بيومند الى اللاذقية وودعه وعاد الى امارته في الرها خائفاً ان يسطو عليها احد ولحقهم في اللاذقية من كانوا قد اعتزلوا في الرها وكيليكية واتصل بهم هناك كثير من فرسان الانكليز وهم من الاشراف واجتازوا من اللاذقية بجبلة وطرطوس فدانتا لهم وخيموا حول عرقا جميعاً وهناك كان بينهم الخلاف الذي مر ذكره على الحربة التي وجدوها في انطاكية ولما فصل هذا الخلاف بالآية التي ذكرناها في العدد السابق وعادوا الى الوفاق اقبل عليهما وفدان احدهما بعد الاخر الاول من قبل الكسيس ملك الروم يجدد مواعيد الملك بانجاده لهم ويعتبهم لاهمالهم ما وعدوه به فازدردوا رسله وابلغوهم عدم ثقتهم بكلام مولاهم وانه نقض وعوده السابقة بتقاعده عن امدادهم في انطاكية وكانوا قد كتبوا اليه انهم لا يرون انفسهم ملتزمين بحفظ وعودهم له لا خلاله بوعوده والوفد الثاني كان

من قبل خليفة مصر الفاطمي يبلغهم ان هذا الخليفة استحوذ على اورشليم وفلسطين
ويحقق لهم انه لا ينوي بهم الا خيرًا لكنه لا يستطيع ان يفتح مذ الان فصاعدًا ابواب
اورشليم الا لحجاج اعزال لا سلاح معهم فلم يجاوب روساء الجيش وفد الخليفة
المصري الا برفعهم الحصار عن عرقا وحرق معسكرهم واسراعهم بالسير الى اورشليم
فمروا بجانب اطرابلس وقد اراد واليها ان يعترض لمسيرهم فهزموه واصحابه واضطر
ان يدفع اليهم غرامة وكثيرًا من المون وان يخلي سبيل السجني النصارى الذين كانوا
في محبسه وقد راقهم ما شاهدوه لاول مرة من قصب السكر ورطب النخل
والليمون وغيرها من الثمار والاشجار التي لا توجد في اوربا واقبل اليهم جمع من
النصارى سكان لبنان وهدوهم الى ثلث طرق يسيرون بها الى اورشليم طريق على ساحل
البحر وطريق في وسط البلاد وطريق في سورية المجوفة فاثروا طريق الساحل
لقربها كل وقت من اسطول بيزا وجنوا الذي كان يمدهم في طريقهم فمروا بالبترون
وجبيل وكان نصارى لبنان يلتقونهم مقدمين لهم الازودة وكل ما يحتاجون اليه
من المون لجامعة الدين بين الفريقين حتى كان الحبسى يخرجون من محابسهم في الجبل
ويأتون اليهم داعين لله ان يتيح التوفيق لهم وعند اجتيازهم ببيروت وصيدا وصور
قدم لهم المسلمون ما يحتاجون اليه كيلا يسطوا على بساتينهم وجناتهم ولما انتهوا الى
عكا خرج اليهم واليها واعدًا ومقسمًا على انه يسلم لهم المدينة متى استحوذوا على
اورشليم فجاوزوها الى قيصرية المعروفة بقيصرية فلسطين ووقعت في معسكرهم
حمامة واخذوها فوجدوا تحت جناحها رسالة من والي عكا يخبر بها ولاة المدن
المجاورة له بسير الافرنج ويحضهم ان يجمعوا من استطاعوا من الرجال لمناواتهم
فقرئت هذه الرسالة في مجتمع الروساء فشكروا الله واستبشروا بان الله معتنٍ بهم
اذ سخر طير السماء لتاتيهم بالكشف عما تكنه سرائر اعدائهم

واقاموا بهذه المدينة اربعة ايام احتفلوا بها لعيد العنصرة ثم ساروا فاستحوذوا

على اللد المسماة قديماً ديوسبولي والمشهورة باستشهاد القديس جيورجيوس شفيعهم فيها واقاموا اسقفاً في هذه المدينة ونصبوا له عدة كهنة واتفقوا ان يخصوا كنيسة هذه المدينة بعشر ما يغنمونه في حملتهم هذه ثم ساروا الى الرملة فانهزم سكانها خوفاً منهم الى الجبل فنزلوها ووجدوا فيها ما سد حاجاتهم من مون وغيرها واقاموا فيها اسقفاً افرنسياً مولداً اسمه روبرتس مشهوداً له بعلمه وفضيلته

ولما عرف المسلمون بدنوهم من اورشليم هاج من كان ساكناً منهم على عدوتي الاردن وتخوم بلاد العرب ونابلس وتالبوا وساروا نحو اورشليم فنكلوا بالنصارى في طريقهم وغلوا بعضهم بالقيود وانتهبوا الكنائس والمعابد واحرقوها وسار جيش الافرنج من الرملة في وادٍ بين جبلين صعب المسلك مستوعر ولكن لم يعترضهم احد في طريقهم فاستبشروا بان الله معتنٍ بهم وبلغوا عند المساء الى قرية تسمى عناتوت وسماها غوليلمس الصودي عمواص وهي المعروفة الان بعينانا (طالع عد ٢٧٦ في المجلد الثاني من هذا التاريخ) فباتوا تلك الليلة هناك فاقبل عليهم بعض النصارى المنهزمين يخبرونهم بان المسلمين تالبوا ووثبوا على قرى الجليل ونابلس وما جاور الاردن فنهبوا واحرقوا وقتلوا كثيرين من النصارى واوفد اهل بيت لحم الى الافرنج رسلاً يستغيثون بهم ويستمدونهم فسير غودفروا تنكراد بمائة فارس مدرع فاستقبلهم الاهلون بالاحتفاء والتكريم وذهبوا تواً لزيارة المذود الذي ولد به المخلص ونشر تنكراد علمه على كنيسة المذود في الساعة التي ولد المسيح فيها

ولما كان الصباح سار جيش الافرنج من عينانا نحو اورشليم ولما اشرفوا على اورشليم صاحوا يا اورشليم يا اورشليم وبكوا لفرط سرورهم قال المؤرخ روبرتس الراهب الذي كان في حملتهم (كتاب ٨ من صفحة ٧٤) يا يسوع كم من الدموع انهمرت من عيون جنودك عند رؤيتهم اسرار اورشليم الارضية فانهم اجمع خروا سجداً وحيوا بهتافهم واجسادهم قبرك المقدس فانت دفنت هناك وهم يسجدون

لك جالساً عن يمين الآب وسوف تاتي لتدين الاحيا والاموات. ثم نهضوا وكردوا الهتاف **Dieu le veut dieu le veut** وجددوا حلف اليمين على انقاذ اورشليم ومشوا حفاة نحو اورشليم مترنمين بقول النبي انهضي يا اورشليم وارفعي الحاظك وانظري الى المخلص الذي اتى ليكسر اغلالك الى ان خيموا حول المدينة. انتهى ملخصاً عمن ذكرنا من المؤرخين المعاصرين لهذه الاحداث

عد ٨١٨

في حصار اورشليم وفتحها

نذكر اولاً جرياً على عادتنا اقوال المؤرخين المسلمين ملخصة عن ابن الاثير وابن خلدون وابي الفداء قالوا كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش ملكه من يد العلويين اصحاب مصر واقطعه للامير سقمان بن ارتق التركماني ولما توفي صارت القدس لولديه ايلغازي (وعن ابن خلدون ايلغاري بالراء) وسقمان فلما وهن الاتراك في موقعة انطاكية طمع المصريون في ارتجاعها فسيروا اليها جيشاً في مقدمته الافضل بن بدر الجمالي فحاصرها وفيها الاميران ايلغازي وسقمان اخوه وابن عمهما سونج (ويروى سونخ) وابن اخيهما ياقوتي ونصبوا عليها نيفاً واربعين منجنيقاً فعطلوا بعض مواضع من سورها ودام القتال والحصار نيفاً واربعين يوماً وملكوها بالامان في شعبان سنة ٤٨٩ هـ سنة ١٠٩٧ م واحسن الافضل قائد جيش مصر الى ايلغازي وسقمان ومن معهما وساروا الى دمشق ثم عبروا الفرات فاقام سقمان ببلد الرها وسار ايلغازي الى العراق واستناب المصريون في القدس رجلاً يعرف بافتخار الدولة فلما وصل الافرنج اليه حصروه نيفاً واربعين يوماً ونصبوا على المدينة برجين احدهما من ناحية صهيون والاخر من جهة الشمال فاحرق المسلمون البرج الاول وقتلوا كل من به فاتاهم المستغيث بان المدينة قد ملكت من جهة الشمال وابث الافرنج في البلدة اسبوعاً يقتلون فيه المسلمين واختفى جماعة منهم بمحراب داود

فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة ايام فبذل لهم الفرنج الامان فسلموا اليهم ووفى الفرنج لهم فخرجوا ليلاً الى عسقلان فاقاموا بها وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على خمسين الفاً منهم جماعة كثيرة من الائمة والعلماء والعباد والزهاد ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف واخذوا من عند الصخرة نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستماية درهم وماية وخمسين قنديلاً من الصغار وتنوراً من فضة وزنه اربعون رطلاً بالشامي ونيفاً وعشرين قنديلاً من الذهب الى غير ذلك من الغنائم . وكان فتح القدس سنة ٤٩٢ ﻫ سنة ١٠٩٩ م

وورد المنهزمون من الشام الى بغداد صحبة القاضي ابي سعد الهراوي فاوردوا في الديوان كلاماً ابكى العيون واوجع القلوب وقاموا بالجامع فاستغاثوا وبكوا وابكوا ولشدة ما اصابهم افطروا في رمضان فامر الخليفة ان يسير القاضي ابو محمد الدامغاني وابو بكر الشاشي وابو القاسم الزنجاني وغيرهم الى السلاطين السلجوقية فوقع الخلف بين هولاء السلاطين فتمكن الافرنج من البلاد وقال في ذلك المظفر الابيوردي ابياتاً منها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم (١)

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات ايقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي او بطون القشاعم

يسومهم الرومُ الهوان وانتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وكم من دماء قد ابيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم

اترضى صناديد الاعاريب بالاذى ... وتغضي على ذل كماة الاعاجم

فليتهم اذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

(١) ويروى عرضة للمراجم

اما الذي رواه المؤرخون النصارى ممن شهدوا هذه الحرب او عاصروها فهو ان الافرنج اخذوا مذ بلوغهم الى اسوار اورشليم يستعدون لحصارها فخيم غودفروا وروبرتس كنت نرمندية وروبرتس كنت فلاندرا في شمالي المدينة في ناحية جبل الزيتون وتنكراد في ميمنتهم وبجانبه ريموند كنت تولوز تجاه الباب الغربي ثم اقام فريقاً من عسكره في جنوب المدينة بجانب جبل صهيون واستمرت جهة المدينة الشرقية خالية من عسكر لكنهم اقاموا مخفراً على جبل الزيتون وخرج بعض النصارى من المدينة يشكون الى الافرنج سوء حالهم وتضيق المصريين وما اجروه من العذاب عليهم وما نهبوه من كنائسهم ودورهم فزاد ذلك الافرنج حمية وحماسة وفر البطريرك سمعان الى قبرس وكان في المدينة من جيش المصريين اربعون الفاً وتجند من سكانها عشرون الفاً فكان هذا العدد يربو على عدد الافرنج المقاتلين الذين بلغوا اورشليم ولم يكن معهم سلالم ولا ادوات للحصار ومع ذلك هاجموا المدينة فنقضوا السور الخارج وكان السور الداخل منيعاً فلم يقووا عليه ولم يكن معهم الا سلم واحد يوازي علو السور فتسلق عليه بعض الشجعان وقاتلوا المصريين وجهاً لوجه فتراكم المصريون عليهم وقتلوا بعضاً وحذفوا بعضاً الى اسفل فماتوا وارسل الافرنج شراذم منهم تفتش على اخشاب لاصطناع سلالم وادوات للحصار فعثروا في مغارة على اخشاب ضخمة فاتوا بها الى المعسكر ونقضوا بعض البيوت واخذوا اخشابها وكان بعض المتحمسين يدنون من الاسوار ويقبلون احجارها باكين وقائلين يا اسوار اورشليم اسقطي علينا وليغط غبارك عظامنا وانتهى اليهم وهم على هذه الحال السيئة ان اسطولاً من جنوا بلغ مرفا يافا مشحوناً ذخراً ومعدات للقتال فسار للحال منهم ثلث مئة رجل بامرة ريموند بالت فالتقاهم شرذمة من الاعداء في اللد فهزموها وشتتوا شملها وبلغوا يافا فوجدوها خالية من السكان وراوا ان اسطولاً مصرياً سطا على الاسطول الجنوي والقى النار فيه على انهم

استطاعوا بجهدهم ان يخرجوا من السفن المؤن وكثيرًا من الادوات اللازمة لاصطناع المناجيق وغيرها من ادوات الحرب فأتوا بها الى اورشليم يصحبهم عدة من المهندسين والنجارين ثم اخذ تنكراد كتيبة من جنده فجال بها فعثر على بعض اميال عن اورشليم على غابة جلبوا منها ما لزمهم من الاخشاب وانكبوا ليلاً ونهارًا على اصطناع الادوات حتى كان الامراء انفسهم يبارون الفعلة في عملهم وفي جملة ما صنعوه ثلثة ابراج تحركها الات وهي منقسمة الى ثلث طبقات يقوم في الاولى العملة الذين يحركون البرج وفي الثانية والثالثة المحاربون وكانت هذه القلاع المتحركة ارفع من اسوار المدينة وقبل ان يشرعوا بحصار المدينة حضهم الاساقفة والكهنة على التضرع الى الله بالصوم والصلوة والتصدق ثم هاجموا المدينة في اليوم الثالث عشر من تموز سنة ١٠٩٩ فكانت الحرب سجالاً وفي اليوم التالي بكروا الى القتال واشغلوا الرجال وادوات الحرب ودنت الابراج المتحركة من اسوار المدينة وكان غودفروا في اعلى احدها يصحبه اخوه اوستاش وبودوين دي بورج فلا يخطىء سهم لغودفروا وابدى سائر الرؤساء ايات البسالة محاربين في مقدمة جنودهم غير مبالين بالخطر ودامت الحرب متسعرة اثنتي عشرة ساعة الى ان فصل الظلام بين المتحاربين ثم عاد الفريقان الى القتال صبح اليوم التالي بعزيمة اشد من الجلمود واقتحم الافرنج اسفل الاسوار غير مبالين بما يقذفه المسلمون من النار من اعلاها وحاول بعضهم نقض الاسوار وبعضهم التسلق عليها فازداد المسلمون حماسة وحمية واكثروا من قذف النار عليهم وعلى ابراجهم الخشبية وسائر ادواتهم حتى التهبت ولا ماء ولا خل لهم لاطفائها فمات من الفرنج كثيرون بالنار والسهام وتولاهم اليأس وظنوا ان الله اهملهم وقيل ان القديس جيورجيوس ظهر لهم بهيئة فارس يرمح برمحه ويشير اليهم ان يدخلوا المدينة وقد يكون غودفروا وريموند قالا ذلك للجنود ليوقظا بهم الشجاعة فانتعشوا وعاودتهم الحمية واسرعت النساء والاحداث

والمرضى انفسهم الى محل المعركة حاملين الماء والزاد والسلاح ومعاونين الجنود على ادناء ما سلم من الابراج المتحركة الى الاسوار واخذوا يرمون منها الاحجار والنار على ادوات اعدائهم وعلى جوالق التبن واكياس العشب الموضوعة وراء الاسوار فالتهبت واثار الهواء لهيبها نحو المسلمين فهرعوا من النار والدخان وامسوا عرضة لسهام الافرنج وسيوفهم فنزل غودفروا وكثير من الرؤساء والشجعان من ابراجهم الى الاسوار ثم الى المدينة وتبعوا المصريين في الاسواق فقتلوا كل من وصلوا اليه ولما راى تنكراد وروبرتس ما كان دخلا ببعض الشجعان الى المدينة من نافذة فتحاها وبتسلقهم الاسوار وفتح غودفروا وتنكراد الباب المعروف بباب القديس اسطفانس فدخل به فريق اخر من الصليبين فانهزم المسلمون فتشتتوا في كل ناحية وتعاظم في اورشليم الهتاف Dieu Le veut Dieu Le veut واعتصم بعض المسلمين ببرج داود مع اميرهم ولجأ بعضهم الى جامع عمر فتبعهم الفرنج وقتلوهم وقال ريموند دي اجيل الذي كان شاهدًا عيانيًا ان الدم الجاري في رواق الجامع كان يبلغ لركبة الرجل وقالوا ان عدد القتلى في ذلك اليوم وما بعده بلغ الى سبعين الف قتيل وقد رأيت قول المؤرخين المسلمين ان عدد القتلى في المسجد الاقصى يزيد على خمسين الفاً وعن ابي الفداء سبعين الفاً وكان فتح اورشليم في ١٥ او ١٦ تموز سنة ١٠٩٩

وبعد الظفر ساروا حفاة مكشوفي الرؤوس الى كنيسة القيامة باحتشاء واخبات وخشوع وانصات يشكرون الله على ما اولاهم وصرفوا قسماً من الغنائم التي اخذوها في اغاثة الفقراء والايتام وفي زينة المذابح التي اقاموها وقناديل الفضة والذهب التي غنموها من الجامع الاقصى وقعت في نصيب تنكراد فصرفها بعد المناوضة مع غودفروا في سبيل عمل المبرات وكان نصارى اورشليم اخفوا ما كان فيها من خشبة الصليب ثم اظهروها للصليبين فطيف بها في اورشليم بصنوف

التجلة والخشوع

وبعد عشرة ايام من فتحهم اورشليم اخذوا يتفاوضون في من يملكونه في اورشليم وعولوا على ان يختاروا عشرة رجال من نخبة الاكليروس والجند وفرضوا صوماً وصلوات وصدقات ليلهمهم الله الى انتخاب ملك يدبر شؤون هذه المملكة الحديثة وحلف المختارون العشرة امام الجنود على انهم لا يراعون في انتخابهم الا المصلحة نابذين كل غرض خاص وكل ميل او نفع شخصي واستطلعوا اولاً اراء الجنود في كل من رؤسائهم وقال غوليلمس الصوري انهم سالوا اسرات الرؤساء وخدامهم واستحلفوهم ليثبوا لهم ما يرونه في اداب كل من المرشحين وما يعتقدونه في سيرتهم وخصالهم واميالهم واطوارهم وبعد التنقيب والتروي المديد نادوا بغودفروا دوك لوران ملكاً على اورشليم فتقبل الجنود هذه التسمية بالبهجة والسرور وشكروا الله واخذوا الملك بالاحتفاء الى كنيسة القبر المقدس حيث اقسم على ان يرعى سنن الشرف والعدل وابى ان يكلل بتاج من ذهب في مدينة كلل فيها المخلص باكليل الشوك واقتصر على ان يسمي نفسه بارون ومحامي القبر المقدس كما صنع كرلس الكبير الذي هو من سلالته اذ دعا نفسه محامي كنيسة الله ومعاوناً حقيراً للكرسي الرسولي . انتهى ملخصاً عن كثير من كتب المؤرخين الافرنج الذين اعتمدوا على تواريخ المعاصرين

عد ٨١٩

وقعة عسقلان وغيرها الى وفاة غودفروا ملك اورشليم

ذكر ابن الاثير وقعة عسقلان فقال . في هذه السنة (اي سنة ٤٩٢ هـ سنة ١٠٩٩ م) في رمضان كانت وقعة بين العساكر المصرية والفرنج وسببها ان المصريين لما بلغهم ما تم على اهل القدس جمع الافضل امير الجيوش العساكر وسار الى عسقلان وارسل الى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم فاعادوا الرسول بالجواب

ورحلوا على اثره وطلعوا على المصريين اذ لم يكن عندهم خبر من وصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على اهبة القتال فنادوا الى ركوب خيلهم ولبسوا اسلحتهم واعجلهم الفرنج فهزموهم وقتلوا منهم من قتل وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح وغير ذلك وانهزم الافضل فدخل عسقلان ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز فاحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه وعاد الافضل في خواصه الى مصر ونازل الفرنج عسقلان وضايقوها فبذل لهم اهلها قطيعة اثني عشر الف دينار وقيل عشرين الف دينار ثم عادوا الى القدس ، وقد عثرنا على اخبار هذه الوقعة من جهة الفرنج في الرسالة التي رفعها غودفروا ملك اورشليم وغيره من رؤساء الجند والاكليرس الى البابا بسكاليس الثاني سنة ١١٠٠ واليك ملخص ما قالوا عن هذه الوقعة ، انتهى الينا ان ملك بابل (يريدون ملك مصر) اتى الى عسقلان في جيش يشذ عن العد متهددًا ان يأسر الفرنج الذين يحمون اورشليم ويستولي على انطاكية ولما تيقنا صحة الخبر سرنا لملاقاة المصريين وتركنا في اورشليم جرحانا وحامية كافية ولما التقى الجيشان جثونا وابتهلنا الى الله لينصرنا على اعدائنا ويرفع شان كنيسته فاستجاب الله دعواتنا وخولنا الشجاعة حتى كنا نرى جنودنا يتسارعون الى اقتحام نار الوغى كغزلان ظمأى وامامها ماء قراح ولم يكن عسكرنا يجاوز خمسة الاف فارس وخمسة عشر الف راجل وجيش العدو لا يقل عن مئة الف فارس واربع مئة الف راجل فشمل الله عبيده بقدرته فانهزم امامنا هذا الجيش العرمرم قبل ان يقاتلنا وكانهم اعزال لا سلاح معهم فاستحوذنا على خزائن ملك مصر وتبعنا اثر جنوده فقتل منهم نحو مئة الف وغرق كثيرون منهم بالبحر وكان رعبهم شديدًا حتى مات منهم الفا رجل لازدحامهم على الدخول بباب عسقلان ولو لم يتشاغل جنودنا بانتهاب معسكرهم لما تركوا منهم من يخبر . ومما يدعو الى العجب اننا كنا في الامس اخذنا الوفًا من

الجمال والبقر والغنم فامر رؤساء الجنود ان يتركوها ويتفرغوا للقتال فتركوها لكن هذه الماشية لم تتركنا فكانت تقف حيث وقفنا وتسير حيث سرنا وكان الغمام يقينا حر الشمس والنسيم يروح قلوبنا فشكرنا الله على هذا الظفر وعدنا الى اورشليم ، وقد ذكر المؤرخون العيانيون هذا الظفر واعتدوه عجباً وقالوا ان قطعان الجمال والبقر والغنم المار ذكرها توهمها المصريون جنوداً في ساقة عسكر النصارى. وقال ريموند دي اجيل ان جنودنا كانوا حينئذٍ يزدادون حمية وسروراً كلما دنوا من جيش المصريين. وقال البر من اكس انهم مضوا الى هذه الحرب كمن يمضي الى عرس او الى مادبة طرب وكان امير الرملة المسلم يعاون عسكر النصارى فدهش من حمية الافرنج وجدّهم في اقتحامهم المخاطر واباح بدهشته الى غودفروا واقسم على انه يتنصر حباً بهذا الدين الذي يولي مثل هذه الشجاعة

وعزم بعض رؤساء الصليبيين على العود لاوطانهم فعادوا واثقين بان حكمة غودفروا وبسالة تنكراد تستتم مهمتهم وجزم غودفروا ان يؤمن مملكته ويبسط تخومها فسير تنكراد الى الجليل فاستولى على طيبارية وعدة مدن على ضفتي الاردن فنصب حاكماً فيها وحاصر غودفروا مدينة اسوف على شاطي البحر فاقبل للسلام عليه امراء من جبال نابلس والسامرة وقدموا له هدايا من التين والزبيب وراوا ملك اورشليم جالساً على جولق محشو بالتبن ولا حرس حوله فابدوا تعجبهم من ذلك فاجابهم غودفروا من الارض جبلنا وفي قلبها مسكننا بعد الموت فكيف نأنف ان نجلس عليها في هذه الحياة فازدادوا عجباً من هذا الجواب ايضاً

وبلغ غودفروا ان اخاه بودون كنت الرها وبيومند امير انطاكية قادمان الى زيارة الاماكن المقدسة في اورشليم يصحبهما عدد غفير من الفرسان والجنود وزايرون آخرون من المغرب بلغ عددهم العشرين الفاً فاحتفى غودفروا باخيه ومن رافقوه وابدى لهم صنوف التكريم مدة الشتاء كلها وكان في جملة الزائرين وايبر

اسقف بيزا ارسله البابا بسكاليس الثاني قاصداً خلفاً لاويمر الذي توفي في انطاكية ومات حينئذٍ سمعان بطريرك الروم في اورشليم وكانت وفاته بقبرس فانتخب اويمر بطريركاً فلم يقبل البطريركية الا مكرهاً كما قال عن نفسه في رسالة كتبها الى بيومند فخلع هذا البطريرك على غودفروا خلعة الملك على اورشليم وعلى بيومند خلعة الامارة في انطاكية

واغتنم غودفروا فرصة وجود الامراء اللاتينيين في اورشليم ليسن دستوراً ونظاماً لتدبير مملكته فجمع رجالاً علماء واتقياء وعهد اليهم ان يفرضوا سنناً للملكة على منهاج سنن الافرنج فوضعوا هذه السنن منها ان يكون للعدلية مجلسان احدهما يرؤسه الملك واعضاؤه من الشرفاء ويفصل الدعاوي التي تكون بين كبار العمال . والثاني يتولى ادارته حاكم اورشليم واعضاؤه من وجوه كل من المدن وينظر في دعاوى اصحاب الاملاك والعامة وحقوقهم واقيم مجلس ثالث ينظر في دعاوى النصارى الشرقيين وكانت قضاته ممن ولدوا في سورية ويتكلمون بلغة اهلها والحكم فيه بموجب شرائع البلاد وعاداته فشرائع غودفروا هذه قد زاد عليها ونقحها من خلفوه في الملك ووضعت في كنيسة القيامة وسموها مجالس اورشليم وبمقتضى هذا النظام كان الملك واحداً غير متجزيء يتصل اليه بالارث ولو كان الوارث انثى واذا لم يكن وارث فللية الاكليرس ورؤساء اصحاب الاقطاعات ان يختاروا ملكاً ويلزم الملك ان يقسم على رعاية النظام قبل ان يقر له بالملك اصحاب الاقطاعات وان يتوجه البطريرك

وكان غودفروا ياتي متواتراً لنجدة تنكراد في حروبه مع امراء الجليل واتصل احياناً بحملاته الى ما وراء لبنان حتى دمشق وغزا حوران وعاد ظافراً وآسراً كثيرين وغانماً خيولاً وجمالاً واشتهر في سطوته وحكمته حتى كان القوم يشبهونه بيهوذا المكابي غيرة وبشمشون قوة وسليمان حكمة ونقض الفرنج والروم والمسلمون

ان مملكته سوف تدوم ادهاراً على ان الله لم يفسح باجله فقد اعتراه مرض عند عوده من احدى حملاته لازمه خمسة اسابيع لم ينقطع فيها عن تدبير مهامه وبلغه وهو محتضر اخذ مدينة حيفا فكان ذلك خاتمة انتصاره واخر مسراته في هذه الدنيا واعترف اعترافاً عاماً بخطاياه ونال سائر اسرار الكنيسة ومضى للقاء ربه في ١٧ تموز سنة ١١٠٠ بعد فتح اورشليم بسنة واحدة ودفن في كنيسة القبر المقدس في اسفل الجلجلة

عـد ٨٢٠

في انتخاب بودوين ملكاً وبعض الاحداث في ايامه

بعد وفاة غودفروا لم يخلُ امر الخلافة له من مصاعب فقد كان غودفروا تخلى في حياته للبطريرك وايبر الماز ذكره عن حي كنيسة القبر المقدس في اورشليم وعن ربع في مدينة يافا فادعى البطريرك ان الملك المتوفى تخلى له في اخر حياته عن اورشليم كلها وخالفه رؤساء الجنود والشعب واختاروا بودوين اخا غودفروا الذي كان اميراً في الرها فتخلى بودوين عن امارة الرها لابن عمه بودوين دي بورج وسار الى اورشليم في سبعماية فارس وسبعماية راجل فالتقاه عسكر في مضايق فونيقي وارادوا قطع الطريق عليه فانتصر عليهم وعن ابن الاثير : ان الذي التقاه الملك دقاق صاحب دمشق ومعه الامير جناح الدولة صاحب حمص. وعن البطريرك اسطفانس الدويهي ان محل اعتراضهم له كان معبر نهر الكلب ولما دنا من اورشليم خرج الى لقائه الشعب والاكليرس ومعهم النصارى الشرقيون بالمصابيح والصلبان يسبحون الله ويعظمون ملتقى ملكهم الجديد واخذوه بعظيم الاحتفاء الى كنيسة القبر المقدس

ولم يلبث بودوين في اورشليم الا اسبوعاً والب فرسانه ونخبة جنده وسار طالباً عدواً يبكته او ارضاً يملكها ونكل ببعض المسلمين الذين يهينون حجاج اورشليم

او يسلبون مالهم ثم توجه نحو حبرون (الخليل) والبحر الميت واجتاز في الجبال الى ان انتهى الى المحل الذي ضرب فيه موسى الصخرة فجرت المياه والى البرية التي بين بلاد ادوم ومصر وعاد الى اورشليم فصالح البطريرك وايمبر فالبسه البطريرك التاج ومسحه مسحة الملوك في بيت لحم بكنيسة المولد يوم عيد الميلاد ولما كان بعض المذال والاعداء يعيبون غودفروا بعدم لبسه تاجاً من ذهب ويسمونه ملك الحجاج وامير العباد لم يشا بودوين ان يحذو حذو اخيه بلبسه تاجاً حقيراً تشبهاً بالمخلص بل لبس تاج الملك مرصعاً قاضياً بلزوم ذلك في مملكة يحدق بها الاعداء من كل جهة

واول ما صرفه بودوين من العناية بملكه بعد تتويجه كان جلوسه للقضاء بحسب نظام اورشليم المار ذكره فكان يصرف كل يوم ساعات بسماع دعاوي مسوديه وفصلها وكان من اهم هذه الدعاوي خلاف كان بين تنكراد وغوليلمس دي مالون على حيفا التي كان تنكراد قد فتحها وكان غودفروا قد وهبها لغوليلمس المذكور فصالح بودوين بينهما وسلم الى تنكراد تدبير امارة انطاكية لاسر بيومند اميرها فترك تنكراد دعواه على حيفا بل تخلى لبودوين عن امارة طبارية ايضاً ولم يكن اشتغال بودوين بتدبير شؤون مملكته يعوقه عن حملاته على بلاد المسلمين وبينما كان عائداً من احدى غزواته الى ما وراء الاردن موقراً غنائم وقد دنا من النهر سمع صراخاً فاقترب فوجد امراة مسلمة مطوقة (اصابها مخاض الطلق) فطرح رداه عليها ليسترها وفرش لها طنفسة وامر ان يؤتى اليها بتمار وزقي ماء وبناقة ترضع طفلها واقام جارية تخدمها وان تسير معها الى زوجها وكانت هذه المراة من نساء واعيان المسلمين. ولما وصلت الى زوجها بكى لسروره برؤية امراته التي كان يظنها ماتت او سبيت واقسم انه لا ينسى مدى الدهر ما صنعه بودوين اليها وفتح بودوين ارسوف وقيصرية واقام الافرنج في قيصرية احد الكهنة الآتين

معهم اسقفاً عليها وفي السنة الثانية لملك بودوين حارب المصريين في سهول حيفا فانتصر عليهم نصراً مبيناً ولكن ساءه ما ورد اليه من الاخبار ان حشداً كبيراً من الحجاج الغربيين وثب بهم الاعداء في جبال اسيا الصغرى فاهلكوهم ونجا منهم غوليلمس كنت بواتيا واسطفانس كنت بلوا وغيرهما مع قليلين فسار بودوين لملتقاهم حتى بيروت

ولما بلغوا اورشليم صحبهم الى القبر المقدس فاقاموا اشهراً في اورشليم وساروا بعد الفصح الى يافا ليعودوا الى اوروبا ورافقهم بودوين فورد عليه نبأ ان المسلمين خرجوا من عسقلان واخربوا اللد والرملة فجمع بودوين ما تيسر له من الجنود وركب اولئك الزائرون الشرفا خيولهم واخذوا سلاحهم وخرجوا معه للقتال فاذا عدد الاعداء لا يقل عن عشرين الفاً وليس مع بودوين الا مايتا فارس وقليل من الرجالة ومع ذلك اقتحم القتال فاحاط الاعداء به وبمن معه فلم يبق لهم الا ان ينتظروا الموت وقتل من الزائرين كنت بلوا وكنت بوركونيا واسر هربين كنت بورج وكوزراد احد اعيان جرمانية وانهزم بودوين واختبأ بين القصب فالقى الاعداء النار فيه فكاد يحترق واسعده كده فهرب الى الرملة ولم تكن هذه المدينة الحقيرة كفوءاً لرد وثبة الاعداء فايقن الهلاك واذا برجل غريب اقبل عليه وهداه الى طريق آمن خفي فسار به ونجا وكان هذا الغريب الذي انقذ ملك اورشليم رجل المراة التي احسن اليها بودوين عند ولادتها فاراد ان يكافئه على احسانه

وبعد فرار بودوين وثب المسلمون على الرملة وجميع من كانوا فيها من النصارى قتلوا او اسروا ولما سمع الفرسان الذين كانوا باورشليم باخبار ما كان هبوا لمناصبة الاعداء واتفق حينئذٍ ان رسى في مرفا يافا مئتا سفينة من المغرب تقل جماً كبيراً من الزائرين وفي جملتهم كثيرون من الانكليز والجرمانيين الذين اشتهروا بالحرب وعاد بودوين بسفينة الى يافا فانضوى اليه عسكر شديد العزيمة محنك بالحرب هائم

بالقتال فخرج على الاعداء الذين كانوا ذاهبون لحصار يافا فظهر عليهم وبدد شملهم فاستراحت مملكة اورشليم مدة من القتال • وقد ذكر ابن الاثير الوقعة الاولى في تاريخ سنة ٤٩٥ ﻫ سنة ١١٠٢ م فقال : في هذه السنة في رجب خرجت عساكر مصر الى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في ايديهم من البلاد الشامية فسمع بهم بردويل (كذا يسمى بودوين) صاحب القدس فسار اليهم في سبعماية فارس وقاتلهم فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل واختفى في اجمة قصب فاحترقت تلك الاجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها الى الرملة فتبعه المسلمون واحاطوا به فتنكر وخرج منها الى يافا وكثر القتل والاسر في اصحابه • ان اخبار اخذ الصليبين اورشليم واقامتهم مملكتهم فيها وما يؤتيهم الله من التوفيق بعثت كثيرين ممن كانوا قد رجعوا الى المغرب قبل فتح اورشليم ان يعودوا ثانية الى المشرق وحملت الغيرة كثيرين من اعيان فرنسا وايطاليا والمانيا على ان يؤموا الارض المقدسة وانضم اليهم كثيرون من العامة رجالاً ونساءً واحداثاً حتى قيل ان عددهم لم يكن يقل عن اربعماية الف على انهم لم يتعظوا بالتجربة فساروا الى قسطنطينية وكان كنت تولوز قد مضى بعد حرب عسقلان الى اللاذقية ثم الى قسطنطينية فعهدوا اليه بقيادة هذا الجيش في اسيا الصغرى فهلك هذا الجيش في الطريق لشن الاتراك الغارة عليهم ومن نجا منهم عاد بعضهم الى قسطنطينية ووصل بعضهم الى انطاكية ولم يبق من النساء امرأة وعظمت شكاوى اللاتينيين من الروم وتذمرهم من ملكهم الكسيس كومنانس لانه كان من جهة يسعى لتخلية سبيل الاسرى من النصارى ومن جهة اخرى يجهز اسطولاً ويؤلب جيشاً ليأخذ انطاكية ويستحوذ على المدن التي تولاها الفرنج في سواحل سورية واراد ان يدفع مالاً يفدى به بيومند الذي كان اسره الاتراك في وقعة عند ملطية لا ليخلي سبيله بل ليأخذه الى قسطنطينية ويكرهه ان يتخلى له عن امارته في انطاكية على ان بيومند افتدى

نفسه بعد ان بقي اسيرًا اربع سنين وعاد الى انطاكية يرد مهاجمات الكسيس

عد ٨٢١

فتح بودوين عكا وحربه في يافا ووقعة حران

ذكر المؤرخون المسلمون حصار عكا وفتحها سنة ٤٩٧ هـ سنة ١١٠٤ م فقالوا ما ملخصه . في هذه السنة سار صنجيل (نظن ان المراد بهذا الاسم ريموند كنت تولوز المسمى saint Giles سان جيل) وقد وصله مدد الافرنج من البحر الى اطرابلس وحاصرها برًا وبحرًا فلم يجد فيها مطمعًا فعاد عنها الى جبيل وحاصرها وتسلمها بالامان ثم سار الى عكا ووصل اليه من الفرنج جمع اخر من القدس وحصروا عكا في البر والبحر وكان الوالي بعكا من جهة خليفة مصر اسمه بنا ولقبه زهر الدولة الجيوشي نسبة الى امير الجيوش وجرى بينهم قتال حتى ملك الفرنج عكا بالسيف وفعلوا باهلها الافعال الشنيعة وهرب من عكا بنا المذكور الى دمشق ثم سار الى مصر وملوك الاسلام اذ ذاك مشتغلون بقتال بعضهم بعضاً وقد تفرقت الاراء واختلفت الاهواء وتمزقت الاموال ، هذا ما ذكره ابو الفداء وذكر مثله ابن الاثير وابن خلدون

والذي رواه المؤرخون الفرنج هو ان الملك بودوين استعان بالزائرين الذين كانوا قد اتوا من بيزا وجنوا ومعهم اسطول كبير فتولى عنوة على عكاء وهي مدينة مهمة وبمنزلة مرفأ لسورية وراع هذا الفتح المسلمين في دمشق وعسقلان ومصر وطفق سلطان مصر يؤلب الجنود ويجهز اسطولاً ليكبح جيش النصارى ويقي من غزواتهم ما بقي من بلاده وما ابطأ بعد فتح عكا ان ظهر اسطول مصري تجاه يافا وزحف جيش من عسقلان الى صحارى الرملة فهب لمناوأتهم النصارى من الجليل ونابلس وجبال اليهودية وخرج بودوين من يافا في خمس مئة فارس والفي راجل لمناصبة الاعداء وكانوا الوفاً مؤلفة فاوقد بودوين نار الوغى عليهم فقتل امير عسقلان

وخمسة الاف رجل من المسلمين وغنم النصارى كثيرًا من خيولهم وحميرهم وجمالهم ومالهم وعادوا الى يافا فلما راى ذلك اصحاب الاسطول يئسوا من الفوز واقلعوا في البحر وابعدوا فثار بهم عاصف فغرق بعض سفنهم وحطم بعضها على الصخور

اما وقعة حران في الجزيرة (ما بين النهرين) فذكرها المؤرخون المسلمون فقال ابن الاثير لما استطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الاسلام قصدوا حران وكانت لمملوك من مماليك ملك شاه اسمه قراجه واستخلف عليها محمد الاصبهاني ثم عصى مولاه فسار الافرنج اليها وحصروها واتفق امراء المسلمين وتحالفوا وساروا الى لقاء الفرنج والتقوا على نهر ابليخ فاقتتلوا فاظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوهم كيف شاؤوا وغنموا اموالهم وكان بيمند صاحب انطاكية وطنكري (كذا يسمون تنكراد والي اللاذقية حينئذ) صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمون من وراء ظهورهم فلما خرجا رايا الفرنج منهزمين فاقاما الى الليل وانهزما فتبعهما المسلمون وقتلوا من اصحابهما كثيرًا واسروا كذلك وافلت بيمند وطنكري في ستة فرسان وكان القمص (الكونت) بردويل (بودوين امير الرها) انهزم مع جماعة من قامصتهم وخاضوا نهر البليخ فوحلت خيولهم فاخذ بودوين اسيرًا وسار المسلمون الى الرها فحاصروها خمسة عشر يومًا ثم افتدى الفرنج بودوين بخمسة وثلاثين دينارًا ومائة وستين اسيرًا من المسلمين وكانت عدة القتلى من الفرنج تقارب اثني عشر الف قتيل .

واما المؤرخون الفرنج فقالوا في هذه الوقعة . في ربيع سنة ١١٠٤ عزم بوهمند امير انطاكية وتنكراد والي اللاذقية واباميا حينئذ وبودوين دي بورج كنت الرها وابن عمه جوسلان ان يجتازوا الفرات ويستحوذوا على حران فحاصروا المدينة خمسة عشر يومًا فاستسلمت اليهم فاختلفوا على من يتولى امرها ألبودوين كنت الرها

تكونام ليومند امير انطاكية واذا بجيش عرمرم فاجاهم من الموصل فدهش الفرنج واخذ الرعب في قلوبهم كل مأخذ فانهزموا امام اعدائهم فأسر بودوين وجوسلان وافلت بيومند وتنكراد منفردين

واستمر بيومند بعد هذه الوقعة محصوراً في انطاكية يهدده ملك الروم من جهة والمسلمين من اخرى ولم يبق عنده ما يقوم بحاجاته من اموال ورجال فدار في خلده ان يلجأ الى نصارى المغرب وكان يخشى ان يغتاله الروم في مسيره فاشاع انه توفي وحبس نفسه في نعش فجاوز اسطول الروم وهم جذلون بموته ويلعنون ذكره ولما وصل الى ايطاليا انبعث من موته الموهوم وسار توّاً الى الحبر الروماني يشكو له ما عاناه حباً بالدين ويساله كبح الكسيس ملك الروم الذي كان يسميه آفة المشرق فاعزه البابا وقدر شهامته حق قدرها واصغى الى شكواه ووعده بالمساعدة لاصلاح شؤون المشرق ثم مضى الى افرنسة فعظم فيليب الاول مثواه وزوجه قسطنسا بنته وخطب في كثير من المحافل يحض على معاونة النصارى في المشرق وطاف في كثير من مدن افرنسة ثم اجتاز منها الى اسبانيا ثم الى ايطاليا فتجند معه كثيرون فسافر في جيشه من مدينة باري بايطاليا قاصداً ثل عرش ملك الروم وحاصر مدينتهم دورازو (على بحر الادرياتيك في جنوب سكوتاري) وطال زمان الحصار وفشا الوبا بعسكره وأبق منهم كثيرون فاضطر الى عقد صلح مذل له مع ملك الروم سنة ١١٠٨ وعاد يتجهز لقتال هذا الملك فعاجلته المنية سنة ١١١١ في تريدنتو . واما بودوين دي بورج والي الرها وجوسلان ابن عمه فاخذا الى بغداد واستمرا ماسورين خمس سنين على ما روى المؤرخون الفرنج خلافاً لما يظهر مما رويناه عن ابن الاثير عن فداء بودوين وربما كان هذا الفداء بعد مرور السنين الخمس التي ذكرها المؤرخون الفرنج . وكان تنكراد في هذه المدة يدبر حكومة انطاكية ويردعنها حملات الاعداء . انتهى ملخصاً عن كثير من المؤرخين الفرنج

عد ٨٢٢

في فتح الافرنج اطرابلس وغيرها

قد روى المؤرخون المسلمون حصار الافرنج اطرابلس في عدة سنين فقال ابو الفداء في تاريخ سنة ٤٩٥ هـ سنة ١١٠٢ م . في هذه السنة سار صنجيل الافرنجي في جمع قليل وحصر ابن عمار بطرابلس ثم وقع الصلح على مال حمله اهل اطرابلس اليه فسار صنجيل الى انطرطوس (طرطوس) ففتحها وقتل من بها من المسلمين ثم سار وحصر حصن الاكراد فجمع جناح الدولة صاحب حمص العسكر ليسير اليه فوثب باطني على جناح الدولة وهو بالجامع فقتله ولما بلغ صنجيل قتله رحل عن حصن الاكراد الى حمص ونازلها وملك اعمالها . وروى كذلك ابن الاثير في تاريخ السنة المذكورة ثم ذكرا في تاريخ سنة ٤٩٧ هـ سنة ١١٠٤ م . في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج الى مدينة لاذقية وفيها التجار والاجناد والحجاج واستعان بهم صنجيل الافرنجي على حصار طرابلس فحصروها معه براً وبحراً وضايقوها وقاتلوها اياماً فلم يروا فيها مطمعاً فرحلوا عنها الى مدينة جبيل فحصروها وقاتلوا عليها قتالاً شديداً فلما راى اهلها عجزهم عن الفرنج اخذوا اماناً وسلموا البلد اليهم فلم تف لهم الافرنج بالامان واخذوا اموالهم واستنقذوها بالعقوبات وانواع العذاب فلما فرغوا من جبيل ساروا الى مدينة عكاء وقالا في تاريخ سنة ٤٩٩ هـ سنة ١١٠٦ م . كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة ثم سار واقام على طرابلس فحصرها وبنى بالقرب حصناً وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل فخرج الملك (الامير) ابو علي بن عمار صاحب طرابلس فاحرق الربض ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به فمرض صنجيل من ذلك وبقي عشرة ايام ومات وحمل الى القدس ودفن فيه ودام الحرب بين اهل طرابلس والفرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم وقلت الاقوات فيها

وسار ابن عمار صاحب طرابلس من الشام الى بغداد قاصداً باب السلطان محمد (السلجوقي) مستقراً على الافرنج طالباً تسيير العساكر لازاحتهم وانه استناب ابن عمه ذا المناقب في طرابلس ورتب معه الاجناد براً وبحراً واعطاهم جامكية ستة اشهر سلفاً وان ابن عمه اظهر الخلاف له والعصيان عليه ونادى بشعار المصريين فكتب الى اصحابه يامرهم بالقبض عليه وحمله الى حصن الخوابي ففعلوا ما امرهم وكان ابن عمار استصحب معه هدايا نفيسة قدمها للسلطان محمد فاكرمه وعامله معاملة الملوك وعرض عليه ابن عمار ما يقاسيه وقوة عدوه وطول حصره وطلب غيرة السلطان فوعده السلطان بذلك وحضر دار الخلافة وذكر ما ذكره عند السلطان فلم يجد ذلك نفعاً كما سترى وعاد ابن عمار الى دمشق سنة ٥٠٢ هـ سنة ١١٠٩ م وتوجه منها مع عسكر الى جبلة فدخلها واطاعه اهلها واما اهل طرابلس فانهم راسلوا الافضل امير الجيوش بمصر يلتمسون منه والياً يكون عندهم ومعه الميرة في البحر فسير اليهم شرف الدولة بن ابي الطيب ومعه الغلة وغيرها مما يحتاج اليه في الحصار فلما صار فيها قبض على جماعة من اهل ابن عمار واصحابه واخذ ما وجده من ذخائره والاته وحمل الجميع الى مصر في البحر ٠

وقال ابن الاثير وابو الفداء في تاريخ سنة ٥٠٣ هـ سنة ١١١٠ م ٠ في هذه السنة في حادي عشر ذي الحجة ملك الافرنج مدينة طرابلس لانهم ساروا اليها من كل جهة وحصروها في البر والبحر وضايقوها من اول رمضان وكانت في يد نواب خليفة مصر العلوي وارسل الخليفة اليها اسطولاً فرده الهواء ولم يقدر على الوصول الى طرابلس ليقضي الله امراً كان مفعولاً وملكوها بالسيف وقتلوا ونهبوا وسبوا وكان بعض اهل طرابلس قد طلبوا الامان وخرجوا منها الى دمشق قبل ان تملكها الافرنج ٠ ثم قال في سنة ٥٠٤ هـ سنة ١١١١ م ٠ ملك الافرنج مدينة صيدا في ربيع الاخر وملكوها بالامان وفيها سار صاحب انطاكية مع من اجتمع عليه من

الفرنج الى الأثارب وهي بالقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم ثم ملكوه
بالسيف وقتلوا من اهله الفي رجل واسروا الباقين ثم ساروا الى زردنا فلكوها
بالسيف وجرى لهم كما جرى لاهل الأثارب ثم سار الفرنج الى منبج وبالس
فوجدوهما قد خلاهما اهلهما فعادوا عنهما وصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على
أثنين وثلثين الف دينار يحملها اليهم مع خيول وثياب ووقع الخوف في قلوب اهل
الشام من الفرنج فبذلت لهم اصحاب البلاد اموالاً وصالحوهم فصالحهم اهل مدينة
صور على سبعة الاف دينار وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على اربعة الاف
دينار وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على الفي دينار •

واليك خلاصة ما قاله المؤرخون الافرنج بهذه الاحداث . في سنة ١١٠٨
وقال بعضهم سنة ١١١٠ (وهو الاوجه) سار برتران بن ريموند كنت سان جيل
الى المشرق ومعه سبعون سفينة من جنوا بقصد ان يتولى بعض مدن فونيقي فهاجم
اولاً جبيل فملكها بعد مهاجمات ثم سار لحصار اطرابلس واتى بودوين ملك اورشليم
في خمس مئة فارس يعاونه على هذا الحصار فضايقوا المدينة ولم ينجدها احد
فاستسلمت الى الافرنج بشرط ان يكون اهلها احراراً فمن شاء الخروج منها خرج
بما امكنه حمله ومن شاء البقاء فيها لزمه ان يؤدي الجزية فامست اطرابلس وعرقا
وطرطوس وجبلة عملاً رابعاً من اعمال الفرنج في سورية وتولاه برتران بن ريموند
كنت سان جيل وحلف يمين الامانة لملك اورشليم . وبعد اخذ اطرابلس باشهر
جمع بودوين ملك اورشليم عساكره حول بيروت وحاصرها شهرين وارغم اهلها
ان يستسلموا اليه ولم يبق للمسلمين على شاطي البحر المتوسط الا عسقلان وصور
وصيدا ولم يكن اهل صيدا نجوا الى حينئذٍ الا باظهارهم الخضوع وتقديمهم التقادم
فكانوا يؤجلون خراب مدينتهم من سنة الى اخرى ببذل اموالهم واتفق انه عند عود
ملك اورشليم من حملة على شواطي الفرات بلغه ان سيكور ابن ملك نورفج حل في يافا

يصحبه عشرة الاف رجل من مملكته فسار بودوين الى لقاء هذا الامير وكلفه ان يمده في حروبه فاجابه الى ذلك ولم يطلب اجرة الا ان يعطى فلذة من ذخيرة عود الصليب واتى معه الى اورشليم فعجب سكانها من طول قامات هؤلاء الزائرين ومن عدة حربهم وقرر مجلس الملك حينئذ ان يحاصروا صيدا فسار اسطول سيكور للحال الى تجاه صيدا وخيم بودوين ملك اورشليم وكنت اطرابلس حذاء اسوارها فحاصروها ستة اسابيع واكرهوا والي المدينة ووجهائها ان يسلموا مفاتيح مدينتهم الى ملك اورشليم ولم يطلبوا الا ان يخرجوا من المدينة في ما يمكنهم حمله على رؤسهم ومناكبهم فخرج من سكان صيدا خمسة الاف واستمر الباقون فيها خاضعين لملك اورشليم وعاد امير نورفج الى بلاده جذلاً بما ناله من ذخيرة خشبة الصليب ووضع هذه الذخيرة في احدى مدن بلاده

عد ٨٢٣

ذكر مسير عساكر السلطان محمد السلجوقي الى قتال الافرنج

روى ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢ م انه في هذه السنة اجتمعت العساكر التي امرها السلطان بالمسير الى قتال الفرنج وكان من قوادهم الامير مودود صاحب الموصل والامير سكمان صاحب تبريز والامير ايلغازي صاحب ماردين وساروا الى بلد سنجار ففتحوا عدة حصون للفرنج وحصروا مدينة الرها ثم رحلوا عنها وعبروا الى جانب الفرات الشامي وطرقوا اعمال حلب وحصروا قلعة تل باشر خمسة واربعين يوماً ولم يبلغوا منها غرضاً فرحلوا عنها ووصلوا الى حلب فاغلق الملك رضوان صاحبها ابواب المدينة ولم يجتمع فيهم فرحلوا الى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق ونزل على الامير مودود فاطلع من الامراء على نيات فاسدة في حقه فخاف ان تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سراً وكانوا قد تكلموا عن قتال المسلمين فلم يتم ذلك فتفرقت عساكر

المسلمين لان الامير برسق الذي هو اكبر الامراء كان به نقرى ويحمل في محفة ومات سكمان امير تبريز واتابك طغتكين صاحب دمشق خاف على نفسه فتفرقوا وبقي طغتكين ومودود في المعرة فساروا منها ونزلوا على نهر العاصي ولما سمع الفرنج بتفرق عساكر المسلمين طمعوا وكانوا قد اجتمعوا وساروا الى فامية (ابامیا قلعة المضيق) وسمع بهم ابن منقذ صاحب شيزر فسار الى مودود وطغتكين وهون عليهم امر الفرنج فرحلوا الى شيزر ونزلوا عليهما ونزل الفرنج بالقرب منهم فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة فلم يعطوا مصافاً للحرب وراوا قوة المسلمين فعادوا الى فامية وتبعهم المسلمون فتخطفوا من ادركوه في ساقتهم وعاد المسلمون الى شيزر

وفي سنة ٥٠٦ ﻫ سنة ١١١٣ م سار مودود صاحب الموصل الى الرها فنزل عليها ورعى عسكره زروعها ورحل عنها الى سروج وفعل بها كذلك واهمل الفرنج ولم يحترز منهم فلم يشعر الا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم وكانت دواب العسكر منتشرة في المرعى فاخذ الفرنج كثيراً منها وقتلوا كثيراً من العسكر فلما تاهب المسلمون للقاء جوسلين عاد عنهم الى سروج. وفي سنة ٥٠٧ ﻫ سنة ١١١٤ م اجتمع الامراء المذكورون وطغتكين صاحب دمشق ليردوا غارات ملك الفرنج على بلاد دمشق وقطعوا المواد عنها فراسل طغتكين الامير مودود فسار بعسكر جرار ولاقاه طغتكين الى سامية وساروا جميعاً الى الاردن ودخلوا بلاد الفرنج والتقوا معهم عند طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والاسر وممن اسر ملكهم بقدوين (بودوين) فلم يعرف واخذ سلاحه واطلق فنجا وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الاردن كثيرون وغنم المسلمون اموالهم وسلاحهم ووصل الفرنج الى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وانطاكية فقويت نفوسهم بهم وعاودوا الحرب فاحاط بهم المسلمون من كل جهة وصعد الفرنج الى جبل غربي طبرية فاقاموا به ستة وعشرين يوماً والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب

منهم ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون الى قتالهم فلم يخرجوا فسار المسلمون الى بيسان ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا الى القدس وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم ثم عاد الامراء عن القتال واذنوا للعساكر بالعود والاستراحة وبقي مودود في خواصه ودخل دمشق ليقيم عند طغتكين الى الربيع لمعاودة الغزو ودخل مودود الجامع يوم الجمعة ليصلي مع طغتكين ولما خرجا وثب باطني على مودود فجرحه اربع جراحات وكان صائماً فحمل الى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فقال لا لقيت الله الا صائماً فمات من يومه وقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله قال ابن الاثير « حدثني والدي قال كتب ملك الفرنج الى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً قال فيه : ان امة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها » .

واليك خلاصة ما جاء في كتب المؤرخين الفرنج عن ذلك قالوا في سنة ١١١٣ اقبل عسكر جرار من خراسان والموصل ودمشق وانتشر في الجليل فسار الملك بودوين لمناوأتهم واغتر بحيلة صنعها المسلمون فاقدم على قتالهم دون ترو فكان يوم اوشك فيه عسكر النصارى ان يهلك عن اخره وملكهم ان يزول وملكهم ان يقتل الا انه قد تيسر لهم في اخر الصيف انصراف جيش اعدائهم ولكن عقب ذلك جراد رعى الزروع ومجاعة جشأت بها نفوس اهل كنتية الرها وامارة انطاكية وزلزال انبسط من جبل طورس الى برية ادوم فاخرب مدناً كثيرة فتاب النصارى الى الله وخشعوا ونادوا باصوام وواظبوا الكنائس والتضرع الى الله الى ان انقشعت ظلمات هذه المحن والمصائب

ولما راى بودوين نفسه مستريحاً من غارات اعدائه غزا في بلاد العرب حتى البحر الاحمر ودار في خلده ان يحمل على مصر فحمل عليها سنة ١١١٨ ووصل الى

جهة الغرما ظافرًا غانمًا ولكن اصاب بودوين الملك مرض فلم يعد لـه ولقومه حيلة الا بان يعود الى اورشليم فحملوا بودوين في محفة الى العريش ولما شعر بدنو المنية علم خدامه كيف يحنطون جثته ويحملونهـا الى اورشليم واوصى بان يخلفه في الملك اما اخوه اوسطاش او بودوين دي بورج كنت الرها وتناول اسرار الكنيسة ومضى الى لقاء ربه فاستخرج اصحابه احشاءه ودفنوها بالقرب من العريش وحملوا جثته الى القدس فدفنوها به في ٢٦ اذار سنة ١١١٨ يوم عيد الشعانين وكان تنكراد والي انطاكية قد توفي سنة ١١١٢ في انطـاكية ودفن بها في كنيسة القديس بطرس هامة الرسل واوصى بان يخلفه روجه بن ريشار احد انسبائه بشرط ان يتخلى عن امارة انطاكية الى اميرها الشرعي ابن بيومند الذي كان حينئذٍ عند امه في ايطاليا

﴿ عـد ٨٢٤ ﴾

في خلافة بودوين الثاني وما كان في ايامه

بعد وفاة بودوين الاول ودفنه اهتم اكليرس اورشليم وشعبها بانتخاب ملك يخلفه فاراد بعضهم ان يملكوا اخاه اوسطاش وقال غيرهم ان اوسطاش بعيد والاخطار حافة بهم فرشحوا بودوين دي بورج كنت الرها من انسباء الملك المتوفى وكان حينئذٍ باورشليم فاجمع رايهم عليه ونادوا به ملكًا في كنيسة القيامة يوم عيد الفصح واقام في كنتية الرها عوضًا عنه جوسلان دي كورتناي

ولم ينتهوا من حفلات الملك الجديد الا ثالبت جموع من المسلمين من فارس والجزيرة وسورية وزحفوا الى عدوة العاصي بامرة ايلغازي بن ارتق والي ماردين الذي كان تولى على حلب وقال المؤرخون المسلمون في ذلك في هذه السنة (اي سنة ٥١٣ هـ وهي سنة ١١٢٠ م) كانت وقعة بين ايلغازي بن ارتق وبين الفرنج بارض حلب فانهزم الفرنج وقتل منهم عدة كثيرة واسر عدة وكان في من اسر سرجال صاحب انطاكية ثم سار ايلغازي وفتح عقيب الوقعة الاثارب وزردنا وكانت

الوقعة في منتصف ربيع الاول عند عفرين ومما مدح به ايلغازي بسبب هذه الوقعة قول العظيمي :

قل ما تشاه فقولك المقبولُ وعليك بعد الخالق التعويلُ

واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الانجيلُ

وقال المؤرخون الافرنج في ذلك اجتمع المسلمون من بلاد فارس والجزيرة وسورية بامرة ايلغازي وعلم بتجمعهم روجه بن ريشار امير انطاكية فاستمد ملك اورشليم وكنت الرها وكنت اطرابلس ولم ينتظر وصولهم بل عاجل المسلمين بالقتال فقتل هو وتشتت عسكره كل التشتت واسر كثيرون وكان في جملتهم غوتيار المسجل وهو وصف ما عاناه الاسرى حينئذ من العذاب المبرح وقال انه لم يصف كل ما راى خشية ان يقتدي النصارى يوماً بما انزله اعداوهم بهم وقد انتشرت عساكر ايلغازي بعد هذا الظفر في اعمال الفرنج وبلغ حينئذٍ ملك اورشليم الى انطاكية وقد قتل اكثر من كان يذب عنها ولزم ان يقام الاكليرس والرهبان في حراسة الابراج اذ لم يكونوا على ثقة من الروم والارمن لاستثقالهم نير اللاتينيين فانعش وصول الملك رجاء الاهلين وزار كنائس انطاكية وعليه ثياب الحداد وطلب بركة البطريرك له ولجنوده وسار لقتال المسلمين وعلمهم خشبة الصليب والتحم القتال فظهر النصارى وانهزم ايلغازي ودبيس قائد العرب وبعد ان امن بودوين انطاكية واعمالها عاد الى اورشليم قصبة ملكه

وقال المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥١٥ هـ سنة ١١٢٢ م في هذه السنة عصى سليمان بن ايلغازي على ابيه بحلب وحسن له العصيان رجل من اهل حماة من بيت قرناص كان ايلغازي قد قدمه على اهل حلب فجازاه بذلك فسار ايلغازي من ماردين وهجم على حلب وقطع يدي ابن قرناص ورجليه وسمل عينيه فمات ولحقته رقة الوالد على ولده سليمان فاستبقاه وهرب الى طغتكين بدمشق فاستتاب ابوه

على حلب ابن اخيه واسمه سليمان ايضاً ابن عبد الجبار. وقالوا ايضاً في السنة المذكورة كانت حرب بين بلك بن بهرام ابن اخي ايلغازي وبين جوسلين صاحب الرها فان بلك حصر هذه المدينة وبها الفرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها فقصده جوسلين صاحب الرها وسروج فانتصر بلك على الفرنج وقتل منهم كثيرين واسر جوسلين وابن خالته كليام وجماعة من فرسانه وبذل جوسلين فداء نفسه اموالا كثيرة فلم يقبلها بلك وسجنهم في قلعة خرتبرت . وتوفي ايلغازي في سنة ٥١٦ هـ سنة ١١٢٣ م وملك بعده ابنه تمرتاش بماردين واخذ بلك حلب من ابن عمه سليمان المار ذكره فسلم سليمان حصن الاثارب الى الفرنج ليهادنوه على حلب واستولى الفرنج على خرتبرت وخلصوا جوسلين ثم سار بلك اليها واسترجعها من الفرنج . ثم توفي بلك سنة ٥١٨ هـ سنة ١١٢٥ م وسبب وفاته انه قبض على الامير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار الى هذه المدينة فملكها وحصر القلعة فاصابه سهم لا يدري من رماه فقتله فحمله ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي الى حلب وتسلم المدينة ورتب امورها وعاد الى ماردين مركز ولايته واجتمعت الفرنج وانضم اليهم دبيس بن صدقة وحاصروا حلب واخذوا في بناء بيوت لهم بظاهرها فعظم الامر على اهلها ولم ينجدهم صاحبها تمرتاش لايثاره الرفاهة والدعة فكاتب اهل حلب اقسنقر البرسقي صاحب الموصل في تسليمها اليه فسار اليهم فلما قرب من حلب رحلت الفرنج عنها وسلم اهل حلب المدينة والقلعة اليه واستقرت في ملك البرسقي مع الموصل وغيرها وفي سنة ٥١٩ هـ سنة ١١٢٦ م سار البرسقي الى كفرطاب واخذها من الفرنج ثم سار الى غزاز وكانت لجوسلين فاجتمعت الفرنج لقتاله واقتتلوا فانهزم البرسقي وقتل من المسلمين خلق كثير

ومما قاله المؤرخون الافرنج في هذه الاحداث انه في سنة ١١٢٢ كبس بلك ابن اخي ايلغازي جوسلين كنت الرها فاسره ومعه كاليران احد انسبائه الادنين

وغللهما وساقهما الى اطراف الجزيرة ولما بلغ خبرهما الى بودوين ملك اورشليم ساد مسرعاً الى الرها ليعزي اهلها ويستفك الاسيرين فاستفزه كرم اخلاقه واعتماده على شجاعته ان يقتحم المخاطر فوقع اسيرًا بيد بلك وصار شريكاً لمن عني بتخليصهما فحملت النخوة والحمية خمسين رجلاً من ارمينيا على انقاذ الملك والاميرين فدخلوا القلعة متنكرين وقتلوا الحامية التي كانت بها ولكن احاط المسلمون بالقلعة واستطاع جوسلين ان يفر منها واسرع الى اورشليم فوضع قيوده على قبر المخلص وعاد في عسكر من اورشليم والرها لينقذ الملك الاسير ولما انتهى الى الفرات علم ان المسلمين دخلوا القلعة وقتلوا الخمسين رجلاً واخذوا الملك الى قلعة حران

واغتنم المصريون فرصة اسر ملك اورشليم فتالبوا وساروا الى صحراء عسقلان قاصدين ان يزيحوا الافرنج عن فلسطين واستعد الافرنج للدفاع متقوين بشعب نينوى بالتوبة والصوم وقرع الجرس الكبير في اورشليم ايذاناً بالحرب فخرج النصارى وعسكرهم لا يتجاوز ثلثة الاف مقاتل واميره اوستاش دي اكران كنت صيدا ومدبر المملكة في غيبة الملك وحمل البطريرك خشبة الصليب في طليعة العسكر ومن ورائه كاهن حامل الحربة التي طعن بها جنب المخلص وكانوا اكتشفوها بانطاكية وكان المصريون يحاصرون حينئذٍ يافا بحرًا وبرًا ولما راى اصحاب الاسطول الافرنج ابعدوا عن الشاطي وتسعرت نار القتال بين العسكرين في البر فظهر النصارى وانهزم المصريون وتتبع الافرنج آثارهم في صحراء عسقلان الى ان دخلوا اسوار عسقلان وعاد الافرنج الى اورشليم مترنمين باناشيد التسبيح والشكر لله واما بودوين الملك فافتدى نفسه بمال ولما خلي سبيله جمع عسكرًا وزحف الى حلب وكان بين امراء المسلمين اختلاف ادى الى ان دبيس امير العرب وغيره من امراء تلك النواحي انضموا الى الافرنج فضايق بودوين حلب واوشك اهلها ان يستسلموا اليه فتسارع امير الموصل لنجدة حلب في عسكر جرار فاضطر بودوين ان يرفع الحصار ويعود الى اورشليم

فشكر ذووه الله على نجاته ثم انتهى اليه ان جيش المسلمين الذي اتى انجدة حلب قد انتشر في امارة انطاكية فنكل باهلها ونهب وحرق فهب راجعاً في نخبة من فرسانه وجنوده فهزم الاعداء من املاك الافرنج ثم هجم طغتكين صاحب دمشق على املاك الافرنج فاسرع بودوين لقتاله فارغم ان ينكص على عقبه الى دمشق

وقد بقيت صور كل هذه السنين في يد الخلفاء العلويين اصحاب مصر فاخذها الافرنج من يدهم سنة ١١٢٥ واليك ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك كانت صور في يد الخلفا العلويين وشرع الفرنج في الجمع والتاهب للنزول عليها وحصرها فسمع الوالي الذي بها من قبل المصريين خبر تاهبهم وعلم ان لا قوة له ولا طاقة على دفع الفرنج عنها فارسل الى الآمر بذلك فراى ان يرد ولاية صور الى طغتكين صاحب دمشق وارسل اليه بذلك فملك طغتكين صور ورتب بها من الجند وغيرهم ما ظن فيه كفاية وسار الفرنج اليهم ونازلوهم وضيقوا عليهم ولازموا القتال فقلت الاقوات وسئم من بها القتال وضعفت نفوسهم وسار طغتكين الى بانياس ليقرب منهم ويذب عن البلد ولعل الفرنج اذا راوه قريباً منهم رحلوا فلم يتحركوا ولزموا الحصار فارسل طغتكين الى مصر يستنجدهم فلم ينجدوه وتمادت الايام واشرف اهلها على الهلاك فراسل حينئذٍ طغتكين الفرنج وقرر الامر على ان يسلم المدينة اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج منها بما يقدرون على حمله من اموالهم ورحالهم فاستقرت القاعدة على ذلك وفتحت ابواب المدينة وملكها الفرنج وفارقها اهلها وتفرقوا في البلاد وحملوا ما اطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه ولم يعرض الفرنج على احد منهم ولم يبق الا الضعيف وملك الفرنج البلد في ٢٢ من جمادي الاول سنة ٥١٨ هـ (سنة ١١٢٥ م) وكان فتحه وهناً عظيماً على المسلمين فانه من احصن البلاد وامنعها ، والذي قاله المؤرخون الافرنج انه في تلك الاثناء قدم الى شواطي سورية اسطول بندقي اميره دوغ (اي والي) البندقية فافترض

الفرنج قدومه لحصار صور واتى المسلمون من دمشق الى محل قريب من المدينة
لنجدة اهلها وخرج عسكر مصري من عسقلان فاخرب بلاد نابلس وهدد اورشليم
فلم يُثنِ ذلك عزيمة الفرنج عن الحصار واتفق حينئذٍ قتل بلك في منبج وكان
جوسلان هو القاتل له وقد طير خبر قتله الى مدن النصارى وارسل راسه الى
صور فازداد الافرنج حماسة وحمية فيئس الصوريون من الدفاع فاستسلموا الى
الافرنج بعد حصار خمسة اشهر ونصف فخفقت اعلام ملك اورشليم ودوغ البندقية
على اسوار صور فدخل اليها الافرنج ظافرين وخرج منها الصوريون في نسائهم
واولادهم صاغرين وانتشر خبر الظفر فسمع صدى التهليل والشكر لله في كل من
مدن النصارى ولا سيما اورشليم حيث اقيمت حفلات باهرة ذكراً لهذا الانتصار
وشكراً لله عليه

وقد توفي بودوين في ٢١ آب سنة ١١٣٠ ويروى سنة ١١٣١ في الثالثة عشرة
او الرابعة عشرة لملكه اذ استوى على منصة الملك سنة ١١١٨ في عيد الفصح ودفن
في كنيسة القيامة وكان متزوجاً بابنة امير من ارمنيا ورزق منها اربع بنات احداهن
زوجة فولك دي انجو الذي خلفه والثانية امراة بيوموند امير انطاكية والثالثة امراة
ريموند كنت اطرابلس والرابعة ترهبت . وكان تقياً ورعاً هماماً زاد مملكته بغزواته

عد ٨٢٥

في ملك فولك دي انجو وما كان من الاحداث في ايامه

بعد دفن بودوين الثاني اجتمع الروساء والاعيان فاختاروا خليفة له في مملكة
اورشليم فولك كنت انجو وكان قد حضر الى سورية سنة ١١٢٠ وعاد الى افرنسة
سنة ١١٢٥ وتزوج بابنة بودوين الثاني كما مر وتوجه البطريرك الاورشليمي
اللاتيني في ١٤ ايلول سنة ١١٣١ وتوفي في ١٣ تشرين الثاني سنة ١١٤٢ ومما كان في
ايامه ان البرسقي الذي كان قد ولي حلب كما مر قتله الباطنية بالموصل وكان مملوكاً

تركياً شجاعاً وكان قد اقام ابنه مسعوداً والياً بحلب فلما قتل ابوه سار الى الموصل
ومات بها مكان ابيه واستخلف على حلب اميراً اسمه قيماز ثم استخلف بعده رجلاً
اسمه قتلغ واساء السيرة فخلعه اهل حلب وولوا عليهم سليمان بن عبد الجبار الذي
كان قد تولى حلب اولاً كما مر وعصى قتلغ في القلعة ولما سمع الفرنج باختلاف
اهل حلب سار اليهم جوسلين فصانعوه بمال فرحل عنهم ومات مسعود بن البرسقي
امير الموصل فولى السلطان محمود السلجوقي عماد الدين زنكي على الموصل وما
يليها فزاد امارته وارسل عسكراً الى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فاجاب
اهل حلب اليه وسير قائد العسكر سليمان بن عبد الجبار وقتلغ الى زنكي فاصلح
بينهما ولم يرد احدهما الى حلب ثم سار عماد الدين زنكي بنفسه الى حلب وملك
منبج في طريقه واستبشر اهل حلب بقدومه فرتب امور حلب وسمل عيني قتلغ
فمات . وكان في دمشق ان مات طغتكين اميرها سنة ٥٢٢ هـ سنة ١١٢٩ م وهو
من مماليك تتش بن الب ارسلان السلجوقي وملك دمشق بعده ابنه تاج الملوك
نوري (ويروى بوري بالباء ونوري بالنون) وفي سنة ٥٢٣ هـ سنة ١١٣٠ م سار
رجل من الاسماعيلية يسمى بهرام الى دمشق ودعا الناس الى مذهبه واعانه طاهر
بن سعد المزدغاني وزير نوري امير دمشق وسلم اليه قلعة بانياس فعظم امره وملك
عدة حصون بالجبال وجرى بينه وبين اهل وادي التيم مقاتلة قتل بهرام فيها وقام
مقامه بقلعه بانياس رجل منهم يسمى اسماعيل واقام الوزير في دمشق رجلاً منهم
ايضاً يسمى ابا الوفا فعظم امره حتى صار الحكم له بدمشق وكاتب الافرنج على ان
يسلم دمشق اليهم ويسلموا اليه عوضها مدينة صور واتفقوا على ذلك وعلم الامير
نوري بذلك فقتل وزيره المزدغاني وامر بقتل الاسماعيلية الذين بدمشق فثار بهم
اهل دمشق وقتلوا منهم ستة الاف نفر ووصل الفرنج الى الميداد وحصروا دمشق
فلم يظفروا بشيء فرحلوا عنها وخرج نوري بعسكر دمشق في اثرهم فقتلوا منهم

عدة كثيرة واما اسماعيل الذى كان بقلعة بانياس فسلم هذه القلعة الى الافرنج وصار معهم

واما عماد الدين زنكي فكان قد ارسل من حلب يستجد نورى صاحب دمشق على الافرنج فارسل نورى الى ابنه سونج الذى كان نائباً عن ابيه بحماة يامره بالمسير الى عماد الدين زنكي فسار اليه فغدر زنكي به وقبض عليه ونهب خيامه واعتقله وجماعة من مقدمي عسكره بحلب وسار زنكي الى حماة فملكها لخلوها من الجند ثم رحل عنها الى حمص وحاصرها مدة وكان قد غدر بصاحبها ايضاً الذي يسمى قيرخان بن قراجا وقبض عليه واحضره معه الى حمص وامره ان يامر ابنه وعسكره بتسليم حمص اليه فامرهم فلم يلتفتوا الى امره فلما آيس زنكي منها رحل عنها عائداً الى الموصل واستصحب سونج وامراء دمشق معه وبذل له نوري صاحب دمشق مالاً في ابنه فلم يجب الى طلبه

وفي سنة ٥٢٤ ﻫ سنة ١١٣١ م عاد زنكي من الموصل الى الشام وقصد حصن الاثارب القريب من حلب وكان اهله الافرنج يضايقون اهل حلب وجمع الافرنج فارسهم وراجلهم وقصدوا زنكي فرحل عن الاثارب وسار الى ملتقاهم فاقتتل الفريقان اشد القتال فانهزم الفرنج وقتل منهم كثيرون واسر بعض فرسانهم ثم عاد زنكي الى الاثارب واخذه عنوة وقتل واسر كل من فيه وخرب زنكي حينئذ الحصن المذكور وبقي خراباً الى الان

وفي سنة ٥٢٦ ﻫ سنة ١١٣٣ م توفي تاج الملوك نوري صاحب دمشق بسبب جرح اوقعه به بعض الباطنية وعهد بالملك بعده الى ولده شمس الملوك اسماعيل ووصى ببعلبك واعمالها لولده شمس الدولة محمد ثم استولى محمد على حصن الراس وحصن اللبوة فكاتبه اخوه اسماعيل في اعادتهما اليه فلم يقبل محمد ذلك فسار اسماعيل وفتح الحصنين وحصر اخاه محمد ببعلبك وملك المدينة وحصر القلعة فسالة محمد في

الصلح فاجابه اليه واعاد اليه بعلبك واعمالها ٠ وفي سنة ٥٢٧ هـ سنة ١١٣٤ م سار شمس الملوك اسماعيل على غفلة من الفرنج فلك مدينة بانياس وقتل واسر من كان بها من الفرنج ثم سار في هذه السنة الى حماة وهي لعماد الدين زنكي كما مر وحصرها فملكها عنوة وطلب اهلها منه الامان فامنهم وملك قلعتهم ايضاً ثم سار الى شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فنهب بلدها وحاصر القلعة فصانعه صاحبها بمال فعاد عنها الى دمشق وبعد عوده وثب عليه بعض مماليك جده طغتكين فضربه بسيف فلم يعمل به فقبض على الضارب فقتله وقتل من اقر عنهم والحق بهم اخاه سونج الذي كان زنكي قد اسره كما مر فعظم ذلك على الناس ونفروا منه

وفي سنة ٥٢٨ هـ سنة ١١٣٥ م سار شمس الملوك الى حصن الشقيق في وادي التيم وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس هذا العمل وكان الافرنج راضين عن الضحاك فاخذ شمس الملوك هذا الحصن وعظم ذلك على الفرنج وقصدوا بلاد حوران وجمع شمس الملوك الجموع واوشهم ثم اغار على بلادهم من جهة طبرية ووقعت المدنة بينهم وبينه فعاد الفرنج الى بلادهم ٠ وفي سنة ٥٢٩ هـ سنة ١١٣٦ م اتفق جماعة على قتل شمس الملوك فقتلوه على غفلة بايماز امه قيل ان الناس كرهوه لفرط جوره وظلمه وشكوه الى امه فاتفقت مع من قتله وقيل بل ان امه اتهمت بشخص يقال له يوسف بن فيروز فاراد شمس الملوك قتل امه فاتفقت مع من قتله ولما قتل ملك بعده بدمشق اخوه شهاب الدين محمود ولما بلغ زنكي مقتل شمس الملوك اسرع الى دمشق وحصرها وضيق على اهلها فقام برفع الحصار مملوك لطغتكين اسمه معين الدين انز واستولى على الامر بسبب ذلك ولما لم يرَ زنكي مطمعاً في اخذ دمشق اصطلح مع اهلها ورحل عنها الى بلاده

وفي سنة ٥٣٠ هـ سنة ١١٣٧ م تسلم شهاب الدين محمود صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها فان اصحابها اولاد الامير قيرخان بن قراجا المار ذكره ضجروا من

كثرة تعرض عماد الدين زنكي اليها والى اعمالها فراسلوا شهاب الدين في ان يسلموها اليه ويعطيهم عوضها تدمر فاجابهم الى ذلك فتسلمها واقطعها لمملوك جده معين الدين انز المار ذكره فلما راى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص الى صاحب دمشق تابعوا الغارات على بلدها فارسل شهاب الدين الى زنكي في الصلح فاستقر بينهما وكف عسكر زنكي عن حمص ولم يكن ذلك الا لمدة وجيزة فان زنكي نازل حمص سنة ٥٣١ هـ سنة ١١٣٨ م فلم يمكنه معين الدين انز من فتحها فرحل عنها الى بعرين وهي للفرنج وضيق عليها فاجتمع الفرنج ليدفعوه عن بعرين وجرى بينهم قتال شديد اخره انهزام الفرنج ودخول بعضهم الى حصن بعرين فحصر زنكي الحصن وضيق عليه فطلب الفرنج الامان فقرر عليهم تسليم حصن بعرين وخمسين الف دينار فاجابوه الى ذلك فاطلقهم وتسلم الحصن وفتح حينئذٍ المعرة وكفرطاب واخذهما من الافرنج

وفي سنة ٥٣٢ هـ سنة ١١٣٩ م سار زنكي الى حماة وسار منها الى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق وراسله مستحفظ بانياس واطاعه وسار الى حمص فحصرها ثانية ثم رحل عنها الى سلمية بسبب نزول الروم على حلب كما سياتي ثم عاد الى منازلة حمص فسلمت اليها المدينة والقلعة وارسل فخطب ام شهاب الدين محمود صاحب دمشق وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك اسماعيل بن توري كما مر وانما تزوجها طمعاً بالاستيلاء على دمشق ولما خاب امله من ذلك اعرض عنها انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء وابن خلدون

عد ٨٢٦

في حملة يوحنا كمنانس ملك الروم على سورية

هاك خلاصة ما قاله المورخون المسلمون في هذه الحملة كان ملك الروم قد خرج سنة ٥٣١هـ (سنة ١١٣٨م) من بلاده متجهزاً فاشتغل بقتال الارمن وصاحب

انطاكية وغيره من الفرنج فلما دخلت سنة ٥٣٢ ﻫ (سنة ١١٣٩ م) سار الى بزاغة وهي على ستة فراسخ من حلب وحاصرها وملكها بالامان ثم غدر باهلها وقتل فيها واسر وسبى فتنصر قاضيها وقدر اربع مئة نفس من اهلها واقام فيها عشرة ايام ثم رحل عنها بمن معه الى حلب ونزل على قويق (نهرها) وزحف اليها وجرى بينه وبين اهلها قتال كثير فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم فعادوا خاسرين واقاموا ثلثة ايام ورحلوا الى الاثارب وملكوها وتركوا فيها سبايا بزاغة وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم وساروا نحو شيزر فخرج الامير اسوار نائب زنكي بحلب واوقع بمن في الاثارب من الروم واستفك اسرى بزاغة وسباياها وسار ملك الروم الى شيزر وحصرها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً وارسل صاحب شيزر ابو العساكر بن منقذ الكناني الى زنكي يستنجده فسار زنكي ونزل على العاصي بين حماة وشيزر وكان زنكي وعسكره يشرفون كل يوم على الروم وهم محاصرون شيزر بحيث يراهم الروم واقام ملك الروم محاصرًا شيزر اربعة وعشرين يوماً ثم رحل عنها من غير ان ينال منها غرضاً وسار زنكي في اثر الروم فظفر بكثير ممن تخلف منهم ومدح الشعراء زنكي بسبب ذلك ومن هذا ما قاله مسلم بن خضر الحموي من ابيات اولها:

بعزمك ايها الملك العظيمُ ... تذل لك الصعاب وتستقيمُ

ومنها الم ترَ ان كلب الروم لما ... تبين انه الملك الرحيمُ

فجاء فطبق الفلوات خيلاً ... كأنَّ الجحفل الليلُ البهيمُ

فحين رميته بك في خميس ... تيقن فوت ما امسى يرومُ

كانك في العجاج شهاب نور ... توقد وهو شيطان رجيمُ

وممن ذكروا هذه الحملة من المؤرخين النصارى دي لارو في موجز تاريخ الملك السافل قال في سنة ١١٣٧ عاد الملك يوحنا كومنانس الى مطامعه بالاستيلاء

على انطاكية وكانت هذه الامارة بعد مقتل بيومند الثاني اميرها في حرب مع زنكي قد وقعت في يده ابنة عمرها ثلث سنين اسمها قسطانسا وقد خطبت لريموند ابن كنت بواتيا ولما علم ريموند ان ملك الروم يجهز حملة على انطاكية استنجد رئيس عصابة من الارمن وجهز بعض الجنود فلم يجده ذلك نفعاً بل فتح ملك الروم ترسيس واذنه وما جاورهما ثم حاصر عين زربه فقاومه اهلها شديد المقاومة ولكن الجئوا ان يستسلموا اليه فاسرهم وهزم الارمن من المواضع التي كانت بيدهم وبعد ان استحوذ على كيليكيا كلها خيم على ابواب انطاكية فارتاع ريموند صاحبها واستنجد فولك ملك اورشليم لكن هذا الملك كان احوج منه الى من ينجده على زنكي امير الموصل وحلب فلم يرَ ريموند مناصاً من ان يسلم المدينة الى ملك الروم ويقر بسيادته ووعده الملك يوحنا ان يلحق بامارة انطاكية كل ما يأخذه من المسلمين وبعد التوقيع على معاهدة بهذا المعنى خفقت اعلام ملك الروم على قلعة انطاكية ومضى الملك يصرف فصل الشتاء في ترسيس

ثم افتتح الملك بعض المدن على الفرات وسار الى حلب ومعه امير انطاكية وكنت الرها وكانت حلب محصنة وفيها حامية كثيرة شديدة البأس فوثبوا على الافرنج وردوا مرات فلم توهن عزيمتهم وتعرض الملك نفسه دفعات افتقد حياته فلم ينثنِ عن عزمه لكنه خشي اخيراً حصول مجاعة في عسكره فارغم ان يرفع الحصار عن حلب ويكتفي باخذه بعض القرى المجاورة لها ورحل الى شيزر آملاً ان يستعيض عما خسره وقبل ان يعبر العاصي عبره فرسان المسلمين ووثبوا على عسكره فهزمهم الروم وغرق كثيرون منهم في النهر وعاد البقية الى شيزر واعتصموا باسوارها يدافعون عن بلدهم مدافعة الابطال فلم يتمكن الروم من فتح المدينة واستحوذوا على بعض ضواحيها فقط وقتلوا سكانها وخاف سكان المدينة فراسلوا الملك يوحنا بالصلح وقدموا له تقادم نفيسة فرحل عنهم الى انطاكية

وقد دخل الملك يوحنا انطاكية باحتفاء عظيم وكان معه امير انطاكية وكنت الرها يضبطان عنان جواده فاجله الاهلون اجلال ملكهم وكانت له السلطة المطلقة في المدينة على انه سال امير انطاكية ان يقيم فيها حامية من قبله فوجس الامير من ذلك وحسبه تخلية للملك عن امارته فلجأ الى حيلة سيئة العاقبة فدس الى سكان المدينة ان يثوروا ويحملوا سلاحهم فعمت الثورة المدينة وتالب سكانها واخذوا يهددون ويصيحون في الاسواق الويل لانطاكية فقد بيعت للروم وهجموا على بعض حاشية الملك فقتلوا كثيرين واتبعوا أثر من هرب الى قصر الملك فدعا الملك الامراء وقال لهم ارى هذه الجموع لم تفهم ما قصدته وقد نسبوا الي من السوء ما لم اتعمده فسيروا واخمدوا روع هولاء الثائرين واكدوا لهم انني غدا ابين لهم سوء ظنهم بي بارتحالي عن انطاكية فانثنى من حضر على سداد الملك واصالة رأيه ومضى الامير وكنت الرها فطيبوا قلوب الثائرين وفي الغد خرج الملك من المدينة وخيم عند ابوابها ثم سار الى قسطنطينية وفي قلبه حزازات من اهل انطاكية

فبعد اربع سنين اي سنة ١١٤٢ عاد الى سورية ومعه عمانويل اصغر ابنائه وبلغ الى اسوار انطاكية واستأنف ما كان قد طلبه من ريموند ان يقيم حامية في قلعة انطاكية فابى ريموند الاجابة الى مطلوبه فاوعز الملك الى جنوده ان ينهبوا بلاد انطاكية فاندفعوا ينهبون ويقطعون الاشجار ويتلفون الحصاد والثمار ويحرقون المزارع والقرى وكان يؤمل ان يستحوذ على انطاكية بهذه الوسيلة السيئة فزاد الناس كرها له ودار في خلده ان يسير الى اورشليم ويقضي بها فصل الشتاء فسير رسلاً الى فولك ملك اورشليم يستاذنه بان يزور الاماكن المقدسة ويعده بانه ينجده على اعدائه فلم يثق الملك باخلاص ملك الروم ووجس من دخوله اورشليم فاجابه انه يسر بقبوله لكنه يخشى ان القحط الحاصل في بلاده لا يمكنه من تقديم الازودة الكافية لجيشه فان شاء ان يحضر بعشرة الاف رجل فقط احتفى بلقياه وتكريم

مثواه فادرك ملك الروم سبب رفض قبوله مع جيشه ولم يشا ان ينفصل عن جيشه فاعاد رسل ملك اورشليم اليه وارسل اليه معهم هدايا نفيسة وقفل الى كيليكية متوقعاً سنوح فرصة لاتمام ما نوي الا انه بينما كان يوماً يروح نفسه بالصيد جرح بسهم مسم من جعبته لدى عراكه لاحد الضواري ومات من جرحه في ٨ نيسان سنة ١١٤٣ واوصى رؤساء جيشه ان يملكوا بعده ابنه عمانويل المذكور فملكوه وعاد الى قسطنطينية

وتوفي فولك ملك اورشليم سنة ١١٤٤ وفي رواية اخرى سنة ١١٤٢ وله ابنان بودوين واموري

عد ٨٢٧

في ملك بودوين الثالث على اورشليم واخذ المسلمين الرها

بعد وفاة فولك ملك اورشليم انتخب لخلافته ابنه بودوين وهو الثالث بهذا الاسم والخامس من ملوك اورشليم ولم يكن له من العمر عند ارتقائه الى سدة الملك الا ثلث عشرة سنة وقد اثنى غوليلموس اسقف صور على حسن اخلاقه وحميد صفاته ومن اهم الاحداث في ايامه فتح عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب مدينة الرها قال المؤرخون المسلمون في ذلك في سنة ٥٣٩ ه‍ (سنة ١١٤٥ م) فتح اتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم في الجزيرة ايضاً وكانت مملكتهم بهذه الديار من قرب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وغيرها وكانت هذه الاعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب راى الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر وكان زنكي يعلم انه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير قاصد بلادهم فراوا انه منشغل بغيرهم فاطمانوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات وبلغ زنكي الخبر فنادى

في عسكره بالرحيل وان لا يتخلف احد عن الرها في غد يومه فساروا الى الرها ونازل زنكي المدينة وقاتل اهلها ثمانية وعشرين يوماً وامر بنقب اسوار المدينة ولج في قتالها خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير اليه فاخذها عنوةً وقهرًا وحصر قلعتها فلكها ايضاً ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال واعجبت المدينة زنكي فلم يشا خرابها وامر برد ما اخذ منها وجعل فيها عسكرًا يحفظها وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات الا البيرة فانه حاصرها ولم يقدر ان ياخذها حينئذٍ (ملخص عن الكامل لابن الاثير)

واليك ما قاله المؤرخون النصارى ملخصاً عن معجم تاريخ الصليبيين بعد وفاة جوسلين الاول خلفه في كنتية الرها ابنه جوسلين الثاني وكان عاكفاً على ملاذه متباعدًا عن الاهتمام بشؤون امارته ترك الاقامة في قصبتها الرها واقام في طوربال على عدوة الفرات لاهياً بما يلذ له وكان زنكي هائماً بفتح الرها فخادع جوسلين بما ينوى وهاجم الرها بغتة سنة ١١٤٤ واقام عليها الحصار ولم تنجدها ارملة فولك ملك اورشليم التي كانت تدبر المملكة لصغر ابنها وكان ريموند امير انطاكية عدوًا لجوسلين فلم يشاء ان يناصره فانفرد اهل الرها بمناصبة زنكي آملين ان تنجدهم امة الفرنج واستمروا على ذلك ثمانية وعشرين يوماً فلم يكن منجد ولا معين وفتح عسكر زنكي منافذ في اسوار المدينة ودخلوها فقتلوا كثيرين من سكانها رجالاً ونساء واطفالاً وشيوخاً ونهبوا بيوتها وكنائسها وجروا اسقفاً ارمنياً في شوارعها ثم جلدوه وقتلوا الاسقف اللاتيني واكايرسه وارسلوا رؤوس بعض القتلى الى بغداد واسروا من بقي من الاهلين وقال ابو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني ان اهل الرها كبارًا وصغارًا حتى الرهبان ايضاً تسارعوا الى اسوار المدينة للذب عنها وكانت النساء يحملن الى المحاربين الحجارة والماء والزاد وعرض زنكي عليهم عند ثقب الاسوار والابراج ان يستسلموا اليه فابوا معللين نفوسهم بوصول جوسلين وملك

اورشليم اليهم وكان في اسفل بعض الابراج اخشاب القى زنكي النار فيها فتداعت فتسارع السكان الى ذاك المحل ليمنعوا دخول الاعداء منه وخلت الاسوار من عدد كاف لصد المهاجمين فنقب جنود زنكي السور ودخلوا المدينة فانهزم سكانها الى القلعة فلم يفتح لهم الفرنج حراسها الابواب الى ان يرجع رئيسهم الذي كان قد سار للذب عن المدينة ولما عاد ازدحم الناس في الباب حتى هلك منهم خلق كثير واصيب الرئيس بسهم فمات وبعد ان استحوذ زنكي على المدينة والقلعة امر جنوده ان يغمدوا سيوفهم وسمح لبعض السريان والارمن ان يعودوا الى السكنى بالرها واطلق النساء والاولاد ولما قتل زنكي سنة ١١٤٧ عند حصاره حصن جعبر اغرى جوسلين سكانها النصارى بان يسلموها اليه فدخل اليها وملكها وحاصر قلعتها فدهمه نور الدين بن زنكي من حلب في عسكر جرار وارغمه على ترك الرها ونهب المدينة واسر اهلها وانهزم بعضهم الى اماكن اخرى واما جوسلين فقبض عليه نور الدين بحيلة وسجنه بحلب حيث توفي سنة ١١٤٩ وبذل عمانويل كومنانس ملك الروم مالاً جزيلاً لارملة جوسلين فتخلت له عن طوربال وغيرها من المدن التي بقيت لها على عدوة الفرات ورای ملك اورشليم ان لا طاقة له على حفظ كنتية الرها فارتضى بتركها لملك الروم واحضر ارملة جوسلين الى انطاكية مع اسرات الفرنج التي كانت في الرها على ان ملك الروم لم يستطع ايضاً ان يبقى لنفسه على الرها وهي في وسط املاك المسلمين فامست فريسة لنور الدين ابن زنكي وقد عادت الى ملك الولاة المسلمين بعد ان ملكها الافرنج نحواً من نصف قرن

عـد ٨٢٨

في حملة الصليبيين الثانية على سورية

في سنة ١١٤٥ سار اسقف جبلة الى البابا اوجانيوس الثالث وهو في فيتربو بايطاليا يلتمس المساعدة لكنيسة المشرق وكان يروي اخبار اخذ المسلمين مدينة الرها

وتنفجر من عينيه ينابيع الدموع فانفذ البابا اوجانيوس الثالث رسالة الى لويس السابع ملك افرنسة يحضه بها على امداد الافرنج الذين بسورية ومما قاله في هذه الرسالة • لا نستطيع ان نقول دون اسف شديد وذرف الدموع السخينة ان مدينة الرها وقعت في يد الاعداء هي وغيرها من المدن وان رئيس اساقفة الرها قتل واتبعوا به اكايرسه كله وذخائر القديسين اهينت ودنست والخطر يحف بكنيسة الله في المشرق • فعزم الملك لويس ان يسير الى المشرق وكاشف بقصده بعض الولاة والاعيان فاشاروا عليه ان يستدعي القديس برنردس ويستشيره فاجابه القديس انه لا يجزم بشيء قبل امر البابا له ولما حثه الحبر الروماني على ان يخطب ميناً لزوم انجاد الافرنج في الاماكن المقدسة اندفع يخطب وصنع الله آيات كثيرة على يده واكثر من الرسائل الى انحاء كثيرة فتالبت جموع وافرة العدد وفي راسها الملك لويس السابع ومعه كثيرون من ولاة افرنسة واعيانها وكونراد ملك المانيا ومعه كثيرون من ولاة مملكته واعيانها ولما بلغ الملكان في جيشهما الى ارض مملكة الروم اكثر الملك من بعث الوفود للتفاهم وكان هولاء الوفود يغالون في اطرائهم للملكين حتى كان كل سامع من الافرنج يشمئز من هذا الغلو ويمل من سماعه وقد روى اودون دي دويل الذي كان مرافقاً الملك لويس وكتب تاريخ رحلته هذه ان غودفروا اسقف لانكر الذي كان في معية الملك احتدم من كثرة التعظيم للملك بخطب وفود ملك الروم فقاطعهم الحديث قائلاً حسبكم اخواني ما جئتم به تكراراً في مجد الملك وعظمته وحكمته وورعه فهو عالم بنفسه ونحن عالمون به فقالوا الان سريعاً ما تريدون وكان ملك الروم يخشى ان يثل الملكان عرشه فاراد ان يلتقيهما بالترحاب والتجلة ويضمر لهما الخديعة والمكر مقتدياً بجده الكسيس كومننس وابيه يوحنا وقد روى نيقيطا المؤرخ اليوناني (في كتاب تاريخه السنوي ك ١ من مجموعة التاريخ البيزنطي الذي طبع في البندقية) اخبار معاملة الروم للملكين لويس وكونراد

منها ان الملك كونراد مرض احد انسبائه عند مروره بادرنه فتركه بها فدخل بعض جنود الروم الى مخدعه فاحرقوه فساد ابن اخي الملك فاحرق الدير الذي حرق به نسيبه وجزى المجرمين بما جنت ايديهم وكان الروم يكمنون للافرنج في طرقهم ويقتالون من تخلف منهم ولما كان الافرنج يأتون المدن ليمتاروا طعاماً كان الروم يوصدون الابواب وكانوا يدلون من اعلى الاسوار حبالاً فياخذون اولاً ما يتطلبون من الثمن ثم يعطونهم ما يحسن لهم من الخبز او الطعام وكانوا احياناً ياخذون الثمن ويغيبون عن الاسوار دون ان يعطوهم شيئاً ويخلطون الدقيق احياناً بكلس فيؤذي آكليه ولا اعلم ان كان ذلك كله بعلم الملك والذي اعلمه علم اليقين ان الملك سك نقوداً زيافاً ليعطاها الفرنج اذا باعوا شيئاً كل هذا من كلام نيقيطا المذكور

ولما بلغ ملك افرنسة الى قسطنطينية خرج للقائه جميع الشرفاء من الاكايرس والشعب وسالوه متذللين ان يتعطف ويزور الملك فهو واجد لرؤيته فسار بعدة قليلة من حاشيته فلاقاه الملك بنفسه وعانقه ثم دخلا القصر فجلسا على كرسيين لا يمتاز احدهما عن الاخر واكثر ملك الروم من الملاطفة والمجاملة والوعود وليتها صادقة ثم سار ملك افرنسة ومعه اشراف المملكة الى القصر المعد له وكان ملك الروم يادب المآدب الفاخرة له ويصحبه لزيارة كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من غرائب القسطنطينية واما كونراد ملك المانيا فلم يشا ان يحل في قسطنطينية واقتصر ان يقابل عمانويل ملك الروم وكل منهما على جواده مع النسابة بينهما لان عمانويل كان متزوجاً باخت زوجة كونراد وسار كونراد في طريق الاناضول قبل ملك افرنسة واصحبه ملك الروم بكتائب من جيشه ليهدوهم الطريق والاولى ان يقال ليضلوهم الطريق ويغدروا بهم ولما بلغوا الى بلاد المسلمين اعلم هولاء الخونة قادة الالمان ان يعدوا زاداً يكفيهم بعض ايام لانهم سوف يعبرون برية قاحلة لياخذوهم في طريق اقربُ الى قونية المدينة النضرة الفاخرة واقتادوهم في طرق وعرة خشنة ولما لم يبلغوا

غاية سفرهم بعد ايام عتبهم الملك كونراد ولامهم فتركوا المعسكر ليلاً ولم يبق من يهديهم السبيل فتوغلوا في بلاد صعبة المسالك وليس من يهديهم الى طريق للخروج منها

وروى كثيرون من المؤرخين منهم ابن العبري ان الملك عمانوئيل اخبر سلطان قونية بمسير الفرنج وحسن له اغتيالهم فجمع السلطان جموعاً ودهم الالمانيين من كل جهة وهم تائهون تعبون لا زاد معهم ولا علف لخيلهم فرجعوا القهقرى فتبعهم الاتراك يقتلون من تخلف عنهم او عجز عن لحاقهم واقتحم بعض شجعانهم الخطر مدافعين عن الضعفاء ودخلوا في مضيق فاكتنفهم الاتراك وفتكوا باوليك الشجعان ومن تصدوا للدفاع عنهم واصاب كونراد نفسه سهمان وهو بين فرسانه وظل القتلى والجرحى والمرضى على قارعة الطريق وكان جيش المحاربين من الالمانيين نحو سبعين الفاً عدا من اتبعهم فلم ينجُ منهم الاعشرهم وانهزم الملك كونراد وعاد الى نيقية فالتقى هناك بلويس ملك افرنسة فعانق احدهما الاخر وبكيا وقص كونراد ما جرى له متحباً ورافق ملك افرنسة الى افسس وعاد الى قسطنطينية يقيم فيها فصل الشتاء

واما ملك افرنسة وجيشه فساروا في طريق افسس وكانت بينهم وبين الاتراك مناوشات ظفروا بها عليهم الى ان انتهوا الى طريق حجر معلق بين مهاوٍ من جهة وصخور متراكمة من اخرى وكان الجيش الافرنسي مقسوماً الى مقدمة وقلب وساقة وكانت الملكة اليونورا في مقدمة الجيش فلم تشا ان تنظر باقيه ولما تملصت من ذاك المضيق رات سهلاً رحباً اسرعت اليه في من معها لتخيم به فوثب الاتراك على قلب الجيش حيث كان الضعفاء والاعزال وجهاز العسكر واعملوا سيوفهم باوليك الضعفاء وكان الملك في ساقة الجيش وسمع الصراخ فاسرع بفرسانه والحم القتال مع الاتراك فنجا من بقي من قلب الجيش واستمر الملك والاعداء مشتبكين بالقتال

الى ان اخذ الملك باغصان شجرة من على جواده ورمى بنفسه على صخر وكان يرد النبال المرشوقة عن بعد بترسه وسيفه عامل بمن دنا منه فانقذته شجاعته وظلام الليل ولحق عسكره وهم يبكون عليه ثم ساروا نحو ساتالية وهي اضالية فكانت مناوشات بينهم وبين اعدائهم كان الظفر للفرنسيس بها ولكن اخرب الاعداء القرى في طريقهم فاصابتهم مجاعة ذبحوا فيها خيولهم واغتذوا بلحمها وانتهوا بعد مسيرة اثني عشر يوماً الى اضاليه وكان سكانها من الروم وهي من املاك ملكهم فاغلقوا ابواب المدينة ومنعوا الفرنج من الدخول اليها فكثر التذمر بينهم لانهم لم يتولوا قسطنطينية عند مرورهم بها كما كان راي بعضهم وهموا ان ياخذوا اضالية فاتى واليها يعرض على الملك انه يقدم لهم سفناً يسيرون بها الى انطاكية فقبل الملك ما عرضه الوالي ولكن مرت خمس اسابيع ولم يحضر السفن واخيراً احضر منها ما لا يكفي لشحن العسكر كله فسار الملك وجماعته بهذه السفن وترك الملك للوالي مبلغاً عظيماً من المال ليصرفه على المرضى وتسيير جند يصحبون الافرنسيين الى ان يعبروا كيليكية على انه في غداة سفر الملك رأى الفرنج الاتراك مقبلين اليهم عوضاً عن الجنود الذين وعد الوالي ان يسيرهم ليهدوا الفرنج الطريق ويامنوهم به فدافع الفرنج عن نفوسهم مدافعة الابطال اياماً ولكن انهكهم التعب والجوع فسالوا الوالي ان يسمح لهم بالدخول الى المدينة فابى وانهزم بعض رؤسائهم والله يعلم كم قتل منهم وهرب وبقي منهم تايهين في كيليكية

واما الملك ومن سار معه الى انطاكية فلما وصلوا اليها نسوا ما اصابهم ولم يبالوا بمن خلفوهم في اضالية وعكفوا على الحفلات والملاهي وكانت الملكة اليونورا علة ذلك فهي كانت بنت اخي ريموند دي بواتيا امير انطاكية ومحبة للقصف واللهو وغير راسخة في الادب وكان ريموند عمها يريد بقاء الملك في انطاكية ليساعده على فتح حلب فاجابه الملك انه يجب قبل كل شيء ان يبلغ اورشليم ليفي نذره بالحج اليها

فتغير ريموند وجاهر بمقاومة الملك حتى هم ان يفصل الملكة ابنة اخيه عن زوجها
ودرى الملك بذلك فاسرع بالخروج من انطاكية وكان ملك اورشليم واعيانها يخشون
طول اقامة الملك بانطاكية فارسلوا يسالونه ان يعجل مسيره اليهم فمبر الملك سورية
وفونيقي ولم يجب الى سوال كنت اطرابلس ان يمكث مدة عنده ليعاونه على
توسيع تخوم ولايته ولما انتهى الملك الى اورشليم خرج لملتقاه الامراء والشعب
والاكليرس حاملين سعف النخل والزيتون محيين الملك بالتسابيح التي حيي بها المخلص
وطابت القلوب بقدومه وانتعش بهم الرجاء والامل ثم بلغ الى هناك كونراد ملك
المانيا متنكراً مع جماعته بهيئة حجاج وبعد ان اتم الملكان زيارتهما عقد اجتماع في
عكا شهده الملكان وملك اورشليم وكثيرون من الاساقفة والامراء والاعيان
واتفق رايهم في هذا الاجتماع ان يحاصروا دمشق وعين موعداً لذلك اليوم
الخامس والعشرون من ايار سنة ١١٤٨ في طبريه (ملخص عن كثيرين من المؤرخين
ولا سيما غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب)

عد ٨٢٩

في حصار دمشق

عزا المؤرخون المسلمون حصار دمشق الى ملك الالمان فقالوا ما ملخصه في
سنة ٥٤٣ ﻫ (سنة ١١٤٨ م او سنة ١١٤٩) سار ملك الالمان من بلاده في خلق
كثير وجمع عظيم من الفرنج فلما وصل الى الشام قصده من بها من الفرنج وخدموه
وامتثلوا امره فامرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصرها ويملكها فساروا معه
وحصروها وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن نوري بن طغتكين وليس له
من الامر شيء وانما الحكم لمعين الدين انز مملوك جده طغتكين فجمع العساكر
وحفظ البلد واقام الفرنج يحاصرونه ثم زحفوا بفارسهم وراجلهم فخرج اليهم اهل
البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وقوي الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك

الالمان حتى نزل بالميدان الاخضر فايقن الناس بانه يملك البلدة وكان معين الدين قد ارسل الى سيف الدين غازي بن زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه اخاه نور الدين محمودًا من حلب فنزلوا في حمص وارسل الى الفرنج يهددهم ان لم يرحلوا عن دمشق فكف الفرنج عن القتال فقوي اهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وارسل معين الدين الى الفرنج الغرباء يهددهم بحضور سيف الدين والى فرنج الشام يقول باي عقل تساعدون هؤلاء علينا وان ملكوا دمشق اخذوا ما بيدكم من البلاد واما انا فان رايت ضعفي عن حفظ دمشق سلمتها الى سيف الدين وان ملك الشام فلا يبقى لكم معه مقام فاجابوه الى التخلي عن ملك الالمان وبذل لهم حصن بانياس وحسنوا لملك الالمان ترك دمشق فرحل عنها وعاد الى بلاده. هذا ما قاله المؤرخون المسلمون وهم غير عالمين بداخلة الفرنج

واما المؤرخون الفرنج فقالوا ان عساكرهم قصدت دمشق وحاصرتها وان ملك اورشليم كان في طلائع الجيش ومن خلفه نصارى المشرق ومن بعدهم عسكر لويس ملك افرنسة واما ملك المانيا فكان في من جمعهم من عسكره في ساقة الجيش ليحفظ المحاربين من وثوب عدو من الوراء وصبر المسلمون على القتال ببسالة عند عدوة النهر الذي يخترق البساتين ولما راى كونراد ملك الالمان ذلك اسرع بفريق من رجاله الى مقدمة الجيش وانقض على المسلمين كصاعقة فوثب عليه رجل من المسلمين طويل القامة شديد الباس فعاجله ملك الالمان بضربة سيف بين العنق والكتف فشقه نصفين فارتاع المسلمون وانهزموا الى المدينة وبقي الافرنج مالكين عدوة النهر وايقن سكان دمشق بعجزهم عن الدفاع وهموا ان يخلوا المدينة والقوا على ابواب المدينة ومداخل الافرنج حجارة ضخمة ليتيسر لهم الفرار بعيالهم واموالهم قبل ان يدركهم الفرنج

ونقض الافرنج امتلاك المدينة ولم يبق لهم لرؤسائهم الا بان يعرفوا لمن تكون الولاية على دمشق بعد فتحها ورجح كنت فلاندرا على مزاحميه فاخذت الغيرة اشراف الفرنج في سورية من تفضيله عليهم واخذ بعضهم يأملون على حبط مسعاهم واشاروا على رؤساء الجيش ان يتركوا موقفهم في البساتين ويرحلوا الى جهة اخرى قاحلة والاسوار تجاهها منيعة وورد الخبر بان اميري حلب والموصل قادمان بجيش جرار وتجند عشرون الف من المسلمين وطلبوا المصاف فلم يخجل الفرنج وملك افرنسة والمانيا ان يرحلوا عن دمشق الى فلسطين وهناك تحادثوا بان يحاصروا عسقلان فلم يتفق رايهم على شيء وعاد ملك المانيا الى بلاده خجلاً آسفاً وبقي ملك افرنسة في اورشليم الى عيد الفصح سنة ١١٤٩ ثم عاد الى افرنسة دون ان يصنع شيئاً يذكر فلم تكن نتيجة صالحة من هذه الحملة بل كان منها اشتداد الضغينة بين ملوك الفرنج وملك الروم وزيادة قوة المسلمين وجرأتهم وذل النصارى ووهن قوتهم وعلة كل ذلك الحسد والطمع واختلاف الاراء الناشيء عن ذلك وقد تعزى وتأسى القديس برنردس الذي دعا الناس الى هذه الحملة وغيره من المتورعين بان من توفوا من اهل هذه الحملة ماتوا في سبيل الله وكفروا عن آثامهم وآثام غيرهم

عد ٨٣٠

في اخذ الافرنج مدينة عسقلان

كانت مدينة عسقلان قد استمرت كل هذه المدات تحت ولاية الخلفاء العلويين بمصر وكان بقاؤها كذلك وبالاً على الفرنج وعلى ملك اورشليم خاصة اذ لم يكن حاجز يصد المصريين عن مهاجمة مملكة اورشليم في طريق عسقلان بل كانوا كل ما شاؤوا يرسلون عسكراً الى عسقلان فينكل بالفرنج وقد قصدها الفرنج مرات فلم يتيسر لهم فتحها الى ان استغنموا فرصة الخلاف بين الوزراء في مصر وشنوا الغارة عليها فملكوها وقد روى ذلك ابن الاثير في الكامل فقال في تاريخ سنة ٥٤٨ ﻫ

سنة ١١٥٤ م ٠ في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلاً وكان للوزراء بمصر الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء يرسلون اليها كل سنة من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان في هذه السنة ان قتل ابن السلار الوزير واختلفت الاهواء في مصر وولي عباس الوزارة فاغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر اهلها وقاتلوهم قتالاً شديدًا وردوا بعض الفرنج الى خيامهم مقهوزين وتبعهم اهل البلد اليها فايس الفرنج من فتح المدينة فبينا هم على عزم الرحيل اذ قد اتاهم الخبر ان البلد قد وقع بين اهله خلاف لادعاء كل طائفة منهم ان النصرة كانت من جهتهم وعظم الخلاف حتى قتل من الفريقين قتلى فطمع الفرنج وعادوا الى حصار المدينة ولم يجدوا من يمنعهم فملكوها ٠

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك ان عسقلان كانت باباً لملوك مصر يدخلون منه كلما شاؤوا الى مملكة اورشليم برًا وبحرًا وكان هؤلاء الملوك يرسلون كل سنة اليها اموالاً واسلحة ويدفعون ارزاقاً لكثيرين من اهلها فهمّ بودوين الثالث بان يريح نفسه ومملكته من شر اهل هذه المدينة ويفتح باخذها سبيلاً الى مصر فحصن قلعة غزة التي كانت خربة ومهملة وعهد بحراستها الى فرسان الهيكل (وهم جماعة تالبوا في ذلك العصر) وكانت غزة بين عسقلان ومصر وبها محط نجدات ملوك مصر لعسقلان فحاول المصريون ان يملكوا تلك القلعة فلم يتيسر لهم اخذها ولم يبق لهم سبيل الى شن الغارات على بلاد الفرنج او الى انجاد عسقلان الا بالبحر وفي سنة ١١٥٢ م اتى كثيرون من الامراء الذين يدعون حق الولاية على اورشليم في جمع كبير وخيموا في جبل الزيتون فخرج النصارى اليهم وظهروا عليهم وتبعوا آثارهم الى الاردن وعاونهم الفرنج من نابلس وغيرها فقتلوا كثيرين وعادوا الى

اورشليم غانمين شاكرين لله وحملهم هذا الظفر ان يسيروا الى ضواحي عسقلان وجنابها فارتاع منهم اهل عسقلان وهربوا الى المدينة فعزم الفرنج ان يحاصروها ودعا الملك بودوين اكابر الفرنج والفرسان واساقفة اليهودية وفونيقي فساروا وبطريرك اورشليم يحمل امامهم خشبة الصليب وحاصروا المدينة برًّا وبحرًا وكان لجيراد كنت صيدا امرة اسطول مؤلف من خمس عشرة سفينة واستمر الحصار شهرين وقدم نحو الفصح جمع من الحجاج نخل في عكا ويافا فاستنجدهم الملك فاسرعوا الى معسكر النصارى وانضم بعضهم الى جنود جيراد في الاسطول فشدوا الحصار على عسقلان واتتها نجدة في البحر من مصر فلم توهن عزم الفرنج بل ازدادوا حمية ونخوة وصنعوا برجًا من خشب ارفع من الاسوار فالقى العسقلانيون ليلاً بين البرج والسور كثيرًا من المواد المحرقة فالهبوها فهب هواء حول اللهيب نحو المدينة حتى اصبحت حجارة السور كلساً فسقط بعض السور وتسارع فرسان الهيكل ودخلوا المدينة واقاموا خفرًا على الثلمة في السور كيلا يدخل غيرهم فيشاطرهم الغنيمة والفخر ولما راى حامية المدينة واهلها عدد الداخلين قليلاً وقد اشتغلوا بالنهب عن القتال وثبوا بهم فقتلوا منهم وهزموا باقيهم وسدوا الثلمة فاستولى الكدر والاسف على الفرنج وعادوا الى معسكرهم واستدعى الملك والاعيان والاساقفة للمشاورة فراى بعضهم الرحيل عن الحصار وراى غيرهم العود اليه فعادوا في الغداة الى الحصار واستمر القتال النهار كله وكثر القتلى في الفريقين فطلب العسقلانيون هدنة لدفن موتاهم ثم طلبوا الصلح على شريطة ان تفتح لهم ابواب المدينة ويباح لهم الخروج منها واخراج اموالهم واثقالهم مدة ثلاثة ايام فقبل الملك شرطهم وعمل به فخرجوا واصحبهم الملك بمن يخفرهم الى تخوم مصر ودخل في ١٢ آب سنة ١١٥٤ الملك والبطريرك والاساقفة واعيان الفرنج وعسكرهم الى عسقلان (ملخص عن تاريخ غوليلمس الصوري لهذه الحرب)

عــد ١٣١

ذكر غير ذلك من الحوادث في ايام بودوين الثالث

مما ذكره المورخون المسلمون في تاريخ سنة ٥٤٤ ه سنة ١١٥٠ م ان نور الدين محمود بن زنكي غزا بلاد الفرنج من جهة انطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج فجمع البرنس صاحب انطاكية الفرنج وسار الى نور الدين فاقتتلوا فانتصر نور الدين وقتل البرنس وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وملك بعد البرنس ابنه بيمند وهو طفل وتزوجت امه برجل اخر وتسمى البرنس ثم ان نور الدين غزاهم غزوة اخرى فهزمهم وقتل فيهم واسر وكان في من اسر البرنس الثاني زوج ام بيمند فتمكن حينئذ بيمند في ملك انطاكية

ومما قاله المؤرخون الفرنج لن في ذلك ان ريموند دي بواتيا امير انطاكية هاجم نور الدين بن زنكي على غير روية لان الشجاعة به كانت تتصل الى الجسارة والتهور واصلى الحرب وليس معه الا قليل من الفرسان ينتظر وصول باقي العسكر فقتل في هذه الحرب وترك ارملة وابنين وبنتين فعني ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني بالذب عن البلاد واتى ملك اورشليم لنجدة اهل انطاكية واوقف تمادي نور الدين وسلطان قونية السلجوقي عن مد سلطتها في بلاد الفرنج

ومما رواه المؤرخون المسلمين في تاريخ سنة ٥٤٩ ه سنة ١١٥٥ م ان نور الدين محمود بن زنكي اخذ دمشق من صاحبها حينئذ مجير الدين از بن محمد بن نوري بن طغتكين وكان سبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا عسقلان في السنة السالفة لم يكن لنور الدين طريق لازاحتهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان وقويت شوكة الفرنج بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية من النصارى بدمشق فمن اراد المقام بها تركوه ومن اراد العود الى وطنه اخذوه قهراً شاء صاحبه ام ابى وكان لهم على اهلها كل سنة قطيعة ياخذونها منهم فكان رسلهم

يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما راى نور الدين ذلك خاف ان يملكها الفرنج فلا يبقى للمسلمين بالشام مقام فراسل نور الدين مجير الدين واستماله وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه وكاتب من بها من الاحداث واستمالهم فوعدوه ان يسلموا المدينة اليه وسار نور الدين الى دمشق فارسل مجير الدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك اليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن دمشق فقبل ان يجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين لانه لما حاصر نور الدين دمشق ثار الاحداث الذين راسلهم وسلموا البلد اليه ودخل من الباب الشرقي وحصر مجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له اقطاعاً في جملته مدينة حمص فسلم القلعة اليه وسار الى حمص فاعطاه عوض حمص بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها الى العراق واقام ببغداد وابتنى بها داراً (عن الكامل لابن الاثير)

وفي سنة ٥٥٢ هـ وهي سنة ١١٥٨ م كان بسورية زلازل كثيرة شديدة خربت كثيراً من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى فخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحمص وحصن الاكراد وعرقا واللاذقية واطرابلس وانطاكية وخربت اماكن كثيرة في باقي البلاد وتهدمت اسوار وقلاع ومما حكاه ابن الاثير في وصف هذا الخراب قوله كان بمدينة حماة معلم للاولاد وذكر انه فارق المكتب وجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم فلم يات احد يسال عن صبي كان له في المكتب

وفي سنة ١١٦٢ م سار بودوين الثالث ملك اورشليم الى جهات انطاكية فاصابته حمى شديدة فحملوه الى اطرابلس ثم الى بيروت فتوفي بها في ١٣ من شهر شباط واخذت جثته الى اورشليم فدفنت في مدفن اسلافه الملوك وحزن عليه الفرنج كثيراً لانه كان عادلاً حليماً شجاعاً صبوراً على الاتعاب ورعاً مكرماً لخدمة

الدين محباً لمنادمتهم ولم يكن له ولد فخلفه اخوه اموري

عـد ٨٣٢

في اموري الاول وما كان في ايامه

بعد وفاة بودوين الثاني اختير للملك في اورشليم اخوه اموري ويسمى الماريك ايضاً وتوج في ١٨ من شهر شباط سنة ١١٦٢ وقد اثنى غوليلمس اسقف صور في تاريخه على كثير من مناقبه وفضائله ولم يغض على ذكر بعض معائبه ونقائصه ومن الاحداث في ايامه انه في سنة ٥٥٨ هـ وهي سنة ١١٦٤ م قصد نور الدين بن زنكي اطرابلس ونزل في البقيعة تحت حصن الاكراد فكبسه الفرنج فانهزم منهم الى بحيرة حمص وتلاحق به من سلم من المسلمين وكان هرب اليه شاور وزير العاضد لدين الله الخليفة العلوي بمصر واستنجده ليعود الى وزارته وبذل لنور الدين ثلث اموال مصر بعد رزق جندها ان اعاده الى الوزارة فارسل نور الدين شيركوه بن شاذي احد امرائه ومعه عسكر من سورية وشاور المذكور الى الديار المصرية فقتلوا ضرغام الذي كان قد تغلب على الوزارة بمصر بعد انهزام شاور واعادوا شاور الى الوزارة ثم غدر شاور بنور الدين ولم يفِ له بشيء مما وعد فاعاد شيركوه الى مصر واستولى على بلبيس والشرقية فاستنجد شاور بملك الافرنج على اخراج شيركوه من البلاد فارسل الملك اموري عسكراً من الفرنج الى مصر واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلثة اشهر وحاصر نور الدين حارم وهي بيد الفرنج واخذ وقتل واسر من الفرنج وكان في جملة الاسرى البرنس صاحب انطاكية والكنت صاحب اطرابلس ولما بلغت هذه الاخبار الفرنج وهم محاصرون بلبيس راسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه وعادوا الى سورية ورجع الفرنج ايضاً ثم سار نور الدين الى بانياس وفتحها وكانت بيد الفرنج من سنة ١١٤٩ الى هذه السنة وفي سنة ١١٦٦ فتح نور الدين

حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج وفي سنة ١١٦٨ جهز نور الدين عسكره وسيره الى مصر مع شيركوه فاستولى على بعض اعمالها وارسل شاور المذكور يستنجد الفرنج فساروا في اثر شيركوه الى جهة الصعيد والتقوا على بلد يسمى ايوان فانهزم الفرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب وعاد شيركوه الى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة اشهر فسار شيركوه اليهم فاتفقوا على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام فتسلم المصريون الاسكندرية وعاد شيركوه بابن اخيه صلاح الدين المذكور وعسكره واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على ان يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة ماية الف دينار وفي السنة المذكورة فتح نور الدين صافيتا والنربية ويروى والعربية

وفي سنة ١١٦٩ سار شيركوه بعسكر الى مصر وسبب ذلك تمكن الفرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس قهراً ونهبوها وقتلوا اهلها واسروهم ونزلوا على القاهرة وحاصروها فاحرق شاور مدينة مصر القديمة خوفاً من ان يملكها الفرنج وامر اهلها بالانتقال الى القاهرة فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً فارسل العاضد الخليفة العلوي الى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الفرنج على الف الف دينار يحملها اليهم وحمل اليهم ماية الف دينار وسالهم ان يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال واعطى شيركوه الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وارسل معه عدة امراء منهم ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب على كره منه احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته وكره

صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ولما قرب شيركوه من مصر رحل الفرنج الى بلادهم واجتمع شيركوه بالعاضد الخليفة فخلع عليه واجرى عليه وعلى عسكره الاقامات الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه في انجاز ما وعد من المال لنور الدين وافراد ثلث البلاد له وعزم شاور على ان يعمل دعوة لشيركوه وامراء عسكره ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل من ذلك وعزم عسكر نور الدين على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين وغيره من الامراء فنهاهم عن ذلك شيركوه واتفق ان شاور قصد شيركوه ليزوره على عادته فلم يجده بل لقي صلاح الدين فوثب صلاح الدين ومن معه على شاور والقوه الى الارض عن فرسه وامسكوه وهرب اصحابه وسمع العاضد الخليفة بذلك فارسل يطلب من شيركوه انفاذ راس شاور فقتله وارسل راسه الى العاضد ودخل شيركوه بعد ذلك القصر فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور امير الجيوش وقتل شيركوه بعد ذلك الكامل بن شاور واستتب له الامر

على ان شيركوه لم يلِ الوزارة الا شهرين وخمسة ايام وأتاه اجله فاحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة وسماه الملك الناصر وثبت قدم صلاح الدين على انه نائب لنور الدين وارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين اباه ايوب واهله فارسلهم نور الدين اليه واعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن بالبلاد وضعف امر الخليفة العاضد وفي سنة ١١٧٠ سار الفرنج الى دمياط وحاصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وخرج نور الدين وغار على بلاد الفرنج فاضطروا ان يرجعوا على اعقابهم ولم يظفروا بشيء . وفي سنة ١١٧٢ امر نور الدين صلاح الدين ان يقطع الخطبة العلوية ويخطب للخليفة العباسي فقطعها صلاح الدين وخطبوا للمستضي بالله العباسي ثم توفي العاضد العلوي فاستولى صلاح الدين يوسف بن ايوب على

قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه ونقل اهل العاضد الى موضع من القصر واخرج جميع من فيه من عبد وامة فانقرضت بالعاضد دولة العلويين الفاطميين بعد ان قام منهم اربعة عشر خليفة وكان ابتدا خلافتهم سنة ٢٩٦ ﻫ سنة ٩٠٩ م الى ان انقرضت دولتهم سنة ٥٦٧ ﻫ سنة ١١٧٢ م فمدة خلافتهم ٢٧١ قمرية و ٢٦٣ شمسية ٠ وسبحان من لا يتغير ولا يزول

اما صلاح الدين الايوبي فالاظهر والاصح ما قاله فيه المؤرخون المسلمون قال ابن الاثير ان شيركوه وايوب ابني شاذي اصلهما من الاكراد الروادية وقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان ايوب اكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً لقلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي خدمه ايوب وشيركوه فاحسن اليهما واعطاهما اقطاعات جليلة ولما ملك زنكي قلعة بعلبك جعل ايوب مستحفظاً لها ولما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكي سلم القلعة اليهم على اقطاع كبير شرطوه له وبقي ايوب من اكبر امراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين بن زنكي وارسله الى مصر مرات الى ان تسلم وزارتها وكان ابن اخيه صلاح الدين بن ايوب معه ثم خلفه بعد موته كما رايت

وبعد خلافة صلاح الدين لعمه شيركوه وموت العاضد وقطع الخطبة للعلويين والخطبة للمستضي من العباسيين وارسال الخليفة العباسي الخلع لصلاح الدين والاعلام السوداء شعار العباسيين اظهر صلاح الدين الامتثال لنور الدين وانه يلي مصر من قبله ولكن وقعت بينهما وحشة باطنة فان صلاح الدين ساعد ونازل الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً من ان ياخذه فلا يبقى ما يعوق نور الدين عن قصد مصر وبلغ ذلك نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين وجمع صلاح الدين اقاربه وكبراء دولته وقال بلغني ان نور الدين يقصدنا فما الراي فقال عمر ابن اخيه نقاتله ونقصده فانكر ايوب ابوه ذلك وقال انا ابوكم لو رايت نور الدين

نزلت وقبلت الارض بين يديه بل اكتب الى نور الدين لو جاءني من عندك انسان واحد وربط المنديل في عنقي وجرني اليك سارعت الى ذلك واخذ صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا نور الدين انا كنت اول من يمنعه ولكن اذا اظهرنا نحن كذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما تكون العاقبة واذا اظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل ما به الكفاية عند الله فكان كما قال ايوب

وفي سنة ٥٦٨ هـ سنة ١١٧٣ م سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين ان يجتمعا عليها وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك وخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك وارسل تحفا الى نور الدين واعتذر ان اباه مريض ويخشى ان يموت فتذهب مصر فعلم نور الدين مقصده وقبل عذره في الظاهر وكان صلاح الدين واهله خائفين من نور الدين واتفق رايهم على اخذ مملكة غير مصر حتى اذا هزمهم نور الدين عن مصر التجأوا الى تلك المملكة فجهز صلاح الدين اخاه توران شاه الى اليمن فاستولى عليها واستقرت في ملك صلاح الدين وثار عليه بعض اعيان مصر فعلم بهم وصلبهم عن اخرهم واتفق ان قد توفي نور الدين هذه السنة بدمشق وكان قد شرع يتجهز للدخول الى مصر واخذها من صلاح الدين فاتاه امر الله الذي لا مرد له وهو الذي بنى اسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل وقام بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل وعمره احدى عشرة سنة وتولى تدبير الملك الامير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم واظهر صلاح الدين الطاعة له انتهى ماخوذاً عن ابي الفداء في تاريخ السنين المذكورة

وبعد موت نور الدين قلق اصحاب الاقطاعات بسورية وهم كل منهم ان يستبد بعمله ويزيده ما امكن فراسلوا الافرنج وعقدوا معهم عهدات على ان يفوهم

جزية ان حاربوا صلاح الدين وحاصر اموري ملك اورشليم بانياس التي كان نور الدين قد اخذها فاسترضاه الامراء المتولون دمشق بمال وباطلاق بعض الاسرى النصارى فعاد الى اورشليم وبعد ايام توفي بها في ١١ تموز سنة ١١٧٣ م

عد ٨٣٣

في بودوين الرابع وبعض ما كان في ايامه

وبعد وفاة اموري الاول ملك اورشليم قام بالملك بعده في ١٥ تموز سنة ١١٧٣ ابنه وسمي بودوين الرابع ولم يكن عمره وقتئذٍ الا ثلث عشرة سنة وقال فيه غوليلمس اسقف صور الذي كان ابوه قد عهد اليه في تربيته وتثقيفه انه كان منذ صغره يعشق المعالي والحق والعدل على انه اعتراه البرص ثم العمى فلم يدبر الملك بنفسه واختلف في من يدبر الملك فاختار بعضهم ملون دي بلانسي والي ناحية من بلاد العرب واختار غيرهم ريموند احد احفاد ريموند دي سان جيل كنت اطرابلس فتغلب هذا وسلم اليه تدبير شؤون المملكة. وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صغيراً ايضاً مقيماً في دمشق يتنازع كثير من الامراء في حاشيته تدبير مملكته واتفق ان شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب ارسل يستدعي الملك الصالح بن نور الدين الى حلب ليكون مقامه بها فسار اليها واخذ سعد الدين كمشتكين مدبراً لملكه فلما تمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية وعلى غيره من اعيان حلب واستبد بتدبير الملك فخافه ابن المقدم الذي كان يدبر الملك في دمشق واتفق مع غيره من الامراء بدمشق وكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملك عليهم فسار من مصر في سبع مئة فارس ولما بلغ الى دمشق خرج كل من كان فيها من العسكر والتقوه ونزل بدار والده ايوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فاستماله صلاح الدين فسلم القلعة اليه فصعد اليها صلاح الدين واخذ ما فيها من الاموال وبعد ان قرر امر دمشق

واستخلف فيها اخاه سيف الاسلام طغتكين سار الى حمص فلكها وعصت عليه القلعة فترك حولها من يضيق عليها ورحل الى حماه فلكها وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك فامتنع في القلعة فارسل صلاح الدين يقول له ان لا غرض له سوى حفظ البلاد للملك الصالح بن نور الدين وانما هو نائبه ويريد ارسال جرديك في رسالة له الى حلب وسار جرديك بتلك الرسالة الى حلب واستخلف اخاه في قلعة حماه فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كمشتكين مدبر الملك وسجنه . وعلم اخوه بذلك فسلم القلعة الى صلاح الدين ثم سار صلاح الدين الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح فاجتمع اهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن المدينة وارسل سعد الدين كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية اموالاً ليقتلوا صلاح الدين فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصرًا لحلب الى ان نزل الفرنج على حمص فسار اليها ورحل الفرنج عنها وملك حينئذٍ قلعتها التي كانت قد عصت عليه اولاً وسار الى بعلبك فلكها وارسل الملك الصالح من حلب الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه صحبة اخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي فوصل هذا الجيش الى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وقصدوا صلاح الدين فارسل هو يبذل حمص وحماه وان تقر بيده دمشق وان يكون فيها نائباً للملك الصالح فلم يجيبوه الى ذلك وساروا الى قتاله واقتتلوا عند قرون حماه فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم عسكر صلاح الدين اموالهم وتبعوهم حتى حصروهم في حلب وقطع حينئذٍ صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوه في الصلح على ان يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب سنة ٥٧٠ هـ سنة ١١٧٥ م انتهى ملخصاً عن تاريخ ابي الفداء (مجلد ٣ صفحة ٥٩ وما يليها)

وما ذكره المورخون الفرنج في هذه الأثناء ان الفرنج غزوا الاعمال الواقعة وراء لبنان بامرة كنت اطرابلس والملك بودوين واتصلوا في الغزوة الاولى الى داريا على خمسة اميال من دمشق ثم غزوا ثانية من صيدا فدخلوا البقاع وبلغوا الى بعلبك التي سماها غوليلمس الصوري في تاريخه اميكارا وهو غلط وقد التبس عليه اسم بعلبك باسم تدمر وعادوا الى صيدا غانمين وكانوا يقصدون بهذه الغزوات ايقاف نجاح صلاح الدين الذي كان يتولى على حمص وحماه ويحاول فتح حلب ايضاً كما رايت ويعنى بتشييد اركان دولة الايوبيين

وفي سنة ٥٧١ ﻫ سنة ١١٧٦ م كانت وقعة بين صلاح الدين وسيف الدولة غازي المذكور بتل السلطان وكان مع سيف الدولة صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرها فانهزم سيف الدولة ومن معه مرعوبين واستولى صلاح الدين على اثقال عسكرهم وسار الى بزاعة فحصرها وتسلمها والى منبج فحصرها وفتحها عنوة وكان فيها نيال بن حسان المنبجي فاسره ثم اطلقه ثم سار صلاح الدين الى اعزاز فتسلمها ووثب عليه اسماعيلي فضربه بسكين في راسه فجرحه فامسك صلاح الدين يدي الاسماعيلي وبقي يضرب بالسكين فلا توثر حتى قتل الاسماعيلي ووثب اخر عليه فقتل ايضاً ولما ملك اعزاز رحل عنها الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين وساله اخيراً اهل حلب في الصلح فاجابهم اليه واخرجوا اليه بنتاً صغيرة لنور الدين اخت الملك الصالح فاكرمها صلاح الدين واعطاها شيئاً كثيراً وقال لها ما تريدين فقالت اريد قلعة اعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها اليهم سنة ١١٧٧ واستقر الصلح بين صلاح الدين وبين الملك الصالح وسيف الدولة صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وتحالفوا على ان يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر ورحل صلاح الدين عن حلب وقصد بلد الاسماعيلية فنهبه وخربه واحرقه وحصر قلعة مصياف فارسل سنان مقدم الاسماعيلية الى شهاب الدين

الحارمي خال صلاح الدين يساله ان يسعى في الصلح فسال صلاح الدين الصفح عنهم فصالحهم ورحل عنهم وعاد الى مصر بعد ان استقر له ملك الشام وامر ببناء السور الدائر على مصر القاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ولم يزل العمل بهذا السور الى ان مات صلاح الدين (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء في تاريخ هذه السنين)

لما عاد صلاح الدين الى مصر غزا الفرنج بعض الاعمال في ناحية انطاكية وعلم صلاح الدين بتوجيه عسكرهم الى تلك الناحية فاستغنم الفرصة ليسطو عليهم في فلسطين واليك ما قاله المورخان المذكوران في هذه الحملة في سنة ٥٧٣ هـ سنة ١١٧٨ م سار السلطان صلاح الدين من مصر الى ساحل الشام لغزو الفرنج ووصل الى عسقلان فنهب وتفرق عسكره في الاغارات وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر الا بالفرنج قد طلعوا عليه فقاتلهم اشد القتال وكان لتقي الدين ابن اخي صلاح الدين ولد اسمه احمد من احسن الشباب فامره ابوه بان يحمل على الفرنج فحمل عليهم وقاتلهم واثر فيهم اثراً كثيراً وعاد سالماً وامره ابوه بالعود اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل وتمت الهزيمة على المسلمين وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزماً الى مصر في البرية ومعه من سلم فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً وهلك كثير من الدواب واخذ الفرنج من كانوا متفرقين في الاغارات اسرى او قتلوهم قال ابن الاثير رايت كتاباً بخط يد صلاح الدين الى اخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له هذه الوقعة وفي اوله :

ذكرتك والخطي (١) يخطر بيننا وقد نهلت (٢) منا المثقفة (٣) السمرُ

ويقول فيه لقد اشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله منه الا لامر يريده سبحانه وتعالى . وما ثبتت الا وفي نفسها امر

١ الرمح ٢ شربت ٣ الرماح ايضاً

وقال المورخون الفرنج في ذلك سار صلاح الدين الى فلسطين ولما علم ملك اورشليم بذلك سار في من تيسر له جمعه من الفرسان الى عسقلان وبلغ صلاح الدين اليها وخيم في جوارها وراى عسكر المسلمين ان النصاوى محاصرون في المدينة فتفرقوا للاغارات والغنيمة في السهول فاحرقوا الرملة وخربوا عمل اللد وانهزم الاهلون وعظم الرعب في جبل اليهودية حتى اورشليم فخرج المحاربون النصارى وقصدوا عسقلان وتلال الرمل تحجب عنهم النظر حتى اشرفوا على المحل المخيم به صلاح الدين واندفعوا للقتال فاستدعى صلاح الدين عسكره المشتت وهيج من كان معه على القتال وكان بودوين الملك في طليعة جنده وامامه خشبة الصليب ولم يكن معه الا ثلثماية وخمسة وسبعون فارساً فصبر المصريون على القتال وقتل كثيرون من مماليك صلاح الدين وحاشيته وتمت الهزيمة على صلاح الدين وذويه فتتبع الفرنج أثرهم الى جبل جراد وكان المصريون يلقون في الطريق دروعهم وخودهم وضايقهم الجوع والعطش فمات كثيرون منهم وغنم الافرنج ما كان في معسكرهم من اثقال وسلاح وخيل وجمال واسروا كثيرون ممن كانوا متفرقين وقتلوا كثيرين وانهزم صلاح لدين راكباً هجيناً الى مصر وعزا ابو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني انقلاب المصريين الى ريح عاصفة هبت في وجوههم واثارت الرمل على عيونهم (انتهى ملخصاً عن غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب كتاب ٢٠ وبرنردس الخازن في مكتبة الصليبين وغيرها)

عد ٨٣٤

في حروب واحداث اخرى في ايام بودوين الرابع

بعد ان عاد صلاح الدين مدحوراً الى مصر تقوى الفرنج وساروا من جهة انطاكية وحصروا مدينة حماة وكان توران شاه اخو صلاح الدين ينوب عنه في دمشق وليس عنده كثير من العسكر وكان كثير الانهماك في اللذات مائلاً الى

الراحات وكان بحماه شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين لكنه كان مريضاً وشد الفرنج الحصار على هذه المدينة وكادوا يملكونها قهراً ولكن جد المسلمون في القتال واخرجوا الفرنج الى ظاهر السور واقاموا كذلك اربعة ايام ثم رحلوا عن حماه الى حارم وحاصروها اربعة اشهر فارسل اليهم الملك الصالح صاحب حلب مالاً فصالحوه ورحلوا عن حارم فارسل اليها الملك الصالح عسكراً فسلمها اهلها اليه وكانت لصلاح الدين واستتاب بها مملوكاً لابيه اسمه سرخك

وفي سنة ٥٧٤ هـ سنة ١١٧٩ م طلب توران شاه من اخيه السلطان صلاح الدين بعلبك وكان السلطان قد اعطاها لابن المقدم لما سلمه دمشق كما مر فارسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك الى اخيه فعصى بها فارسل السلطان وحصره ببعلبك وطال الحصار الى ان اجاب ابن المقدم الى تسليمها بعوض فعوضه السلطان عنها هذا ما رواه ابو الفداء ولم نر من ذكر العوض الذي ناله ابن المقدم عن بعلبك

وفي السنة المذكورة سير السلطان صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين عمر الى حماه وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص وامرهما بحفظ بلادهما فاستقر كل منهما ببلده . وفي سنة ٥٧٥ هـ سنة ١١٨٠ م سار صلاح الدين الى الشام وفتح حصناً كان الفرنج قد بنوه عند مخاضة الاحزان وفي نسخة الاجزان وفي الكامل الاخزان بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي

أتسكن اوطان النبيين عصبة تمين لدى ايمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

يريد صلاح الدين الذي هو يوسف ابن ايوب هذا ما رواه ابو الفداء وروى ابن الاثير الخبر باكثر تفصيل فقال ما ملخصه سار صلاح الدين من دمشق الى بانياس وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار الى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود اليه عند اجتماع العساكر فقاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه الى بانياس وخيله

متكبرًا وعاد صلاح الدين فاخذ الحصن ودكه الى الارض (انتهى ملخصاً عن تاريخ غوليلمس اسقف صور كتاب ٢١)

وفي سنة ٥٧٧ هـ سنة ١١٨٢ م توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بحلب وعمره نحو تسع عشرة سنة بمرض القولنج ولما اشتد عليه وصف له الاطباء الخمر فمات ولم يستعمله واوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل فسار اليها وبعد ان استقر في ملكها كاتبه اخوه عماد الدين صاحب سنجار في ان يعطيه حلب وياخذ سنجار فاجابه الى ذلك فسار عماد الدين الى حلب وتسلمها وسلم سنجار الى اخيه عز الدين

وفي سنة ٥٧٨ هـ سنة ١١٨٣ م سار السلطان صلاح الدين من مصر الى الشام ومن عجيب الاتفاق انه لما برز من القاهرة وخرج الاعيان لوداعه وكان كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه انشده معلم بعض اولاده قول الشاعر :

تمتع من شميم عرار (١) نجد ... فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه لان ذلك شعر بانه لا يعود الى مصر وكان كذلك مع طول مدة حياته واغار صلاح الدين في طريقه على بلاد الفرنج وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه ابن اخيه ونائبه بدمشق الفرصة وسار الى الشقيف بعساكر الشام وفتحه واغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج وارسل يبشر عمه السلطان بذلك

وفي السنة المذكورة سار صلاح الدين من دمشق ونزل قرب طبرية وشن الاغارة على بلاد الفرنج مثل بانياس وجنين والغور فغنم وقتل روى ذلك ابو الفداء وقال ابن الاثير وجاء الفرنج ونزلوا بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن اخيه الى بيسان فدخلها قهرًا وغنم ما فيها واغار على الغور فافنى اهله قتلاً واسرًا

١ بهار طيب الرائحة وقيل هو النرجس

تغير على بلاد العدو وارسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر الا والفرنج
مع ملكهم خرجوا عليهم وعلم صلاح الدين فسار في العساكر مجدًا حتى وافاهم
وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالاً شديدًا وكادوا يزيلون المسلمين عن مواقفهم
ولكن تغلب المسلمون في اخر الامر وقتلوا من الفرنج مقتلة كثيرة واسروا
كثيرين منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو اعظم الفرنج محلاً بعد الملك
ثم صاحب جبيل وصاحب طبرية وغيرهم من كبار فرسانهم ونجا ملكهم وروي
ان هذه الوقعة كانت في مرج عيون ثم عاد صلاح الدين من محل المعركة وتجهز
لمحاصرة الحصن ونادى بالزحف اليه والجد في قتاله فزحفوا واشتد القتال وكان
الفرنج قد اجتمعوا بطبرية فالح المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج
اليهم وادركهم الليل فناموا في حياله . فلما كان الغد نقبوا الحصن وعمقوا النقب
واشعلوا النار فيه ليسقط فلم يسقط لانه كان عريضاً تسعة اذرع وعاد النقابون
فخرقوا السور والقوا النار فيه فسقط ودخل المسلمون الحصن واسروا كل من فيه
واطلقوا من كان به من اسرى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرين من اسرى
الفرنج وادخل الباقين الى دمشق ولم يبرح صلاح الدين الحصن حتى هدم وعفا
اثره والحقه بالارض

والذي رواه المؤرخون الفرنج ان الملك بودوين بنى سنة ١١٧٨ حصناً على
ضفة الاردن في المحل المسمى معبر يعقوب ليصد غزوات العرب وغارات الاعداء
وقد سمي هذا المحل بهذا الاسم لانه يظن ان يعقوب عبر الاردن في هذا المحل
بعد عوده من ما بين النهرين وسلم الملك هذا الحصن الى فرسان الهيكل وحاصر
صلاح الدين الحصن الحديث واغار في مدة الحصار في فريق من عسكره الى
نواحي صيدا فكان هناك قتال شديد فظهر المسلمون على الفرنج وقتلوا واسروا
كثيرين منهم اودون دي سان امان رئيس فرسان الهيكل وكان رجلاً شريرًا

وجاءت العرب فاغارت على جنين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب (كوكبة) فتقدم صلاح الدين اليهم وارسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا ولم يتحركوا لقتاله فامر ابني اخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج في من معهما فقاتلوا قتالاً شديداً وانحاز الفرنج الى حاميتهم فلما راى صلاح الدين ما قد اثخن فيهم وفي بلادهم عاد غنهم الى دمشق

وكان صلاح الدين قد امر الاسطول المصري بالمجيء الى بيروت فساروا اليها ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدهـا ووافاهم صلاح الدين ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة ايام وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها لكنه خاف اجتماع الفرنج عليه فتركها وعاد الى دمشق

ثم سار صلاح الدين نحو الجزيرة وعبر الفرات من البيرة فاخذ حران وحصن كيفا والرها والرقة وقرقيسيا واستولى على الخابور جميعه وعلى نصيبين وحاصر الموصل ولما راى حصارها يطول رحل عنها الى سنجار فملكها وفي سنة ٥٧٩ هـ سنة ١١٨٤ م اخذ حصن آمد بعد حصار وقتال ثم عاد الى الشام وقصد تل خالد من اعمال حلب وملكه ثم سار الى عينتاب فحاصرها وملكها ثم سار الى حلب وبها صاحبها عماد الدين زنكي المار ذكره وطال الحصار وكان امراء حلب وعسكرها قد اكثروا من الاقتراحات عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب فسلمها الى السلطان صلاح الدين على شرط ان يعوض عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقا على ذلك وسلم حلب الى صلاح الدين وكان اهلها ينادون عليه يا حمار بعت حلب بسنجار وشرط السلطان عليه ان يحضر بنفسه وعسكره اذا استدعاه ولا يحتج بحجة وكان فتحه حلب في شهر صفر ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة قال فيها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشرٌ بفتوح القدس في رجبِ

فوافق فتوح القدس في رجب سنة ٥٨٣ هـ سنة ١١٨٨ م كما سترى. ولما ملك السلطان حلب ارسل الى حارم وبها سرخك الذي كان الملك الصالح قد ولاه اياها وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكاتب سرخك الفرنج فوثب عليه اهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الى صلاح الدين وهو بعد ان قرر امور حلب وما جاورها وجعل في حلب ولده الملك الظاهر غازي عاد الى دمشق ظافراً غانماً وقد دانت له مصر وبلاد العرب والجزيرة والقسم الاكبر من سورية ولم يبقَ من يخالفه الا الفرنج محصورين في وسط املاكه وله اسطول في شواطي مصر (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير في الكامل وابي الفداء في تاريخه)

عـد ٨٣٥

في سؤ حال الفرنج في هذه المدة

قد عرفت مما مرَّ ما الت اليه حال السلطان صلاح الدين من العظمة والمهابه وانبساط ملكه واستفحال امره واما الفرنج فكانوا حينئذٍ في اسوأ حال لان الملك بودوين الرابع كان مبلياً بالبرص وقد اشتد مرضه حتى لم يعد يستطيع حراكاً وامسى اعمى واصابته حمى وهو بالناصرة واستمر متردداً في التخلي عن الملك فاختار بحضرة اشراف مملكته والملكة امه وهرقل بطريرك اورشليم كوي لوسنيان كنت يافا وعسقلان مدبراً لملكه وكان متزوجاً بسيبيلا بنت اخيه الملك اموري وابقى الملك لنفسه السلطة الملكية والحق على استيفاء عشرة الاف ريال من ذهب على انه راى بعد مدة ان كوي ليس اهلاً لتدبير المملكة وقد اسخطه ببعض اعماله فخلعه من المنصب الذي كان قد عهد اليه به ورغب في ان لا يكون له امل في الخلافة له بعد موته فتخلى عن الملك لابن اخته سيبيلا المذكورة وسماه بودوين الخامس وتوجه باحتفال وكانت اخته المذكورة قد تزوجت اولاً بالمركيز دي مونتي فراتا فرزقت

منه هذا الولد وتزوجت ثانية بكوي دي لوسنيان ولكن لم يكن عمر هذا الملك الحديث حينئذٍ الا خمس سنين وكال في ٢٠ من شهر تشرين الثاني سنة ١١٨١ فلم يثبت العقلاء خلع كوي لبقاء الملك دون مالك لعجز بودوين الرابع من قبل مرضه وصغر بودوين الخامس فانزوى كوي دي لوسنيان في عسقلان وابى الطاعة للملك جهاراً وسمى الملك ريموند كنت اطرابلس مدبراً الملك ابن اخته

وكان الملك يرى ان السلطان صلاح الدين يزداد كل يوم سلطة وعظمة وانبساطاً لملكه فارسل الى المغرب هرقل بطريرك اورشليم وارنود رئيس الفرسان الهيكليين وروجه رئيس فرسان الاسبيتال (جماعة او جمعية اسست للعناية بالحجاج والمرضى منهم) فمضوا اولاً الى فارونا (بايطاليا) حيث كان الحبر الروماني البابا لوشيوس وفريدريك ملك المانيا فشرحوا مذرفين الدموع حالة النصارى الغربيين في سورية والتمسوا امدادهم وانجادهم برجال واموال ليقووا على مناصبة اعدائهم وقالوا ان القبر المقدس وغيره من الكنائس يحف بها الخطر فرثى الملك لهم واشفق عليهم ووعد بانه عند عودته الى المانيا يبذل قصارى جده في امدادهم ومساعدتهم ودفع اليهم البابا رسائل توصية الى ملكي افرنسة وانكلترا فمات رئيس الهيكليين في فاروناوسار البطريرك ورئيس الاسبيتاليين الى افرنسة وبلغا الى بريس في ١٥ كانون الثاني سنة ١١٨٥ فقبلهما رئيس اساقفة بريس بالترحاب والاجلال ولما عرف الملك فيلب اغوسطس بقدومهما ابدى لهما صنوف التكريم وقدما له مفاتيح اورشليم وكنيسة القبر المقدس وجمع الملك الاساقفة والاعيان في بريس وامر الاساقفة ان يعظوا في الكنائس محرضين رعاياهم على السفر الى اورشليم وامر عماله كذلك واشار عليه اعوانه ان لا يسير بنفسه الى اورشليم بل يرسل مالاً وفرساناً وجنوداً نجدة للصليبيين

وسار البطريرك ورفيقه الى انكلترا وبلغاها في اوائل شباط سنة ١١٨٥ فقبلهما

الملك اريكس الثاني بالاكرام وقدما له الراية الملكية ومفاتيح كنيسة القبر المقدس وبرج داود ومدينة اورشليم وسلماه رسالة البابا حيث كان يبسط له شرح الحالة السيئة التي كانت عليها وقتئذ الارض المقدسة وذكر الوافد ان الملك بوعد كان قد ابرزه للحبر الروماني وحلف على ان يسير الى فلسطين وينجد الفرنج كفارة عن سعيه بقتل توما اسقف كنتربري فوعد الملك بامدادات عظيمة ولكنه اعتذر عن المضي بنفسه الى فلسطين والح البطريرك عليه بالمسير حتى بكلام خشن جارح فبقي الملك يتهدد خنق البطريرك وهدده بان الله ينتقم منه وراى الملك قد استشاط فمد عنقه وقال للملك اقتلني كما قتلت اخي توما فخير لي ان تقتلني انت في انكلترا من ان يقتلني المسلمون في سورية ثم سكن جيش غضبهما واتفقا على ان الملك اريكس يسير الى افرنسة فيستشير فيليب ملك افرنسة وسار البطريرك بمعيته الى نرمنديا وسار ملك افرنسة اليها وقد راى الملكان ان يمدا الصليبيين بمال ورجال على ان الذين ساروا من اوربا الى سورية لنجدة اخوانهم في هذه المرة كانوا قليلين وعاد البطريرك هرقل الى اورشليم حزيناً آسفاً على انه لم يلق في المغرب حينئذٍ تلك الحمية التي كانت لاهلها قبلاً في الذب عن الدين. وقد اهتم البابا لوشيوس لان مسعاه لم يصادف النجاح الذي كان يامله فكتب الى السلطان صلاح الدين رسالة يساله بها ان يخلي سبيل الاسرى الذين في حوزته من النصارى ولم تبق لنا الايام رسالة البابا هذه ولكنها ابقت لنا جواب صلاح الدين للحبر الروماني ذكره رادولف دي ديشاتو في كتابه تاريخ الصور صفحة ٦٢١ وباجيوس في تاريخ سنة ١١٨٤ واليك ترجمة هذا الجواب عن الافرنسية. « من الملك صلاح الدين اعظم ملوك المشرق الى سيادة البابا رفعت الينا رسالة قداستكم ونحن نعلم ونوقن ان لكم المحل الاول في هذا العالم ونعلم ان الله خولكم المجد والفخار لتكونوا في العظمة التي انتم عليها ونعرف ايضاً ان النصارى اجمعين يادونكم الطاعة ويهابونكم وقد قدم لنا هذه الرسالة

سفيركم اوليفيه فيتال فاكرمناه وقابلناه في داخل قصرنا . واجبناه الى كل ما طلبه حرمة لكم ولما لكم عندنا من التوقير وقد سررنا كثيراً بكل ما حوته رسالتكم وطلبه سفيركم من الصلح مع النصارى وتخلية سبيل الاسرى فعلى الذين هم لكم مطيعون ان يرسلوا الينا من كانوا من رعايانا اسرى عندهم ونحن نرسل اليهم بكل طيبة خاطر من كانوا منهم اسرى عندنا وعظمتكم تعلم ان الاسرى الذين عندنا من النصارى هم من الاعيان والاشراف وجنودنا الذين اسرهم النصارى هم من عامة الناس وسفلة القوم فنحن نثمن ان حسن لديكم الاسرى الذين عندنا والنصارى يثمنون الاسرى الذين عندهم ومن نقص له من الثمن يعوض عنه باسرى اخرين ويعلم الله انه لما راينا رسالتكم ووفود عظمتكم شملنا سرور لا مزيد عليه وحمدناه تعالى لذلك ٠

وكتب البابا ايضاً الى اخي السلطان صلاح الدين فاجابه برسالة مؤرخة في ٢٦ ايار سنة ١١٨٤ ومما قاله فيها مترجماً عن الافرنسية ٠ قد علمت من كلام سفيركم انكم ترغبون في المحافظة على المعاهدة التي عقدها الملك صلاح الدين مع سالفكم اسكندر ذي الذكر المقدس في شان تخلية الاسرى بين النصارى والمسلمين (يظهر من كلام الملك العادل اخي صلاح الدين انه قد كانت معاهدة سابقة بين البابا اسكندر والسلطان صلاح الدين) فاذا اراد النصارى الذين في اورشليم وملكهم وسكان بلاد صور ان يطيعوا امركم مع جميع النصارى وان يحافظوا بحسب ارادتكم على القرار الذي جرى بيننا على الصلح وتخلية سبيل الاسرى الذين في سجوننا فنعد نحن ايضاً بان نتمم كل ما ترغبون فيه لتوطيد هذا الصلح ونساله تعالى ان يلهمهم ويلهمنا لنصنع بنعمته كل ما يكون عائداً لنفع النصارى والمسلمين امين ٠ ذكر هذه الرسالة ايضاً من ذكروا الرسالة الاولى

ان الملك بودوين الرابع الابرص توفي سنة ١١٨٥ وترك خليفة له ابن اخته

بودوين الخامس وعمره تسع سنين ولكن توفي سنة ١١٨٦ ودفن في كنيسة القبر المقدس وكان اخر ملك دفن فيها فبعد وفاته جمع ريموند كنت اطرابلس اعيان المملكة في نابلس وبقي البطريرك ورئيس الهيكليين في اورشليم وقالا لامراة لوسينيان بنت الملك اموري انهما يتوجانها ملكة على رغم كل مخالف وارسلا يقولان للاعيان المجتمعين بنابلس ان يأتوا لتكليلها فابوا وارسلوا للبطريرك انهم لا يرضون ان تملك عليهم امراة فاقفلوا ابواب المدينة وسارت سيبيليا الى كنيسة القبر المقدس فاخذ البطريرك من الخازن تاجين فوضع احدهما على المذبح والاخر على راس سيبيليا ثم قال لها البطريرك مولاتي انت امراة فينبغي ان يكون معك رجل يدبر شؤون المملكة فخذي هذا التاج وتوجي به رجلاً اهلاً لتدبير المملكة فاخذت التاج ودعت زوجها لوسينيان الواقف امامها وقالت مولاي تقدم اليَّ واقبل هذا التاج فانني لا ارى اجدر منك به فجثا امامها فوضعت التاج على راسه فنودي به ملكاً وبها ملكة ولما بلغت هذه الاخبار الى مسامع الاعيان المجتمعين بنابلس شق ذلك عليهم ولا سيما على بودوين كنت الرملة فقال خرب البلاد فحرامٌ عليَّ ان اسكنه لئلا الام بخرابه وانا فيه فناشد ريموند كنت اطرابلس كنت الرملة ان يشفق على النصارى وان لا يبرح البلاد ليساعد الاعيان على نجاة المملكة من الاخطار المحدقة بها وقال عندنا هنا همفروا دي تورون زوج ايزبال ابنة اموري الثانية فنسير الى اورشليم ونتوجه ملكاً فكل اعيان المملكة محازبون لنا ولا نخشى ان يقاومنا المسلمون بل هم يساعدوننا لاني عقدت هدنة معهم فاتفق راي الاعيان على ذلك على ان همفروا ابى ان يكون ملكاً وتسارع الى اورشليم فقال للملكة اوثر راحتي وحياتي على تاج الملك فاغتم الاعيان ولكن اثر السواد الاعظم منهم الاذعان للملك على خراب البلاد وترك كنت الرملة عمله وسار الى انطاكية واقام فيها ومضى ريموند كنت اطرابلس فاقام في طبرية التي له من جهة امراته واتفق مع صلاح الدين ان

ينجده اذا مسه لوسينيان بضر فهذه كانت حال الافرنج وصلاح الدين واقف لهم بالمرصاد (انتهى ملخصاً عن كثيرين من مورخيهم)

عد ٨٣٦

في وقعة حطين الشهيرة

كان بين الفرنج وصلاح الدين هدنة كما سبقت الاشارة الى ذلك واليك ما كان بعدها على ما روى المؤرخون المسلمون قالوا في سنة ٥٨٢ هـ وهي سنة ١١٨٧ م غدر البرنس صاحب الكرك واخذ قافلة عظيمة من المسلمين واسرهم فارسل السلطان صلاح الدين يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة فلم يفعل فنذر السلطان انه ان اظفره الله به قتله بيده وفي سنة ٥٨٣ هـ سنة ١١٨٨ م جمع السلطان عساكره وسار بفرقة منها وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحبها وارسل فرقة اخرى مع ولده الملك الافضل فاغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئاً كثيراً وسار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة وتاخرت القلعة وكانت طبرية للقومص (الكنت) صاحب اطرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فارسل الفرنج القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فصار معهم واجتمع الفرنج لملتقى السلطان فركب صلاح الدين من طبرية والتقى الجمعان في حطين واشتد بينهم القتال ولما راى القومص شدة الامر حمل على من قدامه من المسلمين وكان هناك تقي الدين صاحب حماه فافرج له وعطف عليهم فنجا القومص ووصل الى اطرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غبناً واحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وابادوهم قتلاً واسراً وكان في جملة من اسر ملك الفرنج الكبير والبرنس ارنولط (ارنولد) صاحب الكرك وصاحب جبيل وجماعة من السبتارية (جماعة الاسبتاليين) وما اصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام الى الان بمصيبة مثل هذه الوقعة ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته واجلس ملك الفرنج الى جانبه وكان

الحر شديدًا فسقاه ماء مثلوجاً فسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنولط صاحب الكرك فقال له السلطان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني ووبخ البرنس وقرعه على غدره وقصده الحرمين وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن السلطان جاشه وعاد الى طبرية وفتح قلعتها بالامان

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج ان رانود دي شاتيلون والي الكرك كان قد غزا العربية قاصدًا الحجاز ومكة المكرمة فرد عن غزواته وفي سنة ١١٨٧ اخذ قافلة كانت سائرة من مصر الى بلاد العرب وسجن المسافرين غير مبالٍ بالهدنة التي لم تكن قد انقضت مدتها ولما علم صلاح الدين بذلك ارسل يساله ان يطلق من اسرهم ويهدده بان يعامل النصارى الذين يمرون بارضه معاملته للمسلمين فابى رانود تخلية سبيل السجنى فحنق السلطان صلاح الدين وحلف على ان يبيد النصارى واعلن انتقاض الهدنة ونذر ان يقتل رانود بيده ان اظفره الله به وجمع عساكره ودخل ارض النصارى في عسكر يزيد على خمسين الف مقاتل وسارت فرقة من جيشه بامرة احد اولاده نحو الناصرة فتسارع سكان القرى الى الناصرة ينادون وصل المسلمون فهلموا للدفاع عن مدينتكم فهب الفرسان الهيكليون والاسبيتاليون واجتمع مئة وثلاثون فارساً وثلث او اربع مئة راجل وصافوا عسكر المسلمين وكان نحواً من سبعة الاف مقاتل وقال مؤرخو ذلك العصر ان هؤلاء الابطال ابدوا في هذه الحرب آيات البسالة واثنوا كثيرًا على شجاعتهم وجهادهم وممن امتاز منهم مرشال من الهيكليين اسمه يعقوب ماليا فانه كان راكباً جوادًا ابيض فقتل ارفاقه وهو صابر يقاتل وحده بين جثثهم والنبال المصوبة اليه يتكسر بعضها على بعض الى ان وقع به جواده فقفز وسيفه بيده ودم جراحه يسيل وهجم على صفوف الاعداء وما برح يقاتل الى اخر نسمة من حياته حتى توهم المسلمون انه الخضر اي القديس جيورجيوس وبعد مقتله كرموا جثته وتبركوا باخذ فلذات من ثيابه وسلاحه ولم

ينجُ من هذه المعركة الا رئيس الهيكليين وفارسان من فرسانه وكانت هذه الوقعة اليوم الاول من ايار سنة ١١٨٨

اما لوسينيان ملك اورشليم الذي كان يفكر اولاً بمحاربة ريموند كنت اطرابلس راى من السداد ان يكتفي بتوبيخه وان يعول على رايه وعرف ذلك ريموند فاقسم على انه نسي كل ما كان له من الاهانات واتى الى اورشليم فخرج لوسينيان لملتقاه وابدى له عواطف حبه فتعانقا على مشهد الشعب كله وتصافحا وتحالفا ان يقاتلا معاً الى الممات

وكان عسكر صلاح الدين يزداد كل يوم حتى صار معه في طبرية ثمانون الف مقاتل وحاصر قلعة هذه المدينة وكانت فيها امراة ريموند كنت اطرابلس واجتمع عسكر النصارى في الجليل في صحراء صفورية وصاروا نحواً من خمسين الف مقاتل وكان كنت اطرابلس وطبرية من املاكه يرى ان ترك طبرية لصلاح الدين خير من تعرض عسكر النصارى للهلكة في البرية الخشنة القاحلة الواقعة بين طبرية وصفورية والاولى بالنصارى ان يصدموا المسلمين في هذه البرية وهم بعيدون عن الازودة والماء من ان يعرضوا نفوسهم للمخاطر بالخروج على المسلمين فخالف بعضهم راي ريموند هذا وابته الملك لوسينيان ولكن ارتاى رئيس الهيكليين بان لا يعمل براي ريموند لانه خائن وبان يأمر العسكر بالمسير فامر وسار الجيش في الثالث من شهر تموز وبلغوا الى معابر ضيقة حجرة قبل ان يصلوا الى بحر الجليل فالتقاهم المسلمون هناك والعطش اخذ منهم كل ماخذ والحر يصليهم وكان كنت اطرابلس في مقدمة الجيش فارسل يقول للملك ان يسرع ليصل الى شاطي البحيرة فوثب عسكر صلاح الدين بغتة على ساقة عسكر الفرنج فشتتوا الهيكليين والاسبتاليين الذين كانوا يحرسون مؤخر العسكر فلم يجسر الملك ان يتقدم الى ما قدام وما عاد يعلم ما يعمل فامر بضرب خيامه وسمعه الناس يقول ويلاه ويلاه خرب البلاد وازف

الاجل ولم تبرح رحى الحرب دائرة الى ان اسبل الليل ستاره والقى المسلمون النار في الهشيم المتراكم هناك فصرف النصارى ليلهم معذبين بالحر والدخان ورشق السهام والجوع والعطش وفي الغد خرج صلاح الدين من طبرية واوقد نار الحرب على النصارى وانحاز الرجالة من الفرنج الى اكمة هناك بدلاً من ان يعضدوا الفرسان المجاهدين وصبر الهيكليون والاسبتاليون على القتال في ساقة الجيش ولكن كثر العدى عليهم وكانوا في كل ساعة يزيدون عدداً فدعوا الملك لنجدتهم لكنه راى ان الرجالة انقطع عليهم طريق العود اليه وانه لم يبق حوله من يذب عنه فامر ان يرفعوا الخيام عساه ان يستطيع ان يوقف وثوب الاعداء عليه وترك كثيرون من الجنود صفوفهم واجتمعوا حول خشبة الصليب فتخلخلت الصفوف ولما راى كنت اطرابلس ما حاق بالملك والفرسان والعسكر من سوء الحال والموقف راى نفسه منفرداً والاعداء يحدقون به من كل جهة فاخترق صفوفهم وفتح طريقاً بينهم عبر به مع طلائعه وما برحت النجدات تاتي المسلمين واصاب سهم قاتل اسقف عكا الذي كان يحمل خشبة الصليب فترك الخشبة المقدسة الى اسقف اللد ووثب فريق من المسلمين على الرجالة الذين كانوا قد انحازوا الى الاكمة فلم يكن منهم غير قتيل او اسير ونجا باليان والي نابلس ومن تمكن من الانهزام واطئين الجثث وتسارع عسكر المسلمين الى المحل الذي كانت فيه خشبة الصليب وملك اورشليم فاخذوا هذه الخشبة المقدسة واسروا اسقف اللد وكل من كان معه وقبضوا على الملك وغيره من الاعيان وقل من سلم من الهيكليين والاسبتاليين من القتل او الاسر هذا ما رواه راول كوغسهال الذي كان شاهداً لهذه الحرب وقد روى ابن الاثير اخبارها كما رويناها عن راول المذكور وهذا ما قاله ابن الاثير في اخذ خشبة الصليب « واخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان اخذه عندهم

من اعظم المصائب عندهم وايقنوا بعده بالقتل والهلاك ٠

وفي الغداة اشخص صلاح الدين الفرسان الهيكليين والاسبتاليين الذين اخذوا اسرى فعفا عن رئيس الهيكليين لانه برائه عزم الفرنج على مهاجمة السلطان فكان هذا النصر له وكان حول صلاح الدين جماعة من الامراء والفقهاء فاوعز الى كل منهم ان يقتل فارساً من الفرسان الفرنج فابى بعضهم تورعاً وباقيهم اخذوا يقتلون اولئك الفرسان وهم مكبلون بالاغلال وقد اقبلوا على الموت بسرور وبشاشة بل كان بعضهم يلحون بانزال العقاب بهم ويتسابقون على الموت. وفتح صلاح الدين قلعة طبرية بالامان وارسل امراة ريموند كنت اطرابلس اليه (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم ولا سيما ميشود وروهربخر)

عد ٨٣٧

في ما فتحه صلاح الدين من بلاد الفرنج بعد وقعة حطين

هذا ما رواه المؤرخون المسلمون لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار الى عكا وقد صعد اهلها على سورها يظهرون الامتناع فعجب هو والناس من ذلك بعد ما حل بالفرنج فصمم صلاح الدين على الزحف ليفتح المدينة عنوةً اذ خرج كثير من اهلها يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل وساروا متفرقين وحملوا ما امكنهم حمله من اموالهم وتركوا الباقي فغنمه المسلمون وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه لان المدينة كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم وسلم صلاح الدين البلدان الى ولده الافضل

وفي مدة مقام السلطان بعكا تفرق عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها واسروا رجالها وسبوا نساءها واطفالها وارسل تقي الدين ابن اخيه فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس

فاتى سبسطية (السامرة) وبها قبر زكريا فاخذه من ايدي النصارى وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من بها بالامان وتسلم القلعة

وكتب الى صلاح الدين ابن اخيه عن تبنين يقول ان اهلها امتنعوا عليه ويحثه على الوصول اليه فسار اليه وحاصر المدينة وضايقها وهي من القلاع المنيعة على جبل ولما اشتد الحصر اطلقوا من عندهم من الاسرى المسلمين فلم يرضَ السلطان ذلك وبقوا مصرين الى ان ارغموا على طلب الامان فامنهم ووفى لهم وسار الى صيدا واجتاز في طريقه الى صرفند فاخذها صفواً عفواً بلا قتال ولما سمع صاحب صيدا بمسيره نحوه رحل عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فتسلمها صلاح الدين ساعة وصوله اليها وسار عنها من يومه الى بيروت وهي احسن مدن الساحل وانزهها واطيبها وراى اهلها قد صعدوا على سورها واظهروا القوة والجلد وقاتلوا على سورها قتالاً شديداً واغتروا بحصانة بلدهم وبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة واتاهم من اخبرهم ان المسلمين دخلوا المدينة من جهة اخرى فارسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة وارادوا تسكين من بالمدينة فلم يمكنهم ذلك وخافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع فارسلوا يطلبون الامان فامنهم صلاح الدين على نفوسهم واموالهم وتسلم المدينة وكانت مدة حصرها ثمانية ايام

واما جبيل فكان صاحبها من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جبيل على شرط اطلاقه وعرف بذلك صلاح الدين فاحضره مقيداً عنده ولما حضر سلم الى صلاح الدين حصنه واطلق الاسرى المسلمين الذين كانوا به فاطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من اعيان الفرنج واصحاب الراي والمكر وكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين

وكان صلاح الدين لما هزم الفرنج بطبرية ارسل يبشر اخاه العادل بمصر ويامره بالمسير الى بلاد الفرنج من جهة مصر فتسارع الى ذلك ونازل حصن مجدل بابا وحصره وغنم ما فيه وسار منه الى مدينة يافا فحصرها وملكها عنوةً ونهبها واسر الرجال وسبى الحريم وجرى على اهلها ما لم يجرَ على احد من تلك البلاد قال ابن الاثير ه كان عندي جارية من يافا وانا بحلب ومعها طفل سقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرًا فاعلمتها ان ليس بولدها ما يوجب البكا فقالت لست ابكي له بل ابكي لما جرى علينا كان لي ستة اخوة هلكوا كلهم وزوج واختان لا اعلم ما كان منهم هذا من امراة واحدة ٠

وبعد ان ملك صلاح الدين ما ملكه كان امر عسقلان والقدس اهم عنده لانهما على طريق مصر فيختار اتصال ولاياته ببعضها ليسهل خروج العسكر منها ودخوله اليها ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم له فسار من بيروت الى عسقلان واجتمع باخيه العادل ونازلا عسقلان وملك الفرنج مع صلاح الدين اسيرًا فقال له ان سلمت هذه البلاد اليَّ فلك الامان فارسل الملك الى من بعسقلان من الفرنج يامرهم بتسليم المدينة فلم يسمعوا امره فلما راى صلاح الدين ذلك جد في قتال اهل المدينة ونصب المنجنيقات وزحف مرة بعد الاخرى وتقدم النقابون الى السور وملكهم يكرر المراسلات اليهم وهم لا يجيبون الى ما يقول ولكن راوا انهم كل يوم يزدادون ضعفًا وان لا نجدة لهم ينتظرونها فراسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم صلاح الدين اليها وسيرهم صلاح الدين ونساءهم واولادهم واموالهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان (كل هذا خلاصة ما قاله ابن الاثير وغيره في هذه الاحداث)

وما قاله المؤرخون الفرنج لا يخالف ما قاله المورخون المسلمون فقد رووا ما ملخصه ان صلاح الدين اراد ان يستثمر الظفر الذي ناله فسار الحال الى عكا

وحصر هذه المدينة يومين فسلمت اليه وغنم ما كان في هذه المدينة الموعبة بسلع التجارة وما القاه انتصاره من الرعب في القلوب سهل له فتح نابلس واريحا والرملة وغيرها من المدن كقيسرية وارسوف ويافا وبيروت ولم يبق من مدن ساحل البحر بيد الفرنج الا صور واطرابلس وعسقلان وكان فتح عسقلان اهم عند صلاح الدين من فتح غيرها من المدن فحاصرها فوجد بها مناعة لم تكن له في الحسبان وقاتله اهلها شديد القتال وكان قد احضر معه ملك اورشليم فارسل بشير على اهل المدينة ان يستسلموا الى صلاح الدين فلا يجديهم دفاعهم فائدة وان يشفقوا على عيالهم ويحجبوا دماء النصارى ولما ضايقهم صلاح الدين واخذ النقابون يحفرون تحت الاسوار خرجت لجنة منهم فقالت لصلاح الدين لم نقدم اليك حباً بانفسنا بل شفقة على نسائنا واولادنا فما نفع حياة زائلة ونحن نتوقع حياة خيراً منها ولا نصل اليها الا بالموت فقد اولاك الله النصر على النصارى لكنك لا تدخل البتة عسقلان ان لم تشفق على عيالنا وتخلي سبيل ملكنا فكان لهذا الكلام وقع عظيم في قلب صلاح الدين واجاب الى شروطهم لكنه لم يخل سبيل ملك اورشليم الا بعد سنة (انتهى ملخصاً عن ميشود وروهربخر)

عـد ٨٣٨

في فتح صلاح الدين اورشليم

اليك ما قاله المورخون المسلمون ان صلاح الدين فتح بعد عسقلان الرملة وغزة والخليل وغيرها وكان قد اخرج من مصر الاسطول الذي بها فاقام في البحر يقطع الطريق على الفرنج وكل ما راوا مركباً غرقوه ثم سار الى بيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو اعظم شاناً من ملكهم وبه ايضاً باليان بن بيرزان (يسميه الفرنج باليان دي ابالين) صاحب الرملة ومن خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع اهل تلك النواحي وغيرها في القدس وكانوا

كانهم يرون الموت ايسر عليهم من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويرون ان بذل انفسهم ومالهم بعض ما يجب عليهم في سبيل حفظه وقد حصنوه في تلك الايام وصعدوا على سوره وعزموا على المناضلة دونه ولما قرب صلاح الدين من القدس تقدم امير من المسلمين في جماعة غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج فقاتلوه وقتلوه وجماعة ممن معه فاهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على القدس فراوا على اسواره ما هالهم وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين يقاتلها وعمد الى جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون ونصب المنجنيقات ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها واشتد القتال بينهم وكل يراه دينًا وحتمًا وكان خيالة الفرنج يخرجون كل يوم الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون وحمل المسلمون حملة رجل واحد فازالوا الفرنج عن مواقفهم وادخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الاسوار ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي وتمكن النقابين من النقب اجتمع مقدموهم يتشاورون في ما ياتون فاتفق رايهم على طلب الامان وتسليم المدينة الى صلاح الدين وارسلوا جماعة من كبرائهم في طلب الامان فامتنع السلطان من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهل هذا البلد حين ملكتموه ولما رجع الرسل خائبين ارسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فاجيب الى ذلك وحضر ورغب في الامان فلم يجبه صلاح الدين اليه واستعطفه فلم يعطف واسترحمه فلم يرحم ولما ايس من ذلك قال ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة خلق كثير وانما يفترون عن القتال رجاء انك تجيبهم الى الامان وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا راينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا تسبون وتاسرون

رجلاً ولا امراة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة الاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا عليكم كلنا مقاتلين قتال من يحمي دمه ونفسه وحينئذٍ لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نظفر كراماً

ولما سمع صلاح الدين هذا الكلام دعا اصحابه واستشارهم فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا تدرى عاقبته فاجاب صلاح الدين الى بذل الامان للفرنج واستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير غنياً كان ام فقيراً ومن المراة خمسة دنانير والطفل ديناران فمن ادى ذلك الى اربعين يوماً نجا ومن لم يؤدِ ما عليه صار مملوكاً فبذل باليان عن الفقراء ثلاثين الف دينار وسلمت المدينة ورفعت على اسوارها الاعلام الاسلامية ورتب صلاح الدين على ابوابها امناء من الامراء ياخذون من كل خارج منها ما فرض عليه فقسم الامناء الاموال وتفرقت ايدي سبا ولو اديت في ذلك الامانة لملأ الخزائن وعم نفعه وادعى جماعة من الامراء ان جماعة من اقطاعه مقيمون بالقدس فاطلقهم واخذ قطيعتهم وبعضهم كان يلبس الفرنج ذي المسلمين ويخرجهم وياخذ قطيعتهم واستوهب بعضهم من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم واخذوا ما عليهم وبالجملة فلم يصل الى خزينته الا القليل واطلق صلاح الدين ملكة القدس وسارت الى زوجها الذي كان محبوساً بقلعة نابلس وخرج البطريرك الكبير ومعه من اموال البيع منها الصخرة والاقصى ما لا يعلمه الا الله وكان له من المال مثل ذلك وقيل لصلاح الدين ان ياخذ ما معه ويقوي به المسلمين فقال لا اغدر به ولم ياخذ منه الا عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور

ورد صلاح الدين بعض ابنية القدس الى ما كانت عليه في ايام المسلمين وامر بتطهير المسجد والصخرة وبعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه

وترصيفه ومحو ما كان في تلك الابنية من الصور ونقل الى الصخرة المصاحف الحسنة والربعات الجيدة وباع الفرنج ما لا يمكنهم حمله من امتعتهم واموالهم بارخص الاثمان واما النصارى اهل القدس غير الفرنج فطلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من الاقامة في مساكنهم وياخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك (انتهى ملخصاً عن الكامل لابن الاثير)

واما المؤرخون الفرنج فرووا اخبار فتح صلاح الدين اورشليم كما رويناها عن المؤرخين المسلمين وقل ما زادوا عليها وما زادوه كان المورخون العرب اولى منهم بذكره فانهم أثنوا على سماحة صلاح الدين وكرم اخلاقه واشفاقه على الفقراء والمصابين بهذه النازلة من ذلك قولهم ان صلاح الدين عند رؤيته جمعاً من النساء والاطفال خارجين من القدس يبكون والديهم واولادهم وازواجهم الذين قتلوا او اسروا في وقعة حطين رق لهم ورد الى الامهات اولادهن والى النساء ازواجهن الذين كانوا بين الاسرى وقد راى ايضاً كثيرين تركوا امتعتهم وحملوا على ظهورهم بدلاً منها انسباءهم او اصحابهم العاجزين عن المشي فراقه عملهم واكثر جوائزه لهم وسمح للاسبتاليين ان يبقوا في المدينة للعناية بالزائرين وبمن اقعدهم مرضهم او مانع اخر عن الرحيل من المدينة ودفع الملك العادل اخو صلاح الدين فدية الفي اسير فاقتدى به السلطان اخوه وكسر اغلال كثيرين من الفقراء والايتام وقد اشار عليه بعض المسلمين ان يدك حينئذ كنيسة القبر المقدس وسائر الكنائس ليمنع النصارى من الحج الى القدس او من ان يتذرعوا بتكريمها الى الاستيلاء على هذه المدينة فأبى ان يخالفهم في بقاء الكنائس ولا سيما كنيسة القبر اقتداء بعمر بن الخطاب اذ ابقى هذه الكنائس للنصارى في صدر الاسلام وقال لو نقضنا البناء فلا يبرح النصارى يحجون الى محلها ونقضها يثير نصارى المشرق فينضمون الى نصارى المغرب واباح النصارى ان يستمروا على زيارتهم لهذه المعابد كما كانوا على شرط ان يأتوا الى القدس

دون سلاح وان يفوا ضريبته ما انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم

﴿ عـد ٨٣٩ ﴾

﴿ في حصار صلاح الدين لمدينة صور وفتحه بعض مدن غيرها ﴾

ان صلاح الدين بعد ان دبر امور القدس سار الى مدينة صور وهذا ما رواه المؤرخون المسلمون في ذلك قالوا ان انساناً من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش (وهو كونراد ابن المركيز دي مونتا فرانا السابق ذكره) خرج في البحر بمال كثير الزيارة والتجارة وارسى بعكا ولم يكن يعلم ان صلاح الدين اخذها وبلغه ان صور ما برحت بيد الفرنج فقصدها وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير ولم يكن لهم راس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم فقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذله ما معه من المال فولوه عليهم وكان شجاعاً بالحروب وقال في حقه ابن الاثير . كان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع في تحصين صور فجدد حفر خنادقها وعمل اسوارها وزاد في حصانتها واتفق من بها على حفظها والقتال دونها ، واتى صلاح الدين الى عكا واقام بها اياماً ولما سمع المركيش بوصوله الى عكا جد في عمل سور المدينة وعمق خنادقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الاخر حتى صارت المدينة كالجزيرة ورحل صلاح الدين من عكا وخيم بجانب صور وقسم القتال على عسكره فكانوا يتناوبون مثل ولده الافضل وولده الظاهر واخيه العادل وابن اخيه تقي الدين وكان للفرنج شواني وحراقات يركبون بها في البحر جانبي محل القتال فيقاتلون اهل البلد المسلمين من امامهم ويرمي عليهم اصحاب الشواني من جانبيهم فكثرت الجراحات والقتل في المسلمين ولم يتمكنوا من الدنو من البلد فارسل صلاح الدين عشر شواني جاءته من مصر فكانت في البحر تمنع شواني اهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب الى البلد فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار

بما لم يكن في الحساب وذلك ان خمس شواني من شواني المسلمين باتت ليلة مقابل
مينا صور ليمنعوا من الدخول اليها والخروج منها ولما كان السحر ناموا وما شعروا
الا وشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم وقتلوا من ارادوا قتله واخذوا الباقين
بمراكبهم وادخلوهم مينا صور ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشواني فمنهم
من سبح ونجا ومنهم من غرق وامر السلطان الشواني الباقية بالمسير الى بيروت
لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت وتبعتهم شواني الفرنج ولما راى المسلمون الفرنج
مجدين في طلبهم القوا نفوسهم من شوانيهم الى البر فنجوا ونقض صلاح الدين هذه
الشواني وعاد الى مقاتلة صور في البر وكان ذلك قليل الجدوى وفي بعض الايام
خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين واشتد القتال بين الفريقين ودام الى اخر النهار واسر
من الفرنج فارس كبير مشهور ولما راى صلاح الدين ان امر صور يطول رحل
عنها الى عكا (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير)

واليك ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك ان صلاح الدين بعد ان فتح كثيراً
من مدن الفرنج سار الى صور وحاصرها وضايقها وكاد يملكها لو لم يكن فيها كنراد
ابن المركيز دي مونتي فراتا الذي اسره صلاح الدين في وقعة حطين وكان كنراد
هذا قد اشتهر بحروبه بايطاليا مدافعة عن البابا من اعتداء الملك فريدريك بربا دوسا
(ذي اللحية الحمراء) ثم سار في كثير من الفرسان الى سورية سنة ١١٨٦ لمحاربة
المسلمين وعند مروره بقسطنطينية اخمد ثورة على اسحق ملك الروم وقتل رئيس
العصاة فلقبه الملك بقيصر وزوجه باخته فتركها في قسطنطينية وسار الى فلسطين
فوجد اهل صور عازمين على ان يستسلموا الى صلاح الدين فقوى قلوبهم وشجعهم
على القتال وولى امرهم فراسله صلاح الدين بانه يخلي سبيل ابيه ويقطعه ما شاء
من الاقطاع بسورية اذا فتح له ابواب صور وهدده بان يقتل اباه ان لم يذعن
لطلبه فاجابه مزدرياً بكل هبة من قبله وان مصلحة النصارى اهم عنده من حياة

ابيه واذا قتل المسلمون شيخاً استسلم في الحرب فيفتخر بانه ابن شهيد وبهمة كنراد وشجاعته وتدبيره لم يتمكن صلاح الدين من فتح صور مع بذله كل جده في ذلك وقد تمكن كنراد بعد ذلك ان يخلص والده من الاسر لان اهل صور اسروا احد الامراء المسلمين فاطلقه على شرط اطلاق ابيه وكان كذلك. وكان صلاح الدين عند فتحه تبنين كما مر اقام جماعة من جنده على قلعة هونين يمنعون من حمل الميرة اليها فلما كان يحاصر صور ارسل من فيها يطلبون منه الامان فامنهم ونزلوا منها ووفى لهم بامانهم

وكان لما سار الى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الاردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين وسير طائفة اخرى من العسكر الى قلعة صفد فحصروها وكان بعض الفرنج قد لجأوا الى هاتين القلعتين عند انكسارهم بحطين ففي ليلة كثر فيها الرعد والبرق والريح والمطر وثب الفرنج على المسلمين المحاصرين قلعة كوكب فقتلوهم جميعاً واخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا الى قلعتهم فقووا بذلك وامكنهم ان يحفظوا قلعتهم وخبر صلاح الدين بذلك فعظم عليه لاخذ شوانيه في صور واضطراره الى الرحيل عنها ورتب على حصن كوكب جماعة اخرى من الجنود فحصروها وفي سنة ٥٨٤ هـ سنة ١١٨٩ م سار صلاح الدين من عكا الى قلعة كوكب فحصرها ونازلها وكان يظن ان ملكها سهل فلما راها منيعة والوصول اليها متعذر سار منها الى دمشق وترك عليها من يستديم حصارها وحصار قلعة صفد والكرك لانه كان قد ملك كل البلاد الساحلية من عكا الى الجنوب ما عدا هذه الحصون وكان يود ان لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه اما الكرك فاستمر الملك العادل اخو صلاح الدين محاصراً لها حتى فنيت ازواد الفرنج بها واكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل يطلبون الامان فامنهم وتسلم القلعة وما يجاورها كالشوبك وغيرها واما قلعة صفد فعاد اليها

صلاح الدين بعد غزوته في الشمال وضايق اهلها وفرغ زادهم فارسلوا يطلبون الامان فامنهم وتسلم القلعة وساروا الى صور ثم حاصر قلعة كوكب وصبر الفرنج فيها حتى اخذ النقابون ينقبون بسورها فاستسلموا الى صلاح الدين فامنهم وتسلم القلعة منهم وساروا الى صور روى كل ذلك ابن الاثير وقال • اجتمع بصور من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل الى المغرب يستغيثون ويستنجدون والامداد كل قليل تاتيهم وكان ذلك بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندماً واسفاً حيث لم ينفعه ذلك

عد ٨٤٠

في غزوة صلاح الدين في شمالي سورية

نروي اخبار هذه الغزوة عن ابن الاثير الذي قال انه كان مع السلطان فيها سار صلاح الدين من دمشق سنة ٥٨٤ هـ سنة ١١٨٩ م ونزل على بحيرة قدس غربي حمص وطلب العساكر فاتته اولاً رجال عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين والخابور ثم تلاحقت الرجال من الموصل والجزيرة وغيرها وسار حتى نزل تحت حصن الاكراد فاقام يومين وسار بكتيبة من الفرسان فدخل الى بلاد الفرنج واغار على صافيتا والعريمة ويحمور حتى وصل الى قريب طرابلس وابصر البلاد وعرف من اين ياتيها واين يسلك منها ثم عاد الى معسكره تحت حصن الاكراد واتاه قاضي جبله وهو منصور بن نبيل وكان مسموع الكلمة وله الحرمة الوافدة عند بيمند امير انطاكية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها فاستدعى السلطان ليسلم جبلة اليه فسار صلاح الدين معه ونزل بانطرطوس (طرطوس) فاخلى الفرنج المدينة واحتموا في برجين حصينين فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم ونهبوا ما وجدوا ودكوا احد الحصنين بعد طلب المحاصرين به الامان والقوا حجارته في البحر وترك

صلاح الدين الحصن الاخر محفوراً ورحل الى مرقية وقد اخلاها اهلها وساروا الى المرقب وفيها حصن لا تحدث احداً نفسه بملكه لعلوه ومنعته واتفق ان صاحب صقلية من الفرنج سير نجدة في ستين شانية وكانوا بطرابلس ولما سمعوا بمسير صلاح الدين اتوا ووقفوا في البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام وكان هناك مضيق لا يسلك الا الواحد بعد الاخر ولما راى ذلك صلاح الدين امر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى اخره وجعل وراءها الرماة ليمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن اخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة وتسلمها صلاح الدين وقت وصوله وتحصن الفرنج بقلاعها وما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بالامان

ولما فرغ السلطان من امر جبلة سار عنها الى لاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها واحتموا بحصنين على الجبل فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين ونقبوا الاسوار وعظم القتال فايقن الفرنج العطب ودخل قاضي جبله فخوفهم فطلبوا الامان فامنهم صلاح الدين وكان اسطول صقلية الذي تقدم ذكره وصل الى اللاذقية ولما راى تسليم اهلها سريعاً حنق عليهم وطلب مقدم الاسطول الامان ليحضر عند صلاح الدين فامنه وحضر وقال انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونوا مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فاجابه صلاح الدين مزدرياً بكل من يجي من البحر وانهم ان خرجوا اذاقهم ما اذاق اصحابهم

وسار صلاح الدين عن لاذقية وقصد قلعة صهيون وهي منيعة شاهقة صعبة المرتقى فحصرها وضايق من فيها وتجلدوا بالقتال ولكن ارغموا اخيراً على طلب الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه اولاً ثم قرروا على انفسهم قطيعة كقطيعة اهل القدس فتسلم صلاح الدين الحصن فحصنه وجعله احصن الحصون ولما ملك

قلعة صهيون ثم فرق جنده في تلك النواحي فملكوا حصن بالاطنوس وحصن العيد وغيرها

وسار صلاح الدين عن صهيون الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس ونازل قلعة الشغر فراها منيعة وحصينة ورماها بالمنجنيقات فلم تصل الحجارة اليها وبقي المسلمون عليها اياماً لا يرون فيها مطمعاً وكان الفرنج الذين بها قد راسلوا بيمند امير انطاكية يستمدونه لانهم محصورون فلم يمدهم فسلموا القلعة الى صلاح الدين فاقام بها اميرًا اسمه قلج ورحل عنها الى قلعة برزية وهي تقابل حصن افاميا (ابامیا) وتناصفها في اعمالها وبينهما بحيرة من ماء العاصي وعيون تتفجر من الجبل وكانت هذه القلعة منيعة جدًا ولا يمكن ان تقاتل من جهة الشمال والجنوب اذ لا يمكن ان يصعد على جبالها من هاتين الجهتين فنصب صلاح الدين عليها المنجنيقات من جهة الغرب فلم يؤثر بها فامر بالزحف وقسم عسكره ثلاثة اقسام حتى كلما كل قسم استراح وزحف الاخر فاتعب الفرنج النهار كله واخيرًا اختلط المتقاتلون ودخلت طائفة من عساكر المسلمين مع الفرنج الى القلعة فملكوها وقتلوا واسروا من فيها

ورحل صلاح الدين الى جسر الحديد الذي على العاصي بالقرب من انطاكية وسار الى قلعة درب ساك ورماها بالمنجنيقات ثم زحف جنوده اليها وكشفوا الرجال عن سورها ونقبوا برجاً منها فسقط واستمد اهل القلعة بيمند فطال الوقت ولم يمدهم فطلبوا الامان من صلاح الدين فامنهم على شرط ان لا يخرج احد الا بثيابه بغير مال ولا سلاح ولا اثاث ثم اخرجهم وسيرهم الى انطاكية وسار الى قلعة بغراس وهي بالقرب من انطاكية فحاصرها وضايقها حتى طلب اهلها الامان فامنهم على شرط تامين اهل درب ساك

وعزم صلاح الدين على حصر انطاكية وخاف بيمند من ذلك فارسل الى

السلطان يطلب الهدنة وبدل اطلاق كل اسير مسلم عنده فاستشار صلاح الدين عماله في النواحي وغيرهم فاشار اكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الجنود ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون اليه واتفق صلاح الدين وبيمند على هدنة ثمانية اشهر اولها اول تشرين الاول واخرها اخر ايار واطلق بيمند الاسرى المسلمين وكان صاحب انطاكية حينئذ اعظم الفرنج شاناً واكثرهم ملكاً لان الفرنج كانوا قد سلموا اليه طرابلس وجميع اعمالها بعد موت ريمند صاحبها واقام بها ابنه وعاد صلاح الدين الى حلب ثم سار الى دمشق فدخل اول رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال العمر قصير والاجل غير مامون وقد بقي بيد الفرنج حصون كوكب وصفد والكرك فلا بد من اخذها وسار اليها واخذها كما مر في الفصل السابق

عد ٨٤١

في حملة الفرنج الثالثة على سورية

بعد ان ملك صلاح الدين اورشليم سير الفرنج وفوداً كثيرين الى المغرب يستنجدون ملوكه ولما بلغت هذه الاخبار المغرب عم الحزن والكآبة سكانه وكان البابا اوربانس الثالث في فرارا (بايطاليا) وكان شيخاً فاخذ الحزن به كل ماخذ حتى مرض ومات في ١٩ تشرين الاول سنة ١١٨٧ وفي ٢١ من الشهر المذكور انتخب البابا غريغوريوس الثامن واهتم للحال بانجاد الفرنج في المشرق وانفذ رسائل الى ملوك المغرب واساقفته يحضهم على اعانة اخوانهم واوفد رسلاً وقصاداً الى الممالك يعظون بذلك وسار الى بيزا ليصلح بين اهلها واهل جنوا وكانت هاتان المدينتان حينئذ متوفرة فيهما الثروة والقوة بحراً وبراً ولكن دهمته المنية هناك في ١٦ كانون الاول تلك السنة فانتخب للكرسي الروماني البابا اكليمنضس الثالث ومذ ارتقائه الى السدة الحبرية العظمى امر بتقديم التضرعات لله لايقاع السلم والصلح بين ملوك المغرب ولنجاة كنائس المشرق وارسل وفوداً الى الملوك والامراء ودعاة

يدعون الناس الى التجند لانجاد الفرنج في المشرق وكان في جملة هولاء الدعاة اسقف اسمه غوليلمس قال بعضهم انه غوليلمس اسقف صور صاحب التاريخ وقال غيرهم ان صاحب التاريخ كان قد مات من قبل وهذا غوليلمس اخر واسند هؤلاء رايهم الى قول احد مكملي تاريخ غوليلمس الصوري وايًا كان هذا فبعد ان اوقد نار الغيرة بايطاليا سار الى افرنسة وشهد اجتماعًا التقى به انريكس الثاني ملك انكلترا وفيليبوس اغوسطوس ملك افرنسة وكانت بينهما عداوة شديدة فخطب هذا الداعي خطبة حملت المجتمعين على التفجع واستنزفت الدموع من جميع العيون حتى قام الملكان المتحاربان وعانق احدهما الاخر وبكيا واتفقا ان يسيرا الى المشرق واتخذا حينئذٍ الصليب شعار الصليبيين وتبعهما كثيرون من الامراء والولاة والاعيان واجمع الامراء والاساقفة على فرض ضريبة سموها عشور صلاح الدين يتحتم بها على كل من لا يسير بهذه الحملة ان يودي عشر مدخوله وعشر قيمة اثاثه الى الناجين المقامة لجباية هذه الفريضة بموجب نظام سنوه لذلك واما ملك انكلترا فدعا اغنياء مملكته وامرهم ان يودوا عشر دخلهم ومن تردد عن ذلك القاه في السجن فنشأ عن ذلك بعض القلق ثم استؤنفت العداوة بين ملكي انكلترا وافرنسة واجتمعا بتحريض الاساقفة والاعيان في محل الاجتماع الاول فلم يتوافقا الى ان مات انريكس الثاني ملك انكلترا وخلفه ابنه ريشار الملقب بقلب الاسد سنة ١١٨٩ وتذكر يمين ابيه على انجاد نصارى المشرق فجد في التاهب لهذه الحملة فنشات في الانكليز حمية شديدة لتخليص الارض المقدسة لكنهم ابتداوا في اضطهاد اليهود فقتلوا جمًا غفيرًا في لندره ويورك فالحاجة الى المال في هذه المهام واحراز اليهود من ذلك العصر اكثر ثروة البلاد الساكنين بها كانا يحملان الناس متواترًا على الاستعانة باموالهم لسد الفاقة الماسة واجتمع ملك افرنسة وملك انكلترا وقررا ان يكون سفرهما بحرًا وفرضا نظامًا لتسيير الجنود بمقتضاه وفي جملته منع النساء من السفر الى فلسطين وحلف احدهما

للاخر على حفظ الامانة والصداقة ما داما حيين وقررا ان يسافر ملك افرنسة من جنوا وملك انكلترا من مرسيليا فسافر ملك فرنسا من جنوا في ٣٠ اذار سنة ١١٩١ وبلغ الى شواطي فلسطين في ١٣ نيسان من السنة المذكورة وسافر ريشار ملك انكلترا من مرسيليا الى مسينة في صقلية ثم سار من مسينة في ١٣ نيسان من تلك السنة فثار باسطوله عاصف شديد نسف ثلث شواني على ساحل لاميسون بقبرص ومن نجا من الغرق. وقع على الشاطي بداهية اقسى من العاصف فان اسحق كومنانس ملك الروم كان هناك وكانت قبرص من املاكه وقد حالف صلاح الدين فقبض على اوليك المساكين عند خروجهم من الماء والقاهم في السجن ليموتوا جوعاً ووصل الى هناك مركب اخر يقل اخت ريشار الملك وخطيبته بنت ملك نافارا فلم يؤذن لهما بالدخول الى المينا واذ اقبل الملك ريشار بعدة من شواني اسطوله خلصهما وطلب من ملك الروم اطلاق من سجنهم من الانكليز فابى بل هدد ملك الانكليز بان يعامله كذلك ان وضع رجله في جزيرته فاستشاط ريشار وامر بنزول عساكره الى البر فقتلوا كثيرين من الروم وهزموا الباقين وفي جملتهم ملك الروم ثم اوقعوا بالروم وقعة اخرى حتى اضطر ملك الروم ان يذعن لكل ما شرطه ملك الانكليز وحلف له يمين الامانة واقر له بتملك قبرس ولما مان بيمينه اسره وكبله بقيود من فضة وملك الجزيرة كلها ثم سار بحراً الى سورية فالتقى باحدى شواني المسلمين مشحونة بالرجال والاسلحة والزاد فغرقها بعد قتال شديد وبلغ الى عكا في ٨ حزيران سنة ١١٩١

واما المانيا فقد تكاثر وفود الفرنج من سورية اليها وارسل الحبر الروماني كثيرين من الرسل والدعاة الى نواحيها وهبت الحمية في اهلها بعد رقدتها واخذ ملكها فريدريك برباروسا (اي الاحمر اللحية) يتاهب للمسير الى الارض المقدسة وينتقي نخبة الرجال لحميته وقام قائد جيشه بجمع الآتين تحت رايته في راتيزبون

من عيد الميلاد الى نصف الصوم وسار الملك بحاشيته قرب عيد العنصرة سنة ١١٨٩
وقبل مسيره انفذ وفوداً الى الامراء النصارى والمسلمين الذين سوف يمر ببلادهم
حتى كاتب صلاح الدين وكان قد سبق له مخابرة معه فقال له في رسالته لا اقدر
ان ابقى صديقاً لك ومملكتي ثائرة عليَّ ان لم تتخلَّ عن اورشليم وترد خشبة
الصليب فلم يكن جواب صلاح الدين الا اعلاناً للحرب وكاتب ايضاً قليج ارسلان
سلطان قونية وكان اصحابه يقولون انه تابع لبدعة الفلاسفة ويظن في اوروبا انه تنصر
وقد حفظت رسالة من البابا اسكندر الثالث يشير عليه بها كيف يتدبر بامر تنصره
وكان ملك الروم قد تزلف الى ملك المانيا فارسل يخبره بمسيره في عسكره ويقال
ان ملك الروم اتفق حينئذٍ مع صلاح الدين على محاربة الفرنج . وعند اجتياز
الملك فريدريك بجيشه بالنمسا والمجر لم يلق الا التكريم وتقدمة الازواد لجيشه ولكن
لما بلغ بلغاريا اضطر جيشه ان يسير في الغابات ويتحمل المشاق والدفاع حتى قتل
البلغاريون من تخلف من الجيش او وجدوه مريضاً . ولما بلغ الملك فريدريك الى
فليبوبولي عرف ان الرسل الذين كان قد ارسلهم الى قسطنطينية طرحوا في السجن
ولم يخل سبيلهم الا بعد عدة اسابيع وعند عودهم الى المعسكر اخبروا بما راوا من
عزم الملك اسحق والروم على قطع الطريق على الصليبين فاخذ الملك فريدريك
ادرنة وكاليبولي وكل مدن الساحل وطلب من البندقية وانكونا وجنوا شواني كبيرة
وصغيرة لحصر قسطنطينية فذل حينئذٍ ملك الروم وتواضع ووقع على معاهدة بينه
وبين الملك فريدريك واذعن لكل ما طلبه هذا الملك منه وحلف اليمين في كنيسة
القديسة صوفيا هو واعيان مملكته على انه يحفظ كل ما وقع عليه من الشروط وقدم
رهائن لملك المانيا على صحة يمينه لكنه كتب الى صلاح الدين يقول ان حجاج المغرب
اصبحوا عاجزين عن المضرة به وانه قطع اجنحة انصارهم وكان سلطان قونية قد
ارسل رهائن لملك المانيا فامسكهم في قسطنطينية واجتاز الالمانيون البحر عند كاليبولي

وبلغوا اللاذقية باسيا الصغرى

وفي سفر الالمانيين من اللاذقية الى قونية رسائل عديدة كتبها من كانوا في ذلك العصر واختار ميشود رسالة كتبها احد المسافرين مع الملك فريدريك الى الحبر الروماني واثبت ملخصها ومنها يتبين ما قاسوه من المشاق في هذا السفر وما عانوه من الحرب وكانوا فيها ظافرين وما اصابهم من الجوع وحربهم مع قليج ارسلان سلطان قونيه واخذهم مدينته ولم يبقوا فيها الا يومين وساروا نحو بلاد النصارى فارسل امير ارمينية الى الملك فريدريك وفودًا يستعطفه ويعد بامداده وانجاده له على ان مسيرهم في طرق جبل طورس الوعرة ومضايقه المحفوفة بالمخاطر من كل جهة قد انهكهم واضناهم وانقص عديدهم وبلغوا بشق النفس الى اطراف كيليكيا وخيموا في جانب نهر فقيل ان الملك نزل يستحم به فغرق وقيل وقع في الماء وهو عابر النهر فانتشل منه ولا روح فيه فعظم المصاب وعمت الكآبة العسكر عن اخره وتولاهم اليأس فعاد بعضهم الى بلادهم وتاه بعضهم في البرية واسف جميع مؤرخي ذلك العصر كل الاسف على وفاة هذا الملك واذهلتهم اسرار العناية الربانية

وسار من بقي من العسكر والحزن ملؤ قلوبهم يحملون جثة من كان يحملهم على الشجاعة والنخوة واختاروا اميرًا عليهم فريدريك دوك دي سواب وانقسموا في سيرهم قسمين فريق اخذ طريق انطاكية وبلغوا اليها فاصابهم وباء اهلك كثيرين منهم وفريق سار في طريق حلب فوثب عليهم المسلمون وقتل من نجا منهم حتى ان هذا الجيش الذي سار من اوطانه وهو لا يقل عن مئة الف مقاتل لم يبلغ منه الى فلسطين الا نحو خمسة الاف مقاتل سنة ١١٩٠ واما جثة فريدريك ملكهم فمن قائل انها دفنت في انطاكية ومن قائل بل دفنت في صور (انتهى ملخصًا عن كثيرين من مشاهير المؤرخين) واستعظم ابن الاثير حملة الافرنج هذه وشدة حميتهم وغيرتهم وتوافر عديدهم وقال في ملك الالمان خاصة ٥ ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين

واهلك ملك الالمان لما خرج على الشام والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين . واثبت ان ملك الروم اخبر صلاح الدين بقدوم الالمان ووعده انه لا يمكنهم من العبور بلاده ولما وصل ملكهم عجز عن منعه ووجدت رسالة من صلاح الدين الى الخليفة ببغداد يتبين منها هلعه وشكواه من كثرة الفرنج الوافدين في كل يوم الى الشام وقال انه كلما قتل واحدًا منهم اتى الف

عد ٨٤٢

في حصار الفرنج عكا

ان صلاح الدين كان قد ابقى لوسينيان ملك اورشليم مكبلاً بقيوده ولما اخذ الكرك وحصني كوكب وصفد خلى سبيله بعد ان اكرهه على ان يحلف يميناً بالانجيل على انه يتخلى عن ملك اورشليم ويسير الى اوروبا فاستفتى لوسينيان العلماء في يمينه فافتوه انها لا تلزمه لصدورها عن اكراه ولان الحيلة تدفع بحيلة ولان صلاح الدين كان قد حلف لاهل عسقلان ان يطلق ملكهم فلم يطلقه حينئذٍ وكان صلاح الدين نفسه يعلم ان ملك اورشليم لا يبرّ بيمينه ولم يطلقه الا لخوفه من ان يختار الفرنج ملكاً اشد باساً منه او لامله ان يختلفوا في اقامة ملك عليهم واتى لوسينيان الى صور فلم يشأ كنراد الذي كان قد حفظها وملكها ان يعرفه ملكاً فطاف لوسينيان في ملكه يصحبه بعض الامناء له فجهز نحوًا من تسعة الاف مقاتل واتى فحاصر عكا وهذا ما قاله المورخون المسلمون في ذلك في تاريخ سنة ٥٨٥ هـ سنه ١١٩٠ م قد اجتمع في صور خلق كثير من الفرنج ووصل منهم في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا الى عكا ونازلوها وضايقوها واحاطوا بسورها من البحر الى البحر ولم يبق للمسلمين اليها طريق فسار اليهم السلطان صلاح الدين وقاتلهم وحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان عليهم فازالهم عن موقفهم والتزق بالسور وانفتح الطريق الى المدينة فادخل السلطان عسكرًا اليها نجدة وبقيت الحرب سجالاً ثم صافوا

السلطان وحملوا على قلب جيش المسلمين فازالوه واخذوا يقتلون في المسلمين الى
ان بلغوا خيمة السلطان فانحاز الى جانب وانضاف اليه جماعة وعطف على الفرنج
الذين خرقوا القلب فافنوهم قتلاً وكانت قتلاهم نحو عشرة الاف نفس وانهزم
بعض المسلمين عند خرق القلب ووصل بعضهم الى طبرية وبعضهم الى دمشق
وحصل للسلطان قولنج فاشار عليه الاطباء بالانتقال من ذلك المحل فرحل عن عكا
الى الخروبة فتمكن الفرنج من حصر المدينة وانبسطوا في تلك الارض ووصل
اسطول المسلمين الى عكا وتمكن من ازال عسكر اليها ووصل الملك العادل اخو
السلطان بعسكر مصر فقويت قلوب المسلمين

ثم دخلت سنة ٥٨٦ هـ سنة ١١٩١ م وعاد السلطان من الخروبة الى عكا
وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلثة ابراج من خشب وشحنوها بالسلاح
والمقاتلين فتحيل المسلمون واحرقوا البرج الاول والحقوا به البرجين الاخرين
ووصل الى السلطان العساكر من كل البلاد وكان ملك الالمان سار من بلاده بمائة
الف مقاتل واهتم المسلمون لذلك وايسوا من الشام بالكلية فسلط الله على الالمان
الغلا والوبا فهلك اكثرهم في الطريق ولما وصل ملكهم الى بلاد الارمن نزل في
نهر هناك يغتسل فغرق واقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره جماعة الى بلادهم ولم
يصل منهم الى عكا غير تقدير الف مقاتل مع ابن ملك الالمان (الذي في كتب
الفرنج ان انريكس السادس ابن فريدريك ملك المانيا لم يسر الى فلسطين والذي
سار في الالمان الى عكا انما هو فريدريك دوك سواب) وكثرت المناوشات بين
السلطان والفرنج على عكا وخرجوا ذات يوم من خنادقهم بالفارس والراجل
وازالوا الملك العادل عن موضعه فعطف عليهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً
فعادوا الى خنادقهم ولولا مغص اصاب السلطان لكانت هذه الوقعة هي الفيصلة
وقوي الشتاء واشتدت الرياح فارسل الفرنج مراكبهم عن عكا الى صور خوفاً عليها

ان تتكسر فانفتحت الطريق الى عكا في البحر وارسل البدل اليها فكان الخارجون منها اضعاف الداخلين اليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل

وفي سنة ٥٨٧ ﻫ سنة ١١٩٢ م احاط الفرنج بعكا من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقاً فلم يتمكن السلطـان من الوصول اليهم واشتد حصارهم لعكا وطال وضعف من بها عن حفظها وعجز صلاح الدين عن كف العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين علي بن المشطوب وطلب الامان من الفرنج على مال واسرى يقومون به للفرنج فاجابوهم الى ذلك وظهرت اعلام الفرنج على عكا وحبسوا المسلمين في اماكن من البلد وقالوا انما نحبسهم ليقوموا بالمال والاسرى وصليب الصلبوت (خشبة الصليب التي كان المسلمون اخذوها) وكتبوا الى صلاح الدين فحصل ما امكن تحصيله من المـال وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوه الى ذلك وقتلوا كثيرين منهم واستمروا بالباقين في الاسر وبعد تقرير امر عكاء رحل الفرنج عنها الى قيسارية (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم ولا سيما ابو الفداء)

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك ان الفرنج اخذوا في حصار عكا في غاية اب سنة ١١٨٩ ودام الحصار نحو سنتين وكان مع لوسينيان عند اول حصارها نحو تسعة الاف مقاتل ثم وصلت شواني اهل بيزا (بايطاليا) واحتلوا على شاطي البحر وفي اليوم الثالث بعد وصولهم هاجموا المدينة واقاموا السلالم على الاسوار واوشكوا ان ياخذوها حينئذٍ لولاء شيوع الخبر بوصول صلاح الدين والانكفاف عن وثبتهم رهبةً وذعراً ثم راوا اسطولاً مقبلاً فاذا به اثنا عشر الف مقاتل من فريز والدانيمرك واسلحة وازواد وتلا هذا الاسطول اسطول اخر يقل كثيرين من انكلترا وفلاندرا وعرف صلاح الدين بكثرة نجدات الفرنج فترك غزوته في فونيقي وسار الى عكا وحل على جبل قريب اليها وهاجم المسلمون الفرنج مرات فلم يستطيعوا ان يزيلوهم عن مواقفهم فضرب صلاح الدين مصافاً عاماً وارغم الفرنج ان يتركوا

موقفهم في شمال المدينة واتصل الى اسوار المدينة واخذ بعض حرسها وحصر الفرنج في معسكرهم ورتب المدينة واقام فيها نخبة من رجاله وعاد الى معسكره وحفر الفرنج خنادق حول معسكرهم فهال ذلك المسلمين وروعهم وفود مراكب الفرنج كل يوم واتى حينئذ الصليبيون من مدن ايطاليا ثم من شمبانيا وغيرها من اعمال افرنسة ثم من المانيا وجهز كنراد مركيس صور اسطولاً وعسكرًا وانضاف الى الصليبيين حتى كان حول عكا اكثر من مائة الف مقاتل ولم يكن ملكا افرنسة وانكلترا وصلا بعد فاشار على صلاح الدين بعض حاشيته ان يتنحى من وجه هذا الجيش العرمرم وكان مصاف في السهل الفسيح الكائن بين المعسكرين وكان الافرنسيون والفرسان الاسبتياليون بامرة ملك اورشليم وكتاب الانجيل يحمله اربعة فرسان امامه وكان البنادقة واللمبرديون وعسكر صور على ميسرة الجيش وكان في القلب الالمانيون والبيزاويون والانكليز وكان رئيس فرسان الهيكل وغيره مع العسكر المستحفظ الذي يسير حيث تدعوه الحاجة واصطف امامهم المسلمون فكسرت في اول كرة ميسرة جيش المسلمين التي كانت بامرة تقي الدين ابن اخي السلطان وبلغ بعض الفرنج الى خيمة صلاح الدين وانهزم كثير من المسلمين حتى طبرية وفر العبيد من معسكر المسلمين وانتهبوا ما كان فيه على ان الفرنج اشتغلوا بالنهب عن القتال وتشتتوا فعطف عليهم المسلمون وقتلوا كثيرين منهم ودنا فصل الشتاء فاشار على صلاح الدين امراء جيشه ان يريح عسكره ويستريح هو مدة فرضي صلاح الدين فاقام مع عسكره في المحل المدعو الخروبة

فحسب الفرنج هذه العزلة عن الحرب خوفاً وانبسطوا في انحاء عكا وحصنوا في هذه المدة مواقفهم واصطنعوا ثلثة ابراج من خشب ولما انقضى الشتاء عاد صلاح الدين من الخروبة ومعه عساكر الجزيرة وسورية وعادت نار الحرب تتاجج فاحرق المسلمون الابراج المذكورة وبعد مغالبات كثيرة بين الفرنج والمسلمين ووصل ملك

انكلترا وملك افرنسة وبقايا عسكر ملك المانيا الى عكا ارتاع المسلمون وضايقهم الفرنج واصاب صلاح الدين مرض اعجزه عن ان يشهد الحرب مع جنوده فطلب المسلمون الامان فاجابهم الفرنج اليه وتسلم الفرنج عكا في ١٣ تموز سنة ١١٩١ بعد حصارها نحو سنتين وكان من شروط الصلح ان يطلق صلاح الدين الاسرى النصارى ويطلق الفرنج الاسرى المسلمين وان يدفع الى الفرنج مايتي الف دينار وان يرد عليهم خشبة الصليب وانقضى زمان ولم ينجز صلاح الدين وعده فهدده الفرنج بقتل المسلمين الذين في حوزتهم ان اخلف وعده ولما لم يجبهم الى طلبهم اخذوا الفين وسبعماية اسير وقتلوهم قرب محلة صلاح الدين فخرج عليهم المسلمون وقاتلوهم ولم تكن جدوى من قتالهم وقد ذكر المؤرخون المسلمون قتل هولاء الاسرى وسموهم شهداء ولما راى صلاح الدين انه لا بد من استئناف الفرنج الحرب وخشي زيادة الانخذال خلى سبيل الفي اسير من الفرنج ودفع اليهم مئتي الف دينار ورد عليهم خشبة الصليب

وفي مدة حصار عكا ماتت سيبليا بنت اموري الملك وزوجة لوسينيان ملك اورشليم وتوفي ولداها فكان ذلك سبباً للخلاف بين الفرنج فان كونراد والي صور تزوج بايزابال اخت الملكة خلافاً لرسوم الكنيسة لانها كانت مزوجة وادعى الملك واراد خلع لوسينيان وكان لكل منهما محازبون وكان في اخر الامر ان ريشار ملك انكلترا اعطى لوسينيان تبرس وسماه ملكاً عليها وقام هو في مقام ملك اورشليم وكان ملكا افرنسة وانكلترا يظهر احدهما الوداد للاخر في اول الامر ثم وقع بينهما التحاسد والغيرة ومرض فيليب ملك افرنسة فحمله مرضه والتحاسد بينهما على العود الى ملكه فعاد في اخر تموز السنة المذكورة وترك من جنوده عشرة الاف مقاتل بامرة اوغو الثالث دوك بركونيا فمات هذا الدوك في صور السنة التالية اي سنة ١١٩٢ وبقي ريشار ملك انكلترا وحده على امرة الصليبين (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم)

عـد ٨٤٣

في المدن التي اخذها الفرنج من المسلمين بعد فتح عكا

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك ان الفرنج بعد تقريرهم امر عكا ساروا نحو يافا فضايقهم المسلمون في مسيرهم وارسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقتهم فاسروا جماعة وقتلوا جماعة وعاد ملك الانكليز الى الساقة فحماها وجمعها فاخذ الفرنج قيسارية وساروا منها الى ارسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها وحملوا عليهم عند وصولهم اليها حتى الحقوهم بالبحر فاجتمع الفرنج وحملت فرسانهم على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوى احد على احد ووصلوا الى سوق المسلمين وقتلوا من السوقة وغيرهم خلقاً كثيراً ثم سار الفرنج الى يافا وقد اخلاها المسلمون فملكها الفرنج ثم راى صلاح الدين تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها مما حصل لعكا فسار اليها واخلاها وخربها ورتب الحجارين في تعليق اسوارها فدكها الى الارض ثم خرب حصن الرملة وخرب كنيسة لد ثم سار الى القدس ورتب اموره وعاد الى مخيمه بالنطرون ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك انكلترا ويكون للملك العادل القدس وكل ما بيد المسلمين من الشام ويكون لامرأته عكا وكل ما بيد الفرنج فانكر القسيسون على اخت الملك ذلك الا ان يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الفرنج من يافا الى الرملة على عزم ان يفتحوا القدس وكان في كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات وعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين بالنداء واقبل الشتاء وحالت الاوحال والامطار بينهما واعطى صلاح الدين الدستور لعسكره ليستريحوا وسار هو الى القدس واخذ في تحصينها وتجديد ما رث منها وكان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر وسار الفرنج من الرملة الى النطرون

قاصدين القدس وكانت بينهم وبين المسلمين وقعات اسر في وقعة منها نحو خمسين فارساً من مشهوري الفرنج وعاد الفرنج الى الرملة لقطع المسلمين طريق الميرة عنها

وفي سنة ٥٨٨ هـ سنة ١١٩٣ م رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس وكان قتال شديد بينهم وبين المسلمين فاستولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى القدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة ولم يكن عند صلاح الدين الا بعض العساكر المصرية ولما سمع صلاح الدين بقربهم فرق ابراج البلد على امرائه وسار الفرنج من بيت نوبة الى قلونية وهي على فرسخين من القدس فصب المسلمون عليهم البلاء فعلم الفرنج انه اذا نازلوا القدس كان الشر اليهم اسرع والتسلط عليهم امكن فرجعوا القهقرى ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها وقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم واسروا وغنموا وعلم الفرنج ان بعض امراء صلاح الدين عادوا اليه ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار واجتمعت العساكر بدمشق وايقن الفرنج ان لا طاقة لهم بها اذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على فتح بيروت فامر صلاح الدين ولده الافضل ان يسير اليها في العساكر الشرقية معارضاً للفرنج في مسيرهم الى بيروت وخيم الافضل بمرج عيون فلما بلغ الفرنج ذلك اقاموا بعكا ولم يفارقوها

ولما رحل الفرنج الى عكا سار صلاح الدين الى يافا في عسكر حلب وغيرها فنازلها وملكها عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وزحفت العساكر الى القلعة وقاتلوا عليها اخر النهار وكادوا ياخذونها فخرج البطريرك وعدة من الفرنج ووعدوا المسلمين ان يسلموا اليهم القلعة بكرة غد ولما كان الصباح اتتهم نجدة وادركهم ملك انكلترا فاخرج من يافا من المسلمين وبرز الى ظاهر المدينة واعترض

المسلمين وحمل عليهم فلم يتقدم احد اليه وعاد صلاح الدين الى الرملة لينظر ما يكون من الفرنج فلزموا يافا ولم يبرحوا منها

وفي هذه السنة قتل كونراد صاحب صور والذي رواه ابن الاثير ان صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان ليرسل من يقتل ملك الانكليز وان قتل المركيز صاحب صور فله عشرة الاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك الانكليز او لم يره سنان مصلحة ليلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ للاسماعيلية فعول الى قتل المركيس وارسل رجلين بزي الرهبان فقتلاه ولما قتل ولي صور بعد كند (كنت) من الفرنج في داخل البحر يقال له الكند هنري

واما رواية المورخين الفرنج لاخبار هذه الاحداث فلا تختلف جوهرًا عن رواية المؤرخين المسلمين لها ومع ذلك نورد ما رووه بما امكن من الايجاز تحقيقاً للاخبار وطمعاً بالفائدة من زيادة التفصيل قالوا ان النصارى بعد ان قرروا امر عكا ساروا نحو يافا وعدد جيشهم نحو مائة الف مقاتل بامرة ريشار ملك انكلترا وكان لهم في مسيرهم مناوشات مع المسلمين الذين ما انفكوا يرمونهم بالسهام ويقطعون الطرق عليهم ولم يكن عسكر الفرنج يتمكن من ان يسير اكثر من ثلثة فراسخ في اليوم ولما دنوا من قيسارية اصاب سهم الملك ريشار بفخذه وكان مسيرهم والبحر على يمينهم وعن شمالهم الجبل مشحون بجنود المسلمين وبعد ان عبروا غابة ارسوف وجدوا في الصحراء هناك مئتي الف مقاتل من المسلمين فاستعد الملك ريشار لقتالهم دون ان يتوقف عن المسير فامر جنده ان لا يتجاوزوا حد الدفاع الا ان يعليهم بالهجوم ثم الحم بعض الفرسان الكماة الحرب فحمي وطيسها بين الجميع وكان الملك ريشار يتسارع الى حيث يرى حاجة اليه وكان القتال شديدًا والقسطل حالكاً وقد دنا المتحاربون بعضهم من البعض حتى قتل كثيرون من الفرنج بايدي الافرنج انفسهم لظنهم انهم مسلمون ودارت الدوائر على المسلمين

حتى روى بهاء الدين المؤرخ المسلم الذي كان في هذه الحرب انه لم يجد حول صلاح الدين الا سبعة عشر مملوكاً من مماليكه وسار الفرنج نحو ارسوف فاتى بعض المسلمين ووثبوا على ساقة جيشهم فعاد ريشار اليهم وشتت شملهم وخسر صلاح الدين في هذه الحرب ثمانية الاف مقاتل والفرنج الفاً ولما راى صلاح الدين ان بعض الحصون الباقية بيده لا تحتمل شدة وثبات الفرنج وان الرعب استحوذ على قلوب جنوده فلا يمكنهم حفظها عمد على دكها كما رواه المورخون المسلمون

ووقع في هذه الاثناء ريشار ملك انكلترا بخطر ذلك انه سار للصيد في غاب سارون ونام في ظل شجرة فاسرعت شرذمة من المسلمين لقتله او اسره فعلا جواده واخذ يدافع عن نفسه واحتاطه الاعداء من كل جهة فصاح احد الفرسان من تبعته سماه المورخون غوليلمس براتل باللغة العربية انا الملك فانقذوني فانكف الاعداء عن الملك واحاطوا بهذا الفارس واسروه واتوا به الى صلاح الدين فارسله الى دمشق ففداه الملك بعشرة امراء من امراء صلاح الدين كانوا اسرى عند الفرنج

وبعد ان ملك الفرنج يافا وجددوا اسوارها قصدوا اورشليم لكنهم راوا انه لابد لهم قبل ذلك من ان يحصنوا اسوار بعض المدن وشرعوا في تحصين عسقلان وصادق هولاء المؤرخون على ما رواه المؤرخون المسلمون من محاولة الفرنج حينئذٍ فتح اورشليم واكراههم على الرجوع عن قصدهم وعودهم الى يافا ثم مسيرهم الى عكا واستيلاء صلاح الدين على يافا وعود الملك ريشار بحراً اليها وطرده المسلمين من المدينة وانتصاره على صلاح الدين في ظاهرها

ومما رواه المورخون الفرنج انه بينما كان الملك ريشار في عسقلان اتته الاخبار بان اخاه يوحنا يغدر به ويريد اخذ ملكه منه فجمع رجال مشورته وانبأهم بما كان وعالنهم بان مصلحة ملكه تضطره الى ترك المشرق وقال ان تركت فلسطين تركت فيها ثلث مئة فارس والفي رجل من نخبة جيشي فاسف جميعهم لاضطراره ان يبرح

فلسطين في هذه الحال وسالوه ان يختار قبل سفره ملكاً لاورشليم يجمع القلوب اليه ويزيل الخلاف فقال من ترون اهلاً لذلك فاجمع رايهم على المركيس كنراد والي صور ولم يكن الملك يحبه بل كان يقدر شجاعته ودربته حق قدرهما فرضيه وارسل ابن اخيه كنت شمبانيا يبشره بذلك وكان كنراد عقد سرّاً مع صلاح الدين معاهدة واتفقا معاً فدهش من اختيار ريشار له ملكاً ولم يقدر ان يخفي سروره ولكي يبرىء نفسه ويظهر ورعه رفع عينيه الى السماء فقال « الهي ملك الملوك مر بتويجي ملكاً ان رايتني اهلاً والا فابعد عن راسي هذا الاكليل » وبعد ايام قليلة كان مقتل كنراد كما ذكره المؤرخون العرب ووقعت انظار اهل صور على هنري كنت شمبانيا وكان هنري نسيباً لريشار ملك انكلترا وفيلب ملك افرنسة وسالوه ان يملك فيهم وان يتزوج ارملة كنراد ازبال بنت الملك اموري وقدمت له ازبال نفسها مفاتيح مدينة صور فتزوجها وعرفه الفرنج ملكاً عليهم واثبته ريشار وتخلى له عن كل ما اخذه في فلسطين ورأى ريشار ان مصلحة مملكته تقضي عليه بالرجوع اليها ورأى صلاح الدين انه لا طاقة له على حرب الفرنج وريشار الملك فعزم الفريقان على عقد هدنة بالشروط الآتي ذكرها وسار ريشار عائداً الى بلاده وكان نجاحه في المشرق واساته الى كثيرين من الفرنج في سورية قد جلا له اعداء في كل مملكته ولذلك لما قذفت الريح شوانيه في دلماسيا قبض عليه ليوبولد دوك النمسا واراد ان يبيعه وتقدم اعداؤه لشرائه ولا سيما انريكس السادس ملك المانيا فانتصر له الحبر الروماني وحرم كل من يهينه فخلى سبيله وعاد الى ملكه (انتهى ملخصاً عن كثيرين وبعضهم من الشهود العيانيين)

عـد ٨٤٤

في الهدنة التي عقدت بين الفرنج والسلطان صلاح الدين

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ٥٥٨ ﻫ سنة ١١٩٣ م عقدت هدنة بين

السلطان صلاح الدين وملك الفرنج وسبب ذلك ان ملك الانكليز كاتب الملك
العادل يساله الدخول على السلطان في الصلح فلم يجبهم السلطان الى ذلك ثم اتفق
راي الامراء على ذلك لطول اليكاد وضجر العساكر ونفاذ نفقاتهم فاجاب السلطان
الى ذلك واستقر امر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان الموافق اول ايلول
وتحالفوا على ذلك في يوم الاربعا الثاني والعشرين من شعبان (٥ ايلول) ولم
يحلف ملك الانكليز بل اخذوا يده وعاهدوه واعتذر بان الملوك لا يحلفون وقنع
السلطان بذلك وحلف الكند (الكنت) هري (هنري) ابن اخيه وخليفته
في الساحل وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج واستحلفوا الملك العادل اخا
السلطان والملك الافضل والظاهر ابني السلطان والملك المنصور صاحب حماه محمد
بن تقي الدين عمر والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص والملك الامجد بهرام شاه
صاحب بعلبك وغيرهم من الامراء والمقدمين الكبار وعقدت هدنة عامة في البحر
والبر وجعلت مدتها ثلث سنين وثلثة اشهر وعن ابن الاثير ثمانية اشهر وكانت الهدنة
ان يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وعكا وعملها وحيفا
وعملها وان تكون عسقلان خراباً واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في عقد
هدنته واشترط الفرنج دخول صاحب انطاكية وصاحب اطرابلس في عقد
هدنتهم وان تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين فاستقرت القاعدة على
ذلك واذن السلطان للفرنج في زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا ثم رحل السلطان
الى القدس وتفقد احواله وامر بتشييد اسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها
بالقدس وهذه المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصند (سنت) حنه يذكرون ان
فيها قبر حنه ام مريم ثم صارت في الاسلام دار علم قبل ان يملك الفرنج بالقدس
ولما ملكوا القدس اعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام فلما فتح السلطان القدس
اعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها الى القاضي بهاء الدين بن شداد ولما استقر

امر الهدنة ارسل ماية حجار لتخريب عسقلان وان يخرج من بها من الفرنج ورحل السلطان عن القدس الى نابلس ثم الى بيسان ثم الى كوكب ثم الى طبرية ثم الى بيروت ووصل الى خدمته بيمند صاحب انطاكية فاكرمه السلطان وسار الى دمشق وفرح الناس به واقام العدل والاحسان بدمشق واعطى العساكر الدستور (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء)

وقد وافق المؤرخون الفرنج المؤرخين المسلمين على ذلك وقالوا ان مدة الهدنة ثلث سنين وثمانية اشهر كما ذكرها ابن الاثير وان القدس يكون بابه مفتوحاً لزيارة الفرنج يحجون اليه دون سلاح وان مدن الساحل من يافا الى صور تكون بيدهم وكان كل من الفريقين يدعي عسقلان وقر الامر اخيراً ان تكون خراباً وحلف رؤساء جيش المسلمين على القرآن ورؤساء جيش الفرنج على الانجيل وصادقوا على ان ريشار الملك لم يحلف بل اخذ يد المفوضين بعقد الهدنة . وبعد استقرار الهدنة سار من الفرنج من قصدوا العود الى اوروبا يحجون الى القبر المقدس الذي لم يتمكنوا من انقاذه فدخلوا المدينة افواجاً دون سلاح وبذل صلاح الدين مجهوده في رعاية حق الضيافة لهم وارسل الملك ريشار اسقف سالسبوري ليحج عنه فعامله صلاح الدين بالتجلة والتكريم وحدثه ملياً في شان الحرب المقدسة

عـد ٨٤٥

في وفاة السلطان صلاح الدين ومن ملك بعده

كان صلاح الدين بعد عقد الهدنة مع الفرنج تحسن له نفسه ان يغزو الى اسيا الصغرى وياخذ ما فيها للمسلمين وملك الروم ويفتح قسطنطينية ويطرق الى الفرنج بلادهم فانه كان يألف التعب ويانف الراحة وخرج الى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوماً وعاد ثم خرج لملتقى الحجاج ورجع بين البساتين الى القلعة وكانت هذه اخر ركباته فقد اصابته حمى واخذ المرض في التزايد وقصده الاطباء فلم تنجع

به ادواؤهم وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته وتوفي ليلة السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ سنة ١١٩٤ م ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها ثم عمل الملك الافضل تربة قبالة الجامع وكانت داراً لرجل صالح ونقل رفاته اليها سنة ٥٩٢ هـ سنة ١١٩٧ م وكان مولد صلاح الدين بتكريت سنة ٥٣٢ هـ سنة ١١٣٨ م فيكون عمره عند وفاته ٥٧ سنة هجرية وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو اربع وعشرين سنة وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة وكان اكبر اولاده الافضل نور الدين ملك بدمشق بعده والبنت تزوجها بعد وفاته ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ولم يخلف صلاح الدين في خزائنه غير سبعة واربعين درهماً وهذا دليل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً وقيل انه قبل وفاته امر احد امرائه ان يطوف بدمشق بكفنه منادياً هذ ما ياخذه صلاح الدين فاتح المشرق من فتوحه وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب اصحابه يسمع من احدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وكان طاهر المجلس فلا يذكر احد في مجلسه احداً الا بالخير

ولما توفي صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها ولده الملك الافضل نور الدين علي وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان وبحلب ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقيه الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه من انسابه وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه الى غير هؤلاء والملك الافضل هو الاكبر من اولاد السلطان صلاح الدين والمعهود اليه بالسلطنة واستوزر ضيا الدين ابن الاثير مصنف المثل السائر وهو اخو عز الدين ابن الاثير

مؤلف التاريخ المسمى بالكامل فحسن للملك الافضل طرد امراء ابيه ففارقوه الى اخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب ولما اجتمع اكابر الامراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد في السلطنة ووقعوا في اخيه الافضل ملك دمشق فمال الى ذلك وحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل والعزيز

عد ٨٤٦

في بعض الاحداث الى نهاية هذا القرن

في سنة ٥٩٠ هـ سنة ١١٩٥ م استحكمت الوحشة بين الاخوين العزيز صاحب مصر والافضل صاحب دمشق ابني صلاح الدين فسار العزيز في عسكر من مصر وحصر اخاه الافضل بدمشق فارسل الافضل يستنجد عمه العادل واخاه الظاهر صاحب حلب وابن عمه الملك المنصور صاحب حماه فساروا الى دمشق واصلحوا بين الاخوين ورجع العزيز الى مصر ورجع كل ملك الى بلده واقبل الملك الافضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الاغاني والاوتار ليلاً ونهاراً واشاع ندماؤه ان عمه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه خفية وفوض الافضل امر المملكة الى وزيره ضياء الدين ابن الاثير الجزري يديرها برايه الفاسد ثم اظهر الافضل التوبة عن ذلك وازال المنكرات وواظب على الصلوات وشرع في نسخ مصحف بيده

وفي سنة ٥٩١ هـ سنة ١١٩٦ م عاود الملك العزيز صاحب مصر قصد الشام ومنازلة اخيه الملك الافضل فسار نحو دمشق فاضطرب عليه بعض عسكره وفارقوه فعاد الى مصر بمن بقي معه وكان الملك الافضل قد استنجد بعمه الملك العادل فلما رحل اخوه العزيز الى مصر تبعه الملك الافضل والملك العادل ومن انضم اليهما طالبين مصر فساروا حتى نزلوا على بلبيس وقد ترك العزيز فيها جماعة من الصلاحية فقصد الملك الافضل مناجزتهم بالقتال فمنعه عمه الملك العادل وقصد الافضل المسير الى مصر والاستيلاء عليها فمنعه عمه العادل ايضاً وقال مصر لك متى

شئت وكاتب العادل العزيز بالباطن وامره بارسال القاضي الفاضل ليصلح بين الاخوين فاصلح بينهما واقام الملك العادل عند العزيز بمصر وعاد الافضل الى دمشق ولزم الزهد والقناعة وترك الامر لوزيره المذكور فكثر شاكوه وقل شاكروه

وفي سنة ٥٩٢ هـ سنة ١١٩٧ م بلغ الملك العادل والملك العزيز بمصر اضطراب الامور على الملك الافضل بدمشق فاتفقا على ان ياخذا دمشق من الافضل ويسلمها العزيز الى العادل لتكون الخطبة والسكة للملك العزيز بسائر البلاد كما كانت لابيه صلاح الدين فخرجا من مصر حتى نزلا على دمشق وكان الملك الافضل قد حصنها وكاتب الملك العادل بعض الامراء من داخل البلد وصاروا معه ووعدوه بتسليم البلد فدخلها الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما واجاب الملك الافضل الى تسليم القلعة ايضاً وانتقل منها باهله واصحابه واخرج وزيره ضيا الدين المذكور مختفياً بصندوق خوفاً عليه من القتل واعطى الملك الافضل صرخد فسار اليها باهله واستوطنها وبعد ان دخل الملك العزيز دمشق سلمها الى عمه الملك العادل فابقى السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز

وفي سنة ٥٩٤ هـ سنة ١١٩٩ م وصل جمع عظيم من الفرنج الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت وسار الملك العادل الى يافا واتته نجدة من مصر ووصل اليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس وهجم على يافا بالسيف فملكها وقتل من كان يقاتله بها ونازل الفرنج تبنين فارسل الملك العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين فرحل الفرنج عنها الى صور خائبين وعاد الملك العزيز الى مصر وترك اكثر العسكر مع الملك العادل وجعل اليه امر الحرب والصلح فطاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة فاستقرت بينهم ثلث سنين وعاد الملك العادل الى دمشق

وفي سنة ٥٩٥هـ سنة ١٢٠٠م توفي الملك العزيز صاحب مصر بحمى اصابته بأثر قنطرة عن جواده واشتدت حماه وحدث به يرقان وقرحة في امعائه واحتبس طبعه فمات في السنة المذكورة بعد ان ملك ست سنين الا شهراً فاقام بالملك بعده ولده الملك المنصور محمد وكان عمره حينئذٍ تسع سنين واتفق الامراء على احضار احد من بني ايوب ليقوم بالملك ووقع اختيارهم على الملك الافضل وهو بصرخد وارسلوا اليه فسار حثيثاً مختفيا خوفاً من عمه الملك العادل فصير اتابك اي امير الامراء عند الملك المنصور ابن اخيه واشار عليه اخوه الملك الظاهر صاحب حلب ان يقصد دمشق وياخذها من عمه الملك العادل فسار الملك الافضل في العساكر الى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره وهو محاصر ماردين فسار الى دمشق ووصل اليها قبل الملك الافضل ثم وصل الافضل الى دمشق وزحف اليها وجرى بينهما قتال واتصل الافضل الى باب البريد ولم يمده العسكر فكاثر اصحاب العادل واخرجوهم من البلد ووصل الملك الظاهر صاحب حلب منجداً لاخيه الافضل مضايقاً المدينة ودام الحصار وقلت الاقوات فيها وعزم العادل على تسليم البلد فحصل بين الاخوين الافضل والظاهر خلاف ادى الى ترك حصار دمشق (انتهى ملخصاً عن ابن الاثير وابي الفداء)

واما المؤرخون الفرنج فقالوا في فتحهم بيروت وغيرها ما ملخصه ان البابا شالستينوس الثالث اغتنم فرصة وفاة صلاح الدين فدعا امراء اوروبا ليهتموا باسترجاع اورشليم فلبى ازيكس السادس ملك المانيا دعوته مع انه كان محروماً لانه شرى ريشار ملك انكلترا وسجنه فتألب عسكر في المانيا وايطاليا وساروا بحراً الى سورية واخذوا بعض المدن الساحلية التي كانت بيد المسلمين منها اللاذقية وجبلة وبيروت وصيدا واستفكوا نحو تسعة الاف اسير ولكن وقع الخلاف بينهم اذ لم يكن ملك يجمع كلمتهم فان هنري دوك شمبانيا وملك اورشليم سقط به رواق او سقط هو من

شباك فانشج راسه ومات وكان بعض الفرنج المتوطنين بسورية لا يريدون نقض الهدنة بينهم وبين المسلمين الى ان نقضها الملك العادل بحصاره يافا وفتحها وبمنازلته الفرنج على تبنين وترحيلهم عنها ثم تجددت الهدنة بين الفرنج والمسلمين الى ثلث سنين وبعد وفاة ملك اورشليم تزوجت ارملة ازبال بنت اموري الملك زيجة ثالثة باموري دي لوسينيان اخي كوي دي لوسينيان ملك قبرس وكان ملكاً سنة ١١٩٧م

الفصل الثاني

في بعض المشاهير الدنيوين في القرن الثاني عشر

عد ٨٤٧

في المشاهير السوريين

محمد بن الخضر المعري

ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات فقال هو ابن الحسن بن القاسم ابو اليمن بن ابي معزول التوخي المعروف بانسابق من اهل المعرة قال ابن النجار كان شاعراً مجيداً مليح القول حسن المعاني رشيق الالفاظ دخل بغداد وجالس ابن باقيا والابوردي والخطيب التبريزي وانشدهم شعره وعمل رسالة لقبها تحفة الندمان اتى بها بكل معنى غريب يشتمل على عشر كراريس ومما ذكره من شعره

واغيد واجه المرآة زهواً — فحرَّق بالصبابة كل نفس
وليس من العجائب ان تأتي — حريق بين مرآة وشمس

ومنه ايضاً

حلمت على السفيه فزاد بغياً ... وعاد فكفه سفهي عليه

وفعلي الخير من شيمي ولكن ... اتيت الشر مدفوعاً اليه

وقال وكانت وفاته بعد الخمساية فسنة الخمساية للهجرة هي سنة ١١٠٧ للميلاد فلا نعلم في اية سنة بعدها كانت وفاته

﴿ ابراهيم الغزي الشاعر ﴾

قال في حقه ابن خلكان هو ابو اسحق ابراهيم بن يحيي الى محمد الاشهبي وقال ابن النجار في تاريخ بغداد هو ابراهيم بن عثمان بن عباس الى عبدالله الاشهبي الكلبي الغزي الشاعر المشهور ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال دخل دمشق وسمع بها من الفقيه نصر المقدسي سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ودخل الى بغداد واقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة ومدح ورثى غير واحد من المدرسين بها وغيرهم ثم رحل الى خراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك وذكر له عدة مقاطيع من الشعر واثنى عليه انتهى كلام الحافظ وله ديوان شعر اختاره بنفسه وذكر في خطبته انه الف بيت وله قصيدة لناصر الدين بن العلا وزير كرمان ومما قاله فيها

حملنا من الانام ما لا نطيقه ... كما حمل العظم الكسير العصائبا

وقال في قصر الليل

وليل رجونا ان يدب عذاره ... فما اختط حتى صار بالفجر شائبا

وله ايضاً :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة ... باب الدواعي والبواعث مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى ... منه النوال ولا مليح يعشق

ومن العجائب انه لا يشترى ... ويخان فيه مع الكساد ويسرق

وقد توفي سنة ٥٢٤ هـ سنة ١١٣١ م ما بين مرو وبلخ من بلاد خراسان ونقل الى بلخ ودفن فيها ونقل عنه انه كان يقول لما حضرته الوفاة ارجو ان يغفر لي ربي لثلثة اشياء كوني من بلد الامام الشافعي واني شيخ كبير جاوزت السبعين واني غريب

﴿ ابن منير الطرابلسي ﴾

قال فيه ابن خلكان ابو الحسين احمد بن منير بن احمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذب الدين الشاعر المشهور له ديوان شعر وكان ابوه ينشد الاشعار ويغني في اسواق طرابلس وحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة والادب وقال الشعر وقدم دمشق وسكنها وكان رافضياً كثير الهجاء ولما كثر ذلك منه سجنه بوري بن اتابك طغتكين صاحب دمشق مدة وعزم على قطع لسانه ثم شفعوا فيه فنفاه وكان بينه وبين ابن القيسراني (الاتي ذكره) مكاتبات واجوبة ومهاجاة وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادة المماثلين ومن شعره من جملة قصيدة :

واذا الكريم راى الخمول نزيله	في منزل فالحزم ان يترحلا
فالبدر لما ان تضاءل جدّ في	طلب الكمال فحازه متنقلا
ساهمت عيشك مرّ عيشك قاعداً	افلا فليت بهنّ ناصية الفلا
فارق ترق كالسيف سل فبان في	متنيه ما اخفى القراب واخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة	ما الموت الا ان تعيش مذللا
للقفر لا للفقر هبها انما	مغناك ما اغناك ان تتوسلا
لله علمي بالزمان واهله	ذنب الفضيلة عندهم ان تكملا
طبعوا على لوم الطباع فخيرهم	ان قلت قال وان سكت تقولا

وكانت ولادته سنة ٤٩٣ هـ سنة ١١٠٠ م بطرابلس وكانت وفاته سنة ٥٤٨ هـ سنة ١١٥٤ م بحلب ودفن بجبل جوشن بقرب المشهد الذي هناك . قال ابن خلكان زرت قبره ورايت عليه مكتوباً

من زار قبري فليكن موقناً ان الذي القاه يلقاهُ
فيرحم الله امرءًا زارني وقال لي يرحمك اللهُ

ولكن وجدت في ديوان ابي الحكم عبد الله ان ابن منير توفي بدمشق سنة ٥٤٧ هـ اي سنة ١١٥٣ م ورثاه بابيات تدل على انه مات بدمشق منها وهي هزلية على عادته

أثوابه فوق اعواد تسير به وغسلوه بشطي نهر قلوط
واسخنوا الماء في قدر مرصصة واشعلوا تحته عيدان بلوط

وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الجمع بين هذين الكلامين فعساه ان يكون قد مات في دمشق ثم نقل الى حلب فدفن بها والله اعلم

﴿ابن عساكر الدمشقي﴾

هو الحافظ ابو القاسم علي بن ابي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي كان محدث الشام في وقته ومن اعيان الفقهاء الشافعية غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه الى ان جمع منه ما لم يتفق لغيره وجاب البلاد ولقي المشائخ ثم عاد الى دمشق ثم رحل الى خراسان وصنف التصانيف المفيدة وكان حسن الكلام على الاحاديث صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة اتى فيه بالعجائب وهو على نسق تاريخ بغداد وقد استعظمه العلماء وقال بعضهم ان العمر يقصر عن ان يجمع الانسان فيه مثل هذا التاليف وله شعر لا باس فيه ومنه قوله على ما قيل :

الا ان الحديث اجل علم واشرفه الاحاديث العوالي
وانفع كل نوع منه عندي واحسنه الفوائد والامالي
وانك لن ترى للعلم شيئاً تحققه كافواه الرجالِ
فكن يا صاح ذا حرص عليه وخذه من الرجال بلا ملالِ

ولا تاخذه عن صحف فترمى | من التصحيف بالداء العضال

ومن المنسوب اليه ايضاً :

ايا نفس ويحك جاء المشيب | فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن | وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرة | وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن اكون | وما قدر الله لي في الازل

وكانت ولادته اول سنة ٤٩٩ هـ سنة ١١٩٦ م وتوفي سنة ٥٧١ هـ سنة ١١٧٦م بدمشق ودفن بها وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين

﴿ ابن الذكي الدمشقي ﴾

هو ابو المعالي محمد بن ابي الحسن الى ابان بن عثمان بن عفان الاموي القرشي الملقب يحيي الدين بن زكي الدين الدمشقي الفقيه الشافعي كان ذا فضائل عديدة من الفقه والاداب وغيرها وله النظم المليح والخطب والرسائل وتولى القضاء بدمشق سنة ٥٨٨ هـ سنة ١١٩٣ م وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية والمكانة المكينة ولما فتح السلطان صلاح الدين حلب انشده القاضي المذكور قصيدة منها البيت المتداول وقد مرّ ذكره :

وفتحك القلعة الشهباء في صفرٍ | مبشر بفتوح القدس في رجبِ

وفوضه السلطان حينئذٍ الحكم والقضاء بحلب فاستناب بها زين الدين بنا البانياسي وله خطبة مشهورة القاها بامر السلطان صلاح الدين بالقدس في اول جمعة بعد الفتح وكانت ولادته سنة ٥٥٠ هـ سنة ١١٥٦ م ووفاته سنة ٥٩٨ هـ سنة ١٢٠٢ م

﴿ ابن القيسراني ﴾

هو ابو عبد الله محمد بن نصر الى خالد بن الوليد المخزومي الخالدي الحلبي الملقب شرف المعالي المعروف بابن القيسراني . وكان من الشعراء المجيدين والادباء

المتقين وكان هو وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في ذلك العصر وجرت بينهما وقائع ونوادر وملح. وكان ابن منير ينسب الى التحامل على الصحابة ويميل الى التشيع فكتب اليه ابن القيسراني :

ابن منير هجوت مني خبرًا افاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدري فان لي اسوة الصحابه

ومن محاسن شعره قوله :

كم ليلة بت من كاسي وريقته نشوان امزج سلسالاً بسلسالِ
وبات لا تحتمي عني مراشفه كانما ثغره ثغر بلا والي

قال ابن خلكان قد ظفرت بديوانه وانا يومئذٍ بحلب ونقلت عنه اشيأ منها قوله في مدح خطيب

شرح المنبر صدرًا لتلقيك رحيبا
اترى ضم خطيباً منك او ضمخ طيبا

ومن معانيه البديعة :

هذا الذي سلب العشاق نومهم أما ترى عينه ملأى من الوسن

وكانت ولادة القيسراني سنة ٤٨٧ ﻫ سنة ١٠٨٦ م بعكا وتوفي سنة ٥٤٨ ﻫ سنة ١١٥٤ م بمدينة دمشق ودفن بمقبرة باب الفراديس والقيسراني منسوب الى قيسرية فلسطين وله كتاب في الكلمات المتشابهة لفظاً من الاسماء المنسوبة طبع في لندن سنة ١٨٦٥

﴿ محيي الدين الشهرزوري ﴾

هو ابو حامد محمد القاضي كمال الدين الشهرزوري الملقب محيي الدين وقد دخل بغداد فتفقه على الشيخ ابي منصور ابن الرزاز ثم صعد الى دمشق وولي قضاءها نيابة عن والده ثم انتقل الى حلب وحكم نيابة عن ابيه ايضاً سنة ٥٥٥ ﻫ

سنة ١١٦١ م وبعد وفاة والده تمكن عند الملك الصالح اخي نور الدين المذكور قبلاً صاحب حلب غاية التمكن وفوض اليه تدبير مملكة حلب سنة ٥٧٣ ﻫ سنة ١١٧٨م ثم وشى به اعداؤه وحساده الى الملك الصالح واقتضت الحال انه لزم بيته ثم رأى المصلحة مفارقة حلب فانتقل الى الموصل وتولى قضاءها ودرس بمدرسة والده والمدرسة النظامية بالموصل وتمكن عند صاحبها مسعود ابن مودود بن زنكي واستولى على جميع الامور وكان محيي الدين جواداً سرياً قيل انه انعم على فقهاء بغداد وادبائها وشعرائها ومحاويجها عند رسالته اليها بعشرة الاف دينار اميرية ويقال انه في مدة حكمه بالموصل لم يعتقل غريماً على دينارين فما دونهما بل كان يوفيهما عنه وله اشعار جيدة منها قوله في وصف جرادة :

لها فخذا بكرٍ (١) وساقا نعامةٍ وقادمتا (٢) نسرٍ وجؤجؤ (٣) ضيغمِ
حبتها افاعي الرمل بطناً وانعمت عليها جياد الخيل بالرأس والفمِ

وله في وصف نزول الثلج من الغيم :

ولما شاب رأس الدهر غيظاً لما قاساه من فقد الكرام
اقام يميط عنه الشيب غيظاً وينثر ما اماط على الانام

وكانت ولادته سنة ٥١٠ ﻫ تقريباً سنة ١١١٧ م وتوفي سنة ٥٨٦ ﻫ سنة ١١٩١م

﴿ تقية ابنة الصوري ﴾

هي ام علي تقية ابنة ابي الفرج ابي جعفر السلمي الارمنازي الصوري كانت فاضلة ولها شعر جيد قصائد ومقاطيع وصحبت الحافظ احمد ابن محمد السلفي الاصبهاني زماناً بالاسكندرية وذكرها في بعض تعاليقه واثنى عليها وكتب بخطه عثرتُ في منزل سكناي فانجرح اخمصي فشقت وليدة في الدار خرقةً من خمارها وعصبته فانشدت تقية للحال :

١ الناقة ٢ الريشتان اللتان في اعلى الجانح ٣ صدر

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً من خمار تلك الوليده
كيف لي ان اقبل اليوم رجلاً سلكت دهرها الطريق الحميده

ولها غير ذلك اشياء حسنة ورووا ان تقية نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين وكانت القصيدة خمرية ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بها بالخمر فلما وقف عليها الملك المظفر قال الشيخة تعرف هذه الاحوال من زمان صباها فبلغها ذلك فنظمت قصيدة اخرى حربية ووصفت آلة الحرب وما يتعلق بها احسن وصف ثم صيرت اليه تقول علمي بهذا كعلمي بذاك وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها اليه وكانت ولادتها سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢ م وتوفيت سنة ٥٧٩ هـ سنة ١١٨٤ م والارمنازي نسبة الى ارمناز هي قرية من اعمال دمشق وقيل من اعمال انطاكية وقيل من اعمال حلب بينها وبين عزاز اقل من ميل ثم توطن اهلها في صور

﴿ ابن بري المقدسي ﴾

هو ابو محمد عبدالله بن ابي بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي الاصل المصري المقام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره ونادرة دهره وله على كتاب الصحاح الجوهري حواشي فائقة اتى فيها بالغرائب واستدرك عليه بها في مواضع كثيرة وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه وصحبه خلق كثير واشتغلوا عليه ومن جملة من اخذوا عنه ابو موسى الجزولي وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله وكان عليه التصفح في ديوان الانشاءات لا يصدر كتاب الدولة الى ملك من ملوك النواحي الا ان يتصفحه ويصلح ما به من خلل خفي ويحكى انه كانت فيه غفلة ولا يتقيد بالاعراب بل يسترسل في حديثه كيف ما اتفق حتى قال يوماً لبعض تلامذته اشتر لي قليل هندبا بعروقو فقال التلميذ هندبا بعروقه فقال له لا تاخذه الا بعروقو وان لم يكن بعروقو فلا اريده قال ابن

خلكان ورايت له حواشي على درة الغواص في اوهام الخواص للحريري وله جزء لطيف في اغاليط الفقهاء وله الرد على ابن الخشاب في الكتاب الذي بين فيه غلط الحريري في المقامات فانتصر ابن بري للحريري وما اقصر في ما عمله وكانت ولادته بمصر سنة ٤٩٩ هـ سنة ١١٠٦ وتوفي سنة ٥٨٢ هـ سنة ١١٨٧ م وبري علم يشبه النسبة

﴿ اسامة بن منقذ ﴾

هو ابو المظفر اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الى منقذ الكناني الكلبي من اكابر بني منقذ اصحاب قلعة شيزر واول من ملك هذه القلعة منهم سديد الملك ابن منقذ وكانت بيد الروم فنازلها وتسلمها بالامان سنة ٤٧٤ هـ سنة ١٠٨٢ م ولم تزل في يده ويد اولاده الى ان جاءت الزلزلة سنة ٥٥٢ هـ ١١٥٨ م وكان سديد الملك موصوفاً بالذكاء وقوة الفطنة وحكي عنه انه جرى له امر خاف منه على نفسه من محمود بن مرداس صاحب حلب فرحل الى طرابلس عند ابن عمار صاحبها فتقدم ابن مرداس الى كاتبه ابن النحاس الحلبي ان يكتب لسديد الملك كتاباً يتشوقه ويستدعيه اليه وفهم الكاتب ان ابن مرداس يقصد له شراً فكتب كما امر وكتب اخيراً ان شاء الله تعالى فشدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب الى سديد الملك عرضه على ابن عمار ومجلسه فاستحسنوه واستعظموا رغبة ابن مرداس في التقرب اليه فقال هو ادرى في الكتاب ما لا ترون فكتب الجواب وفي اخره انا الخادم المقر بالانعام وكسر الهمزة من انا وشدد النون ولما وصل الكتاب الى ابن مرداس وقف عليه الكاتب وسر بما فيه وطابت نفسه اذ علم ان سديد الملك ادرك المنى فكان قصد الكاتب من تشديد النون في قوله ان شاء الله الاشارة الى قوله تعالى « إنّ الملأ يأتمرون عليك ليقتلوك » وقصد سديد الملك بتشديد النون في قوله انا الخادم الاشارة الى قوله تعالى « إنّا لن ندخلها ابدًا ما داموا فيها » وقد توفي سديد الملك

سنة ٤٧٥ هـ سنة ١٠٨٣ م ومخلص الدولة بن منقذ الذي ذكرنا ترجمته في القرن الحادي عشر هو والد اسامة الذي نكتب ترجمته هنا كما يؤخذ عن ابن خلكان في ترجمة سديد الملك المذكور

ولاسامة بن منقذ تصانيف عديدة في فنون الادب وقد اثنى عليه العلماء وقد سكن دمشق ثم انتقل الى مصر ثم عاد الى دمشق ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فاقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين وله ديوان شعر في جزئين موجود في ايدي الناس قال ابن خلكان رايته بخطه ونقلت منه ومما نقله عنه قوله في ابن طليب المصري وقد احرقت داره :

انظر الى الايام كيف تسوقنا ... قسرًا الى الاقرار بالاقدارِ
ما اوقد ابن طليب قط بداره ... نارًا وكان خرابها بالنارِ

وقوله يصف ضعفه:

فاعجب لضعف يدي من حملها قلماً ... من بعد حكم القنا في لبة الاسدِ

وما كتبه الى ابيه جواباً عن ابيات كتبها ابوه اليه :

وما اشكو تلون اهل ودي ... ولو اجدت شكيتهم شكوتُ
مللت عتابهم ويئست منهم ... فما ارجوهم في من رجوتُ
اذا ادمت قوارصهم فوادي ... كظمت على اذاهم وانطويتُ
ورحت عليهم طلق المحيا ... كاني ما سمعت ولا رايتُ
تجنوا لي ذنوباً ما جنتها ... يداي ولا امرت ولا نهيتُ
ويوم الحشر موعدنا وتبدو ... صحيفة ما جنوه وما جنيتُ

وكان مولد اسامة سنة ٥٨٨ هـ سنة ١٠٨٦ م بشيزر وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤ هـ سنة ١١٨٩ م (قد اخذنا اكثر ما في هذا الفصل ملخصاً عن ابن خلكان في

وفيات الاعيان) .

عد ٨٤٨

في بعض من عاصر هولاء المشاهير من امثالهم في غير سورية

(ابو حامد الغزالي)

هو حامد بن محمد زين الدين الغزالي الشافعي وقد ولد في طوس مدينة خراسان ولذا يصفونه بالطوسي وكانت ولادته سنة ٤٥٠ هـ سنة ١٠٥٩ م ووفاته سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢ م ولم يكن للشافعية في اخر عصره مثله وقد اشتهر في علمه وزهده ففي سنة ٤٨٨ هـ سنة ١٠٩٦ م ترك جميع ما كان عليه وسلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الحج ورجع الى دمشق فاقام مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع ثم انتقل الى بيت المقدس واجتهد في العبادة ثم قصد مصر واقام بالاسكندرية مدة ثم عاد الى وطنه بطوس وصنف كتباً مفيدة في عدة فنون منها ما هو اشهرها الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه ومنها احياء علوم الدين وهو من انفس الكتب واجلها وله في اصول الفقه المستصفي فرغ من تصنيفه سنة ٥٠٣ هـ سنة ١١١٠ م وله المنحول والمنتحل في علم الجدل وله تهافت الفلاسفة ومحك النظر ومعيار العلم والمظنون به على غير اهله والمقصد الاقصى في شرح اسماء الله الحسنى ومشكاة الانوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القوانين الى غير ذلك ونسب اليه بعض الشعر ووزع اوقاته في اخر حياته على وظائف الخير الى ان انتقل الى ربه في السنة المذكورة ورثاه الابيوردي الشاعر المشهور بابيات منها

مضى واعظم مفقود فجعت به　　من لا نظير له في الناس يخلفه

(انتهى ملخصاً عن ابن خلكان)

وقد ذكره العلامة المطران اسطفان عواد السمعاني الشهير في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية بفيرنسا واثنى عليه في علمه وورعه وعدد كتبه

وقال انها نحو ستين مجلدًا خص بالذكر منها كتابه في علم الدين قسمه الى اربعة اجزاء وكل جزء الى عشرة فصول تكلم فيها على عبادة الله واركان عقائد الدين ووصايا الاسلام والفضائل والرذائل وكتابه في المعارف العقلية تكلم به على صناعة القياس وعلى ما وراء الطبيعة وعلى الغاية والمقاصد في الاعمال وكتابه المنقذ من الضلال بين فيه ما ينافي او يوافق دين الاسلام من اقوال الفلاسفة وكتابه المظنون به على غير اهله يرد به ما يورده على سبيل الاعتراض على دين الاسلام وكتابه مشكاة الانوار تكلم فيه على الله الذي هو النور الحقيقي ثم على الانوار الثانية ويريد بها موسى وعيسى ومحمد وكتابه نصيحة الملك يخاطب به السلطان ملك شاه السلجوقي وكتابه الخاتم تكلم به على معنى الحروف العربية وعملها السحري وكتابه الموجز في علم النجوم وكتابه الحاوي ما يعزي اليه من الاشعار الادبية والفلسفية ثم ذكر له كتاباً في ما وراء الطبيعة واللاهوت مقسوماً الى سفرين تكلم في الاول على الذات والوجود والوحدة والجمع والضروري والممكن وفي حدوث الاشياء والجوهر والعرض وتكلم في الثاني على المعقولات والنفس البشرية وقواها وعلى الارواح الملائكة والشياطين وعلى اسماء الله ووحدة ذاته وعلمه وخلقه السماء والارض ووحيه وعنايته وعلى النبوة ورسالة محمد النبي وسمو مرتبة الانبياء وعلى الايمان والطاعة والفروض ويوم الدين والفردوس وجهنم وقد اخذ المطران المذكور كل هذه التعليقات عن كتبه الموجودة بالمكتبة المذكورة وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ان كتابه المنقذ طبع بباريس سنة ١٨٤٢ ثم في القسطنطينية ومصر وان كتابه مقاصد الفلاسفة طبع منه ما يتعلق بالمنطق في لايدن سنة ١٨٨٨ وان له كتاباً يسمى عمدة المحققين وبرهان الدين طبع في القاهرة سنة ١٢٧٧ وكتابه تهافت الفلاسفة طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣ ﻫ وله كتاب احياء علوم الدين طبع مرتين في بولاق سنة ١٢٧٨ وسنة ١٢٨٢ ﻫ وفي القاهرة مرارًا وله ايضاً



المقالة الوالدية يخاطب فيها غلاماً بقوله يا ولد طبعت في فيانا سنة ١٨٣٨ مع ترجمة المانية وله الدرة الفاخرة في احوال الاخرة طبعت في سويسرا سنة ١٨٧٨ مع ترجمة افرنسية انتهى

﴿ الطغراءي صاحب لامية العجم ﴾

هو على ما قال ابن خلكان العميد فخر الكتاب ابو اسمعيل الحسين الملقب مؤيد الدين الاصبهاني المعروف بالطغرائي كان غزير الفضل لطيف الطبع فاق اهل عصره بصنعة النظم والنثر وله ديوان شعر جيد ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم يصف بها حاله ويشكو زمانه واولها :

اصالة الراي صانتني عن الخطلِ وزينة الفضل زانتني لدى العطلِ

وهي تنيف على ستين بيتاً وهي مشهورة تتداولها الايدي وذكر العماد الكاتب انه كان ينعت بالاستاذ وكان وزير السلطان مسعود بن محمود السلجوقي بالموصل وانه لما جرى بينه وبين اخيه السلطان محمود المصاف بالقرب من همذان وكانت النصرة فيه لمحمود قتل الطغرائي بمكيدة من وزيره لانه راى اقبال السلطان محمود عليه وكانت هذه الوقعة سنة ٥١٣ ﻫ وقيل سنة ٥١٤ ﻫ وقيل سنة ٥١٨ اي سنة ١١١٩ م او ١١٢١ او ١١٢٥ وقد جاوز ستين سنة وفي شعره ما يدل على انه بلغ سبعاً وخمسين سنة لانه قال وقد جاءه مولود

هذا الصغير الذي وافى على كبري اقر عيني ولكن زاد في فكري

سبع وخمسون لو مرت على حجر لبان تأثيرها في صفحة الحجر

والطغرائي هذه النسبة الى من يكتب الطغراء وهي الطرة التي تكتب في اعلى كتب الملوك. وعن كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ان ديوانه طبع في القسطنطينية في مطبعة الجوائب وان قصيدته لامية العجم طبعت في قسطنطينية سنة ١٣٠٠ ﻫ وفي اكسفورد سنة ١٦٦١ وفي فرنكفورت سنة ١٧٦٩ ولصلاح الدين

الصفدي الذي توفي سنة ١٣٦٢ شرح عليها سماه الغيث المسجم في شرح لامية العجم طبع في القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ وبهامشه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين بن نباتة المصري الذي توفي سنة ٨٦٨ هـ

﴿ابو محمد الحريري﴾

هو ابو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي صاحب المقامات المشهورة كان احد ائمة عصره ورزق الحظوة التامة في عمل المقامات واشتملت على شيء كثير من كلام العرب وامثالهم ورموز اسرار كلامهم فانها خمسين مقامة وصنفها للوزير جلال الدين علي بن صدقة وزير المسترشد ونسجها على منوال بديع الزمان الهمذاني وابو زيد السروجي الذي عزا اليه هو رجل بصري نحوي لغوي صحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة واما تسميته الراوي بالحارث بن همام فانما عنى بها نفسه اخذاً عن الاية كلكم حارث وكلكم همام قالوا كانت مقاماته اربعين مقامة فانكرها بعضهم عليه وقالوا هي لرجل مغربي مات بالبصرة ووقعت اوراقه اليه فادعاها فاستدعاه الوزير الى الديوان واقترح عليه انشاء رسالة فلم يفتح الله عليه فقام وهو خجل فقال فيه بعض عاذليه :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان كما رماه في وسط الديوان بالخرس

وكان يزعم انه من ربيعة الفرس وكان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة ويسكن في مشان البصرة ولما عاد الى بلده عمل عشر مقامات اخرى وسيرها الى الوزير واعتذر من عيه وحصره بالديوان بما لحقه من المهابة وللحريري تآليف حسان منها درة الغواص في اوهام الخواص وملحة الاعراب المنظومة في النحو وله ايضاً شرحها وله ديوان رسائل وشعره كثير غير الذي في المقامات ويحكى انه كان ذميماً قبيح المنظر فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ منه شيئاً فلما رآه استزرى

شكله وفهم الحريري ذلك فلما ساله ان يملي عليه قال له اكتب :

ما انت اول سارٍ غره قمرٌ ورائد اعجبته خضرة الدمنِ
فاختر لنفسك غيري انني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل منه وانصرف عنه وقد ولد الحريري سنة ٤٤٦ هـ سنة ١٠٥٥م وتوفي سنة ٥١٥ هـ وقيل سنة ٥١٦ هـ سنة ١١٢٢ او سنة ١١٢٣م وكان يسكن في سكة بني حرام فنسبة الحرامي الى هذه السكة والحريري نسبة الى الحرير وعمله او بيعه

وقد طبعت مقامات الحريري مرارًا واحسن طبعة هي التي اعتنى بها العلامة دي ساسي الافرنسي في بريس سنة ١٨٢٢ مع شرح وافٍ ولما حصل في هذه الطبعة بعض الخطأ من مرتبي الحروف طبعت ثانية مصححة مع حواش تاريخية ولغوية في بريس سنة ١٨٤٩ بعناية العلامة وارنبودغ وطبعت ايضاً في كلكته سنة ١٨٠٩ وسنة ١٨١٢ وفي لابسيك سنة ١٨٥٦ وفي بولاق سنة ١٢٨٨ هـ مع شرح عليها وطبعت في بيروت مرارًا ولاحمد الشريشي (توفي سنة ٦١٩ هـ سنة ١٢٢٣م) شرح لمقامات الحريري طبع في بولاق مرارًا واما كتاب الحريري درة الغواص فطبع في قسطنطينية ثم طبع في مصر على الحجر سنة ١٢٧٣ وكتابه ملحة الاعراب طبعت على الحجر مرارًا

الفتح بن خاقان

هو ابو نصر الفتح بن محمد بن خاقان الاشبيلي صاحب كتاب قلائد العقيان وله عدة تصانيف غيره وقد جمع من شعراء المغرب في قلائد العقيان طائفة كبيرة وتكلم على ترجمة كل منهم باحسن عبارة والطف اشارة ومن كتبه مطمح الانفس ومسرح التانس في ملح اهل الاندلس وهو ثلث نسخ كبرى ووسطى وصغرى وهو كتاب كثير الفائدة لكنه قليل الوجود في هذه البلاد وكلامه في كتبه دال

على فضله وغزارة مهارته وكان كثير الاسفار سريع التنقل وتوفي قتيلاً في مدينة كراش سنة ٥٣٥ هـ سنة ١١٤١ م وروى سنة ٥٢٩ هـ سنة ١١٣٥ م قيل كان خليع العذار في دينه لكن كلامه في تأليفه كالسحر الحلال والماء الزلال (انتهى ملخصاً عن ابن خلكان)

وقد طبع كتابه قلائد العقيان في بولاق سنة ١٢٨٤ هـ وطبعه الشيخ الكنت رشيد الدحداح في بريس سنة ١٨٦٠ م. واما كتابه مطمح الانفس الذي قال ابن خلكان انه كان قليل الوجود في ايامه فقد طبع في قسطنطينية في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ وعدد التراجم فيه خمس وخمسون ترجمة وهي غير المثبتة في قلائد العقيان

﴿ الزمخشري ﴾

هو ابو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشرى الامام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان وكان امام عصره وصنف التصانيف البديعة منها الكشاف في تفسير القرآن لم يصنف قبله مثله ومنها المحاجات بالمسائل النحوية والمفرد والمركب في العربية وكتاب الفائق في تفسير الحديث واساس البلاغة في اللغة وربيع الاسرار ونصوص الاخبار ومتشابه اسامي الرواة والنصائح الكبار والنصائح الصغار وضالة الناشد والرائض في علم الفرائض وكتاب المفصل في النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير والانموذج في النحو والمفرد والمولف في النحو وروس المسائل في الفقه وشرح ابيات كتاب سيبويه وحميم العربية والمستقصي في امثال العرب وسوائر الامثال وديوان التمثيل وشقائق النعمان في حقايق النعمان وشافي العي من كلام الشافعي والقسطاس في العروض ومعجم الحدود والمنهاج في الاصول ومقدمة الادب وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسالة الناصحة والامالي في كل فن وغير ذلك وقد سافر الى مكة المشرفة وجاور بها زماناً فلقبوه جار الله وكان هذا علماً

عليه قال ابن خلكان الذي اخذنا هذه الترجمة عنه ان الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد متظاهراً به واول ما صنف كتاب الكشاف افتتحه بقوله :

الحمد لله الذي خلق القرآن فقيل له متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب احد فيه فغيره بقوله الحمد لله الذي جعل القرآن وجعل عندهم بمعنى خلق ورايت في كثير من النسخ الحمد لله الذي انزل القرآن وهذا اصلاح الناس لا اصلاح المصنف ومن شعره يرثي شيخه ابا مضر منصور

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها هذا الذي كان قد حشى ابو مضر اذني تساقط من عيني

ويقال انه اوصى ان يكتب على قبره هذان البيتان

الهي قد اصبحت ضيفك في الثرى وللضيف حق عند كل كريم
فهب لي ذنوبي في قراي فانها عظيم ولا يقوى بغير عظيم

وكانت ولادة الزمخشري سنة ٤٦٧ هـ سنة ١٠٧٥ م ووفاته سنة ٥٣٨ هـ سنة ١١٤٤ م وزمخشر المنسوب هو اليها قرية كبيرة من قرى خوارزم (عن ابن خلكان)

وقد ذكر العلامة المطران اسطفان عواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية في عدد ٤٣٩ من كتبها الشرقية كتاب المفصل للزمخشري في النحو وقال انه قسمه الى اربعة اقسام الاول في الاسماء والثاني في الافعال والثالث في الحروف والرابع في ما يكون منها مشتركاً

وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ان للزمخشري معجم جغرافي يسمى كتاب الجبال والامكنة والمياه طبع في لايدن سنة ١٨٥٦ وان كتابه الكشاف طبع في كلكته سنة ١٨٥٦ م وفي بولاق سنة ١٢٨١ هـ وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٧ هـ وعلى هامشه كتاب الانتصاف لناصر الدين المنير الاسكندري وشرح محب الدين

افندي الابيات الواردة في الكشاف وسمى شرحه تنزيل الآيات على شرح شواهد الابيات وطبع كتابه ببولاق سنة ١٢٨١ هـ وللزمخشري كتاب اطواق الذهب طبع في فيانا سنة ١٨٣٥ م مع ترجمة المانية ويشتمل على تسع وتسعين مقالة في المواعظ والنصائح ثم طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٢٩٣ هـ مع شرح لالفاظه اللغوية وضعه الشيخ يوسف الاسير وطبع في بريس سنة ١٨٧٦م مع ترجمة افرنسية وله خمسون مقامة في المواعظ طبعت مع شرحها في مصر سنة ١٣١٣ هـ وقد طبع كتابه المفصل في الاسكندرية سنة ١٢٩١ هـ وطبع كتابه الانموذج في النحو في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ ثم في خرتستيانيا سنة ١٨٥٩ م وكتابه اس البلاغة طبع في مصر بعد ضبط المتن على اربع نسخ طبعه يوسف شيت البشراني سنة ١٢٩٩ هـ وطبع كتابه المسمى مقدمة الادب في لابسيك سنة ١٨٥٠ وهو معجم عربي وفارسي وطبع كتابه ربيع الابرار ونصوص الاخبار في القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ

﴿ الادريسي ﴾

هو ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي من ولد ادريس العلويين الذين تولوا غربي افريقية الشمالية من سنة ١٧٥ الى سنة ٣١٤ اي من سنة ٧٩١ الى سنة ٩٢٦م وقد ولد سنة ٤٩٤ هـ سنة ١١٠٠ م في مدينة سبتا وكان جده قد لجأ اليها بعد ان خلع من الملك واتى الادريسي هذا في صباه الى قرطبه بالاندلس وتخرج بالعلوم فيها ثم ساح في هذه البلاد وفي شمالي افريقية وآسيا الصغرى واستدعاه روجر الثاني ملك صقلية الى ديوانه وكان قد جمع من كتب الجغرافيين القدماء ومن الرحالة المعاصرين مادة كبيرة فصنع كرة من فضة رسم عليها خطوط البلاد وشرح ذلك في مقالته الجغرافية التي قسمها الى سبعة اقاليم وسبعين بلادًا وتكلم فيها على حاصلات كل بلاد ومصنوعاته وحكومته وآداب سكانه وبقي من هذا الكتاب موجز طبع في العربية سنة ١٥٩٢م برومة ثم ترجمه العلامة جبرائيل الصهيوني الماروني الى اللاتينية

وطبع ترجمته في بريس سنة ١٦١٩ وسماه جغرافية النوبة ثم وجد امادي جوبر نسخة مخطوطة من هذا التاليف في مكتبة الامة بباريس سنة ١٨٢٩ فطبعها مع ترجمة افرنسية بباريس سنة ١٨٣٧ الى سنة ١٨٣٩ هذا ما اخذناه عن بعض كتب الفرنج اذ لم نرَ ابن خلكان ذكره وقد ذكر المطران اسطفان عواد السمعاني كتاب الادريسي في الجغرافية في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية وقال ان هذا الكتاب طبع برومة بالعربية سنة ١٦١٧ بعناية الامراء الماديشيين وعن هذه الطبعة ترجم جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني المارونيان هذه المقالة الى اللاتينية وطبعت بباريس وجاء في كتاب اكتفاء القنوع ان كتاب الادريسي في وصف افريقيا واسبانيا طبع بلايدن سنة ١٨٦٦ مع ترجمة افرنسية وان العلامة امادي الايطالي استخرج كل ما قاله الادريسي في وصف ايطاليا وطبعه على حدته برومة سنة ١٨٨٣ مع ترجمة ايطالية وشروح وللادريسي ايضاً وصف فلسطين وبر الشام طبع في بون سنة ١٨٨٥ وعندنا شرح للكرة الجغرافية التي صنعها الادريسي وضعه القس سمعان السمعاني وطبعه برومة

﴿ ابن رشد ﴾

هو ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد المالكي الفيلسوف الطبيب ولد سنة ٥٢٠ سنة ١١٢٧ بقرطبه في الاندلس، حيث تولى جده وابوه القضاء وكان متمكناً وضليعاً في علوم التوحيد والفقه والفلسفة والطب والرياضيات ومعززاً عند ملوك مراكش والاندلس وتقلد مناصب عالية في اشبيلية وقرطبا ومراكش ودس عليه بعض حساده من العلماء عند ملك مراكش فسخط عليه ونفاه ثم رضي عنه سنة ١١٩٨ م ودعاه الى مراكش فتوفي تلك السنة وكان يشكي باختلال عقيدته وسمود المفسر لانه ترجم كتب ارسطو واوفق انه معصوم من الخطاء فزعم ان ما الفلسفة الا ترجمة كتب ارسطو لكنه فسرها بمعنى مؤذن لتشيعه لمذهب الحلول وقد فند القديس توما

الاكويني مذهبه هذا الذي نبذته ايضاً المدرسة الكلية بپريس سنة ١٤٢٠ وحرمه المجمع اللاتراني الذي عقد سنة ١٥١٢ وقد طبع كتاب تفسيره لفلسفة ارسطو مترجماً الى اللاتينية سنة ١٥٩٥ بالبندقية وله كتاب سماه الكليات في الطب طبع في المدينة المذكورة مع ترجمته اللاتينية سنة ١٤٨٢ وكان الناس في اوربا زماناً طويلاً لا يعرفون كتب ارسطو الا بترجمتها الى اللاتينية عن كتب ابن رشد العربية وكانوا ينزلون اقواله منزلة اقوال ارسطو الى ان ترجمت كتب ارسطو عن اليونانية قال المطران اسطفان عواد السمعاني عند ذكره كتابه على فلسفة ارسطو الموجود مخطوطاً في المكتبة الماديشية ان هذا الكتاب نادر لان ابن رشد لم يكن له عند العرب شهرة ابن سينا وغيره من الفلاسفة ولان المسلمين المتحمسين كانوا يشتبهون بصحة عقيدته فكانت كتبه العربية نادرة حتى ان ما ترجم منها الى اللاتينية مترجم اكثره عن الترجمات العبرانية لا عن الاصل العربي

ولابن رشد ايضاً رسالة سماها تهافت التهافتين رد بها كتاب الغزالي الموسوم بتهافت الفلاسفة كما مر وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ كتاب اشتمل على رسالة الغزالي تهافت الفلاسفة وعلى رسالة ابن رشد تهافت التهافتين وعلى رسالة ثالثة لمصطفى بن خليل البرسوي الرومي توفي سنة ١٤٨٧ م الفها على سبيل المحاكمة بين تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد . ولابن رشد ايضاً رسالة التوحيد والفلسفة رد بها مذهب الاشعريين طبعت في مونيخ قصبة بفيارا سنة ١٨٥٨ م مع ترجمة المانية وله شرح على ارجوزة ابن سينا في الطب لم يطبع ومقالة في الدرياق ومقالة في الحميات ومقالة في حركة الافلاك الى غير ذلك

عـد ٨٤٩

ذيل في الخلفاء العلويين وملوك الروم في القرن الثاني عشر

قد اشتغلنا بذكر ملوك الافرنج في هذا القرن الثاني عشر عن ذكر الخلفا

العلويين في مصر وسورية فارتا تكملة لتاريخ هولاء الخلفاء ان نذيل تاريخ هذا القرن بذكر من كان فيه منهم الى حين انقراض دولتهم بملك صلاح الدين الايوبي وابتداء دولة الايوبيين فيه

فرغنا من كلامنا على هولاء الخلفاء في القرن الحادي عشر بذكر المستعلي بالله سنة ٤٩٥ هـ سنة ١١٠٢ م وقد بويع بالخلافة يوم وفاته ابنه ابو علي المنصور ولقب الآمر باحكام الله ولم يكن له من العمر حينئذ الا نحو خمس سنين وقام بتدبير دولته الافضل بن امير الجيوش احسن قيام وفي سنة ٤٩٨ هـ سنة ١١٠٥ م ارسل الافضل ابنه شرف المعالي فقهر الفرنج في الرملة ثم نازلوا ابنه الاخر سناء الملك في عسقلان وكانت الحرب سجالاً ثم قتل الآمر باحكام الله سنة ٥٢٤ هـ سنة ١١٣١ م وثب عليه الباطنية فقتلوه لان كان سيء السيرة في رعيته

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد فبويع ابن عمه عبد المجيد الحافظ بن المستنصر وفي رواية اخرى ابن المستعلي ولقب بالحافظ لدين الله واستوزر ابا علي احمد بن الافضل ابن بدر الجمالي فاستبد وتغلب على الحافظ الى ان قتل هذا الوزير سنة ٥٢٦ هـ سنة ١١٣٣ م فاستقامت امور الحافظ وحكم في دولته لكنه كان عرضة لتحكم وزرائه به حتى انه استوزر ابنه حسناً وجعله ولي عهده فحكم عليه. واستبد بالامر دونه وقتل كثيرين من امراء دولته وصادر كثيرين فلما راى الحافظ ذلك سقاه سماً فمات ثم توفي الحافظ سنة ٥٤٤ هـ سنة ١١٥٠ م

وبعد وفاة الحافظ ولي الخلافة بعده ابنه ابو منصور اسماعيل ولقب الظافر بامر الله واستوزر ابن مصال وبقي اربعين يوماً يدبر الامور فقصده العادل بن السلار من الاسكندرية ونازعه الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة فخالفه العادل وصار وزيراً وارسل عسكراً فقتل ابن مصال واستمر العادل ابن السلار حتى لم يبق معه حكم للظافر لكنه قتل سنة ٥٤٨ هـ سنة ١١٥٤ م فاخذ

الوزارة عباس بن باديس الصفاجي وكان ربيب ابن السلار واخذ الفرنج هذه السنة عسقلان من الظافر وفي سنة ٥٤٩ هـ سنة ١١٥٥ م قتله وزيره عباس المذكور

وبعد مقتل الظافر ولوا الخلافة ابنه ابا القاسم عيسى ولقب الفائز بنصر الله وله من العمر خمس سنين فحمله عباس الوزير المذكور على كتفه واجلسه على سرير الملك وبايعه الناس واخذ عباس من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ما اراد ولم يترك الا ما لا خير فيه وتوفي الفائز سنة ٥٥٥ هـ سنة ١١٦١ م وعمره نحو احدى عشرة سنة فقد اختاره عباس الوزير صغيراً كيلا يكون له شيء من الحكم

وبعد وفاة الفائز بنصر الله دخل القصر الصالح بن درزيك من اكابر الامراء وكان ارمنياً واختار ابا محمد عبدالله بن يوسف بن الحافظ وكان مراهقاً قارب البلوغ فبايعه الصالح بالخلافة ولقب العاضد لدين الله وزوجه الصالح ابنته فكان ذلك سبب عداوة في القصر لصالح وهو استطال على الناس وارسلت عمة العاضد الاموال الى امراء المصريين فجرحوه ومات من جراحه واوصى ان تكون الوزارة لابنه العادل ولكن وثب شاور عامل الصعيد على العادل الوزير فقتله وصار وزيراً للعاضد سنة ٥٥٨ هـ سنة ١١٦٤ م ثم جمع الضرغام جموعاً فهزم شاور الى الشام واستقر في الوزارة وقتل كثيرين من الامراء وفي سنة ٥٦٥ هـ سنة ١١٧٠ م حصر الفرنج دمياط وارسل نور الدين بن زنكي اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الى مصر كما ذكرنا قبلاً وصار شيركوه وزيراً للعاضد ثم توفي وخلفه ابن اخيه يوسف صلاح الدين واقام الخطبة العباسية بمصر ومات العاضد وانقرضت به دولة العلويين سنة ٥٦٧ هـ سنة ١١٧٢ م وخلفتها دولة الايوبيين اولاً في مصر ثم في سورية . وكان ابتداء دولة العلويين في المغرب سنة ٢٩٧ هـ سنة ٩١٠ م وانقرضت سنة ٥٦٧ هـ سنة ١١٧٢ م فكانت مدة ملكهم ميئتين وسبعين سنة قمرية وميئتين واثنين وستين سنة شمسية وعددهم اربعة عشر ملكاً منهم ثلاثة بالمغرب واحد عشر بمصر والشام

واما الخلفاء العباسيون فقد ذكرنا منهم من تولوا سورية الى اخر القرن العاشر ثم ذكرنا من ولي الخلافة منهم في القرن الحادي عشر عدد ٨٠٢ وسوف نذكر من بقي منهم الى اخرهم في محل اخر ان شاء الله تعالى

وبقي علينا ان نذكر ملوك الروم في هذا القرن الثاني عشر لتعلق بعض اخبار هذا التاريخ باخبارهم وقد ذكرنا في عدد ٨٠١ جميع من ملكوا في قسطنطينية من هرقل الملك الذي اخذ الخلفاء سورية منه الى الكسيس كومنانس الذي كان في اواخر القرن الحادي عشر واوائل هذا القرن الثاني عشر فنذكر الان منهم من كانوا في هذا القرن

ان الكسيس كومنانس ادركته الوفاة سنة ١١١٨ فخلفه ابنه يوحنا الثاني وحارب السربيين سنة ١١٢٥ وانتصر عليهم وكان قد حارب اسطفانس الثاني ملك المجر سنة ١١٢٤ وحارب الاراك سنة ١١١٩ واخذ منهم اللاذقية وقسطموني باسيا الصغرى واتفق مع ريموند دي اوتريش سنة ١١٣٨ وحارب الاتابك بسورية واحسن سيرته في مملكته حتى لقبوه مرقس اوراليوس البيزنطي٠ وتوفي سنة ١١٤٣م

وخلفه في السنة المذكورة ابنه عمانوئيل الاول كومنانس مفضلاً على اخيه الاكبر اسحق كومنانس وفي سنة ١١٤٧ غدر بالصليبين الذين كانوا بامرة كنراد ملك المانيا ولويس السادس ملك افرنسة وعاون باتفاقه مع المسلمين على انخذالهم وقهر عساكرهم فعاقبه على غدره روجر ملك صقلية وحليف الصليبين فدخل في عساكره بلاد اليونان ونهب ثاب وقرنثية وكان عمنويل في حرب متصلة مع المجريين والسربيين الذين ثاروا عليه وبدد عز الدين سلطان قونية عساكره في اسيا الصغرى سنة ١١٧٦ وتوفي عمنوئيل سنة ١١٨٠ وقام بعده ابنه الكسيس الثاني وكان عمره اثنتي عشرة سنة وكانت امه تدبر الملك على ان سوء سيرتها كان سبباً للثورة عليه وعليها فاقيم اندرونيكس كومنانس مدبراً للملك فتوج الكسيس وشاركه في الملك وما عتم

ان قتله سنة ١١٨٣ وملك مكانه وساء السيرة فثل عرشه اسحق الملقب انج (اي الملاك) سنة ١١٨٥ ووثب الشعب على اندرونيكس فشنقه وانقضت به سلالة كومنانس واقام الشعب مكانه اسحق الثاني انج المذكور فحارب البلغاريين وفاز ببعض النصر عليهم ولكن مقته الشعب لعكوفه على ملاذه وقسوته فثل عرشه اخوه الكسيس الثالث سنة ١١٩٥ وسمل عينيه ولكن نهض عليه الكسيس الرابع ابن اخيه وخلعه من الملك واستنجد بالصليبين فاتوا لنجدته وملكوا قسطنطينية سنة ١٣٠٣ واقروه ولكن قتله بعد ستة اشهر دوكاس مرسوفل (الغليظ الحاجب) واخذ الملك سنة ١٢٠٤ وسمي الكسيس الخامس فثل الصليبيون عرشه وملكوا قسطنطينية واقاموا فيها المملكة اللاتينية كما سيجي

القسم الثاني

في تاريخ سورية الديني في القرن الثاني عشر

الفصل الاول

في بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في هذا القرن

عد ٨٠٥

في بطاركة انطاكية في القرن الثاني عشر

فرغنا من كلامنا في بطاركة انطاكية في القرن الحادي عشر بذكر يوحنا الرابع ولا نعلم علماً اكيداً من خلفه فقد روى لكويان في كلامه على هؤلاء البطاركة

في كتابه المشرق المسيحي انه يظهر من جدول لبطاركة انطاكيـة قدمه من مدة اثناسيوس الرابع بطريرك انطاكية ووضع في المكتبة الواتيكانية ان توادوسيوس او توافيلس (يسميه بالاسمين) خلف يوحنا الرابع المذكور لكنه قال ان الفرنج اخذوا في ايامه انطاكية وهذا غير صحيح ويبين بطلانه ما ذكرناه في ترجمة يوحنا الرابع المذكور وعليه فلا يمكن الاعتماد على ما جاء في الجدول المذكور عن توادوسيوس او توافيلس

وجاء في هذا الجدول ايضاً ان يوحنا الخامس خلف توادوسيوس المذكور في بطريركية انطاكية واستشهد مؤلف الجدول بنيكون ارشمندريط دير القديس سمعان العمودي وقال بعد ذلك ان يوحنا الخامس خلفه توادورس بلسامون فقال لكويان هنا خطأ غير مغتفر ولنا على اثبات عدم صحته بينات راهنة وادلة دامغة وسنورد اسماء بطاركة كثيرين كانوا قبل توادورس بلسامون الذي قال صاحب الجدول انه خلف يوحنا الخامس وقد اقام اللاتينيون على انطاكية بعد ملكهم اياها بطاركة تتالوا خلفاً عن سلف ولكن استمر الروم ينصبون بطاركة من اصحاب طقسهم فيقومون بقسطنطينية حتى سعى بودوين الثالث ملك اورشليم (الذي كان متزوجاً بتوادورا بنت اخي الملك عمنوئيل كومنانس) لدى هذا الملك بان لا يرسل الى انطاكية بطريركاً من قسطنطينية ومع ذلك انتخب رجل اسمه سوتريكس وقبل ارتقائه الى بطريركية انطاكية ابدع ضلالاً انكر به انه يجوز تقدمة ذبيحة الصليب او ذبيحة القربان لله الكلمة بل يلزم تقدمة الذبيحتين للآب والروح القدس فعقد مجمع سنة ١١٥٥ حرم به سوتريكس واقصى عن البطريركية

ولا نعلم خلفاً لسوتريكس المذكور الا اثناسيوس الذي كان مقيماً في قسطنطينية ايضاً اذ قد روى الايتوس في الكتاب الثاني من مؤلفه في اتفاق الكنائس فصل ٤٢ انه عقد مجمع في قسطنطينية سنة ١١٦٦ جلس فيه اثناسيوس بطريرك

انطاكية بعد لوقا البطريرك القسطنطيني

وروى بعضهم انه كان في جملة البطاركة الذين باركوا زواج الملك عمنوئيل كومنانس بمريم ابنة ريموند امير انطاكية وهم لوقا بطريرك قسطنطينية وصفرونيوس بطريرك اسكندرية واثناسيوس بطريرك انطاكية المذكور

وقام بعد اثناسيوس في الكرسي الانطاكي سمعان الثاني فقد اثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨ رسالة من جيورجيوس متربوليط كورشيرا الى سمعان هذا عنوانها « الى بطريرك مدينة الله انطاكية السيد سمعان الكلي القداسة من جيورجيوس متربوليط كورشيرا » وكان سمعان يشكو الى المتربوليط المذكور سوء حاله وما يقاسيه من المحن فاجابه بالرسالة المذكورة معزياً اياه ومثنياً عليه وكان جيورجيوس حينئذٍ في برنديسي بايطاليا مرسلاً الى رومة من الملك عمنوئيل كومنانس تلبية لدعوة البابا اسكندر الثالث لعقد مجمع في رومة وهو المجمع اللاتراني الثالث الذي عقد سنة ١١٧٩ وقد دعا اليه الاساقفة الكاثوليكيين وغير الكاثوليكيين ولما وصل جيورجيوس الى برنديسي مريضاً وكان الشتاء شديداً استمر في هذه المدينة ستة اشهر وعاد منها الى المشرق دون ان يصل الى رومة لكنه ارسل اليها نيابة عنه نكتاريوس الرئيس الذي كان يصحبه فماحك في المجمع وكابر واستمر مصراً على رأيه وعاد متفاخراً مدعياً الظفر وهنأه جيورجيوس المذكور وغيره من المشايعين لهما وكل هذا بين من رسائل جيورجيوس المذكور التي اثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨ وسنة ١١٧٩ ويظهر من ذلك ان سمعان البطريرك الانطاكي المذكور لم يكن كاثوليكياً لالتحامه مع جيورجيوس ونكتاريوس المذكورين ٠ وفي سنة ١١٨٧ دعا الملك اسحق انج بطاركة القسطنطينية وانطاكية واورشليم الذين كانوا في مدينته مع غيرهم من الاساقفة وسنوا شريعة ان لا ينتخب الاساقفة في قسطنطينية كالعادة بل لا بد من استدعاء غيرهم من اساقفة الاقاليم وذلك بين

في كتاب الناموس اليوناني الروماني صفحة ٤٦٩ غير انه لا ذكر هناك لاسماء هولاء البطاركة

وصير بعد اثناسيوس توادودس الرابع بلسامون بطريركاً على كرسي انطاكية وكان حائزاً مناصب رفيعة في كنيسة القسطنطينية قبل ارتقائه الى الكرسي الانطاكي وقد انتخب لهذا الكرسي في القسطنطينية واستمر فيها ويظهر انه صير بطريركاً سنة ١١٨٦ وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩١ انه في هذا السنة قدم بلسامون البطريرك الانطاكي كتابه في القوانين البيعية لجيورجيوس كسيفيلينس البطريرك القسطيطيني وكتب اليه ما ياتي ٠ الى البطريرك جيورجيوس كسيفيلينس الكلي القداسة نظم توادودس بطريرك انطاكية ٠ ويلي ذلك ابيات شعر قال في اخرها ٠ هذا ما دونه اليك انا توادودس بلسامون بطريرك انطاكية الشريفة وسائر المشرق ٠ قال بارونيوس بعد ذلك لم يكن بلسامون بطريركاً على انطاكية الا بالاسم ولم يتمكن ان يقيم بها بل كان بطريركها اللاتيني مستحوذاً على كرسيها ولا يدع بطريرك الروم ان يدنو منه بل كان يسمح باقامة اساقفة الروم في غيرها من المدن للاهتمام بالروم الساكنين فيها وقد شهد بلسامون نفسه بذلك في كتابه الثاني عند شرحه حالة الكنيسة الشرقية مفنداً القانون السادس عشر من المجمع الانطاكي حيث قال ٠ ان اللاتينيين لا يدعون الروم يضعون رجلهم في انطاكية او اورشليم او طرسوس فاورشليم استحوذ عليها المسلمون وكرسي انطاكية غصبه بطريرك اللاتين وكرسي طرسوس غصبه الارمن واما باقي الكنائس المتعلقة باورشليم وانطاكية وبعض الكنائس الشرقية المختصة بالقسطنطينية فلا تخلو من اساقفتها لان السلطان واللاتينيين والمسلمين يبيحون اساقفة هذه الكنائس ان يدبروا كنائسهم ويهتموا بالمسيحيين المقيمين هنالك ٠

ثم استطرد بارونيوس الى انتقاد كتاب بلسامون وتبيين ما حواه من المطاعن

بالكنيسة الرومانية ومن الاغلاط التاريخية وتحريفه بعض قوانين المجامع ومراسيم الملوك ثم روى في تاريخ سنة ١١٩٣ ان الملك اسحق انج عزل نيقيطا البطريرك القسطنطيني عن كرسيه وكان بلسامون هائماً ان ينتقل من بطريركية انطاكية الى بطريركية قسطنطينية وكان بعضهم يزعمون ان نقل البطاركة من كرسي الى اخر محظور بقوانين اليمة فاثبت بلسامون للملك ولبعض الاساقفة ان هذا النقل غير محظور وان بعض الملوك اثبتوه بمراسيمهم ثم عقد الاساقفة المجتمعون هناك مجمعاً واقروا هذا الامر على ان بلسامون لم ينتفع بما اثبته لان الملك اسحق فضل عليه دوزيتاس البطريرك الاورشليمي فنقله الى كرسي قسطنطينية وقد اثبت ذلك نيقيطا كونياتس في ترجمة الملك اسحق المذكور وقد استمر بلسامون بطريركاً على انطاكية من سنة ١١٨٦ الى سنة ١٢١٤ وعن بعضهم انه توفي سنة ١٢٠٣ انتهى

عد ٨٥١

في بطاركة اورشليم في القرن الثاني عشر

اخر من ذكرنا من بطاركة اورشليم في القرن الحادي عشر هو سمعان الثاني الذي توفي سنة ١٠٩٩ وجاء في الجدول الذي وضعه دوزيتاوس لبطاركة اورشليم ان اوتيميوس خلف سمعان المذكور ولكن قد ابنا ان هذا غير صحيح وان المعتمد عليه ان اوتيموس كان قبل سمعان وان الذي خلف سمعان انما هو اغابيوس وفي تاريخ بطاركة اورشليم في هذا القرن تشوش وغموض لا سبيل الى ازالتهما فقد جاء في كتاب الناموس الرومي اللاتيني (فصل ٤) ذكر لاغابيوس انه انتقل من كرسي سلوقية الى كرسي اورشليم ولكن قيل ان هذا النقل كان في ايام الملك باسيليوس اعني نحو سنة ٩٨٤ وروى نيكوفور كاليستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) ان اغابيوس نقل الى كرسي انطاكية فلا يعلم متى كان اغابيوس هذا وهل كان في انطاكية اورشليم

وجاء في جدول دوزيتاوس المذكور ايضاً ان سابا خلف اغابيوس في ايام الكسيس كومنانس اي في اواخر القرن الحادي عشر واوائل الثاني عشر وانه نقل من كرسي قيصرية فيلبس الى بطريركية اورشليم وانه سار الى قسطنطينية وخدم الاسرار الالهية مع نيقولاوس بطريركها وجاء في كتاب الناموس المذكور ما يشعر بذلك ولكن روى نيكوفور كاليستس (ك ١٤ فصل ٣٩) ان الذي سار الى قسطنطينية في ايام نيقولاوس بطريركها انما كان اسقفاً على صور ولم يذكر اسمه ونيقولاوس هذا البطريرك القسطنطيني هو المسمى الغراماطيقي وقد صير بطريركاً سنة ١٠٨٤ فان صح ان بطريركاً اورشليمياً سار الى قسطنطينية واجتمع بنيقولاوس بطريركاً كان سمعان الذي ذكرناه في تاريخ القرن الحادي عشر ولا ذكر في الجداول اللاتينية لسابا في عداد بطاركة اورشليم بعد ولاية الفرنج عليها قال لكويان لم نذكر سابا هذا الا لانه ربما كان بطريركاً على اورشليم قبل سمعان او بعده ولكن لا وسيلة لنا للقطع بذلك

وجاء في جدول دوزيتاوس ايضاً ان اوخاريوس خلف سابا ولعله من سماه لاون الاتيوس (في ك ٢ في توفيق الكنائس فصل ١٨) مكاريوس وقال انه كتب مقالة يخالف بها اللاتينيين على ان دوزيتاس قال ان اوخاريوس كان بطريركاً على اورشليم يوم فتح بودوين ملك اورشليم عسقلان وهذا الفتح كان سنة ١١٤٦ م قال لكويان ربما تصحف على دوزيتاوس اسم فلكادوس بطريرك اللاتين على اورشليم حينئذ باسم اوخاريوس فقد اثبت كثيرون ان فلكادوس بطريرك اورشليم اللاتيني شهد حصار عسقلان ثم ذكر دوزيتاوس بعد اوخاريوس يعقوب ونعته بالثاني ولا نرى في غير جدوله اثراً ليعقوب هذا

وذكر دوزيتاوس بعد يعقوب ارسانيوس ونعته بالاول وقد غفل عن ارسانيوس الاخر الذي ذكرناه قبلاً ثم قال في كتابه السابع فصل ٢٢ ما يؤخذ

منه ان ارسانيوس هذا كان في سنة ١١٤٦ وهذا يؤيد ما قلناه انفاً من ان دوزيثاوس لم يميز بين فلكادس البطريرك اللاتيني الذي كان سنة ١١٤٦ وبين اوخاريوس بطريرك الروم والا لكان للروم بطريركان لابرشية في وقت واحد وهما اوخاريوس وارسانيوس

وذكر دوزيثاوس بعد ارسانيوس يوحنا السابع وقال انه كان في ايام الملك عمنوئيل كومنانس وعزا اليه (في ك ٧ فصل ٢٢) مقالات في المطهر وانبثاق الروح القدس ردّاً على اللاتين وانه شهد المجمع الذي عقد في قسطنطينية سنة ١١٥٦ بشان ذبيحة القداس مع قسطنطين بطريركها في ايام الملك عمنوئيل كومنانس لكن المعلوم ان هذا المجمع عقده حينئذٍ لوقا كريسبورج خليفة قسطنطين المذكور ووقع عليه نيقولاوس بطريرك اورشليم ودوزيثاوس يسميه يوحنا السابع وقد اقترح بودوين ملك اورشليم حينئذٍ على عمنوئيل كومنانس ملك الروم ان لا يرقي بطريرك انطاكية الى كرسيها دون استشارة اساقفة بطريركيتها ويظن ان ذلك شمل بطريركية اورشليم ايضاً وقد راينا توقيع نيقولاوس بطريرك اورشليم مع توقيع لوقا بطريرك قسطنطينية على حط سوتريكس البطريرك الانطاكي المار ذكره عن كرسيه لما بثه من الضلال والحاصل ان البطريرك الاورشليمي حينئذٍ كان نيقولاوس لا يوحنا السابع الذي لم يذكره احد الا دوزيثاوس

وذكر دوزيثاس بعد يوحنا السابع نيكوفر الثاني وقد شهد المجمع الذي عقد في القسطنطينية سنة ١١٦٦ كما روى الاتيوس (ك ٢ في توفيق الكنائس فصل ١٢) وقال ان عنده من اعمال هذا المجمع نسخة مخطوطة وقد بحث في هذا المجمع عما اذا كان اعتقاد بعض الالمانيين ان المسيح مساوٍ للآب من حيث اللاهوت ولا ينقص عنه بسبب الناسوت يطابق الايمان القويم وحكم بصحة معتقدهم ثم ان توادورس بلسامون ذكر نيكوفور هذا في تفسير القانون السابع والثلاثين فلا مرية

بطريركيته ولكن لا يمكن القطع بسنة ترقيه او سنة وفاته

وصير بعد نيكوفور المذكور اناسيوس الثاني ولما فتح السلطان صلاح الدين الايوبي اورشليم وطرد الفرنج منها رحل هرقل البطريرك اللاتيني عنها الى عكا فساد اناسيوس هذا الى اورشليم واثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨ رسالة كتبها جيورجيوس متريبوليط كورشيرا المذكور آنفاً الى اناسيوس هذا بطريرك اورشليم عنوانها جيورجيوس متريبوليط كورشيرا الى السيد اناسيوس بطريرك اورشليم الكلي القداسة ، والرسالة ودادية يذكره بها بمحبته له واشتياقه الى رؤيته ويعتذر له عن اتمام ذلك بامراضه واثبت بارونيوس ايضاً جواب اناسيوس الى جيورجيوس المذكور وبه يرثي حالة اورشليم في ذلك الوقت فنقد باجيوس كلام بارونيوس هذا قائلاً ان الروم لم يقيموا اناسيوس بطريركاً على اورشليم قبل سنة ١١٩٣ كما يتبين مما سنقوله في تاريخ السنة المذكورة وعليه فيلزم ان تكون رسالة جيورجيوس المذكورة الى اناسيوس وجواب اناسيوس له قد كتبا في سنة ١١٩٣ لا سنة ١١٨٨ كما ذكرهما بارونيوس ثم ذكر بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩٣ ان انجـ اسحق ملك الروم عزل تلك السنة نيقيطا موندانس عن بطريركية قسطنطينية ونقل دوزيتاوس بطريرك اورشليم الى كرسي قسطنطينية فقال باجيوس لم يكن عزل نيقيطا موندانس في هذه السنة بل في السنة السابقة وخلف لاونتيوس الراهب نيقيطا المذكور ثم اعتزل في سنة ١١٩٣ فخلفه دوزيتاوس متنقلاً من كرسي اورشليم الى كرسي قسطنطينية وهذا يخالف ما قاله باجيوس في تاريخ سنة ١١٨٨ من ان الروم لم يقيموا اناسيوس قبل سنة ١١٩٣ لان اناسيوس هذا كان قد توفي سنة ١١٨٨ وخلفه لاونتيوس وخلف دوزيتاوس لاونتيوس المذكور ثم نقل سنة ١١٩٣ الى كرسي قسطنطينية كما قال باجيوس نفسه فبقي قول بارونيوس ثابتاً سالماً من النقد وذكر السمعاني في المجلد الاول من المكتبة الشرقية صفحة ٦٣٠ ان الكتاب السابع والسبعين من الكتب

التي اخذها من المشرق الى المكتبة الواتيكانية يشتمل على خمس وستين خطبة لاثناسيوس البطريرك الاورشليمي وان الكتاب التسمين من تلك الكتب انطوى على ست وستين خطبة قال لكويان لا يمكن القطع بان هذه الخطب لاثناسيوس حقيقةً

وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨ ان اثناسيوس توفي في هذه السنة وخلفه لاونتيوس في بطريركية اورشليم وقد وصفه نيقيطا كونياتس (ك ٢ من تاريخه عد ٤) انه كان رجلاً عالماً فاضلاً وتوفي سنة ١١٩٢ ولا علم لنا بغير ذلك من امره

وقام بعد لاونتيوس دوزيتاوس وكان من البندقية مولدًا واتى الى قسطنطينية لطلب العلم وانبأ اسحق انج انه سوف يكون ملكاً فلما استوى على منصة الملك صرف عنايته الى اقامة دوزيتاوس بطريركاً على اورشليم بعد وفاة لاونتيوس وقد عزل هذا الملك لاونتيوس الاخر عن بطريركية قسطنطينية سنة ١١٩٣ واقام دوزيتاوس بطريرك اورشليم في مكانه بعد ان افتى له توادورس بلسامون ان القوانين البيعية تجيز نقل البطاركة من كرسي الى اخر طمعاً بان ينقله الملك من كرسي انطاكية الى كرسي قسطنطينية فاثر الملك دوزيتاوس بطريرك اورشليم عليه وكان الشعب يمقت دوزيتاوس ويسخر منه كما روى بارونيوس نقلاً عن نيقيطا كونياتس في تاريخ سنة ١١٩٣ حتى اضطر ان يترك بطريركية قسطنطينية ويعود الى اورشليم وجاء ذكر دوزيتاوس هذا في الجدول الذي نظمه دوزيتاوس الاخر البطريرك الاورشليمي في القرن السابع عشر لبطاركة اورشليم الى ايامه

وبعد ان نقل دوزيتاوس الى كرسي قسطنطينية اقيم مكانه مرقس على كرسي اورشليم ويلقب فلورس وقال فيه نيكوفور كاليستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) انه طرد من كرسيه ظلماً لان دوزيتاوس ترك كرسي قسطنطينية وعاد الى اورشليم

ولا يعلم ما كان لمرقس بعد ذلك ولا متى توفي دوزيتاوس والمعلوم ان توافان الاول كان بطريركاً على اورشليم في اخر القرن الثاني عشر او بدء القرن الثالث عشر وهذا يظهر من رسالة انفذها اليه مرقس البطريرك الاسكندري الذي كان معاصرًا لثاودورس بلسامون ولم يذكر دوزيتاوس الثاني في جدول بطاركة اورشليم توافان هذا بل روى ان غريغوريوس الآتي ذكره خلف دوزيتاوس الاول ثم صير لاونتيوس بطريركاً على اورشليم خلافاً لما مر . (انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي وعن تاريخ بارونيوس في السنين المذكورة)

عد ٨٥٢

في بطاركة انطاكية واورشليم اللاتينيين في هذا القرن الثاني عشر

راينا ان ذكر البطاركة اللاتينيين على انطاكية واورشليم في هذه القرن لا يخلو من الفائدة ولذلك اردنا ذكرهم هنا بما امكن من الايجاز نقلاً عن لكويان في المشرق المسيحي

بطاركة انطاكية اللاتينيين في القرن الثاني عشر

كان لبطريرك انطاكية عند اللاتين من الكراسي الاسقفية اللاذقية وجبلة وطرطوس واطرابلس وجبيل واول بطريرك اقيم فيها منهم برندس سنة ١٠٩٩ وكان افرنسياً من فالنس وقد طلب الملك بودوين الاول من البابا بسكاليس الثاني ان يخضع لبطريركية اورشليم جميع المدن التي يفتحها فاجابه البابا الى ذلك فشكا برندس بطريرك انطاكية من ان هذا مجحف بحقوق كرسيه الانطاكي فامر البابا سنة ١١١٣ ان تبقى الولاية لكلا الكرسيين على ما كانت عليه قبل استيلاء الفرنج على مدن سورية وتوفي برندس سنة ١١٣٥ على ما روى غوليلمس اسقف صور في تاريخه وروى غيره ان وفاته كانت سنة ١١٣٢ وخلفه رودلفس ويسمى الاول انتخبه الشعب وطاعه بعض الاكابرس وعصاه بعضهم واتشح بالباليوم ودرع الرئاسة

قبل ان يثبته الحبر الروماني مدعياً انه خليفة بطرس في انطاكية كخلافة البابا له برومة فطرده امير انطاكية منها فسار الى رومة فشفع به اصدقاوه الى الحبر الروماني البابا اينوشنسيوس الثاني فقبله وامر ان يخلع الباليوم الذي اخذه من نفسه ويعطى باليوم اخر وان يعود الى انطاكية لتسمع دعواه فيها ونصب البابا قاصداً لذلك فمات القاصد بعكا فنصب اخر وعقد مجمعاً بانطاكية سنة ١١٣٦ ودعي رودلفس اليه فلم يحضر فحط عن مقامه وحبس في دير ففر منه الى رومة مستغفراً ثم ادركته المنية قبل مسمماً سنة ١١٤٢ روي كل ذلك غوليلمس الصوري

وخلف ايماريكس ويسمى اموري رودلفس المذكور واستمر في البطريركية زماناً طويلاً قال لكويان زعم غوليلمس الصوري ان الموارنة ارعووا عن بدعة المشيئة الواحدة في ايام هذا البطريرك سنة ١١٨٢ والصحيح ان هذا الارعواء لا يصدق على الموارنة باجمعهم بل على فريق منهم كان قد اغتر بكتاب توما الحارافي اسقف كفرطاب كما ذكرنا في مقدمة كلامنا على الموارنة واستمر ايميريكس حياً الى سنة ١١٨٧ كما يظهر من رسالة كتبها الى اريكس الثاني ملك انكلترا وتوفي في اخر السنة المذكورة او سنة ١١٨٨ وخلفه رودلفس الثاني على ما روى العلامة السمعاني في الجداول التي وضعها لبطاركة انطاكية وتوفي رودلفس هذا سنة ١٢٠٠

اما بطركية اورشليم اللاتينية فكانت تلي اربع متربوليطيات اولها صور ويخضع لمطرانها اساقفة عكا وصيدا وبيروت وبانياس . والثانية قيصرية ويخضع لمطرانها اسقف سبسطية وهى السامرة ولم يكن لحيفا اسقف بل كانت خاضعة لمطران قيصرية . والثالثة الناصرة ويخضع لمطرانها اسقف طبرية وكانت المطرنية لباسان فنقلت الى الناصرة تبركاً . والرابعة بصرى ويخضع لمطرانها اسقف دوم في جبل سينا وكان اساقفة بيت لحم وحبرون (الخليل) ولد يخضعون لبطريرك اورشليم راساً

واول بطريرك لاتيني على اورشليم وايمبر وكان سفير البابا مع الصليبيين فانتخبوه بطريركاً سنة ١٠٩٩ وقاومه ارنولفوس مدبر اعمال البطريركية وسار وايمبر الى رومة فرده الحبر الروماني معززاً الى كرسيه ثم توفي سنة ١١٠٧ هذا ما رواه لكويان وهو اولى بالتصديق مما ذكره بعضهم من ان وايمبر اعتزل البطريركية سنة ١١٠٣ او سنة ١١٠٤ واقيم بعده ابرامار رئيس اساقفة قيصرية الى سنة ١١٠٧

وخلف جيباليس وايمبر على الاصح سنة ١١٠٧ فتغلب على البطريركية ابرامار المذكور فعزله الكرسي الرسولي واثبت جيباليس الذي توفي سنة ١١٢١ فخلفه ارنولفس الذي كان يدبر مهام البطريركية وقد قاوم وايمبر كما مر ثم توفي ارنولفس سنة ١١١٨ وخلفه كورماندس وبقي في البطريركية عشر سنين وتوفي سنة ١١٤٥ وخلفه فولكاريوس اوفواشر رئيس اساقفة صور وتوفي سنة ١١٥٧ وخلفه الماريكس وتوفي سنة ١١٨٠ وخلفه هرقل وكان رئيس اساقفة قيصرية فاعترض غوليلمس اسقف صور على انتخابه فحرمه البطريرك فلجأ الى رومة ومات غوليلمس فيها وفي ايام هرقل اخذ صلاح الدين الايوبي اورشليم من الفرنج وتوفي هرقل سنة ١١٩١ ويقال ان البابا شالستينس الثالث انتخب للبطريركية كيراس رئيس الكرمليين فلم يقبل وانتخب ميخائيل شماس كنيسة باريس فانتخب الى اسقفية اخرى ونصب بها فبقي كرسي اورشليم فارغاً الى سنة ١١٩٤ حين انتخب مونوماكس وسماه بعضهم اموري او الماريك وكان اسقفاً على قيصرية وتوفي سنة ١٢٠٣ وقيل سنة ١٢٠٢ انتهى

عد ٨٥٣

في اساقفة سورية في القرن الثاني عشر

توما اسقف كفرطاب

كان اسقفاً على كفرطاب كورة حلب يعقوبي المذهب اختلف مع رؤساء

منه فشايع اصحاب بدعة المشيئة الواحدة وكتب كتاباً سماه المقالات العشر وافتتحه بقوله « نخبركم يا اخوة لما كانت سنة ١٤٠٠ من تاريخ اسكندر بن فيلبس المكدوني (سنة ١٠٨٩ م) جرت مكاتبات ومراسلات بين بطرك الروم في مدينة انطاكية وهو الانبا يوحنا وبين توما مطران كورة حلب الماروني لانه جرى بينهما تصحيح المذهب المسيحي باعتقاد الايمان المقدس وكان الامر في اعتقاد الملكيين بالمشيئتين لذي الطبيعتين وفي تصحيح مذهب الموارنة بتأنس ربنا من لاهوت وناسوت طبيعتين متحدتين بمشيئة واحدة فلما كثر التصحيح بينهما جعلت كتب الانبا يوحنا تتوارد الى الانبا توما وكتب توما الى الانبا يوحنا فعند ذلك كتب الانبا يوحنا بطريرك انطاكية رسالة طويلة الشرح كثيرة المعنى وارسلها مع قاصد الى الانبا توما مطران الموارنة الى كفرطاب بلد كورة حلب وهو يحتج عليه فيها ويقول ان كل من لا يعتقد ان لربنا يسوع المسيح مشيئتين فهو ضال في مذهبه ولما وصلت الرسالة الى الانبا توما تاملها فوجد فيها تعاليم كثيرة مخالفة قوانين المجامع وكنيسة الله الجامعة الرسولية فحزن انبا توما حزناً شديداً ... وجعل ينقض رسالة انبا يوحنا كلمة كلمة في تبطيل المشيئتين واثبات المشيئة الواحدة » الى ان يقول لما وصلت هذه الرسالة الى انبا يوحنا عجز عن جوابها والقاها في النار كيلا ينتشر خبرها وعاد توما وكتبها ثانية احسن مما كانت اولاً كل هذا من كلام الكفرطابي الذي اثبتنا مرات انه لم يكن مارونياً وان لم يكن موارنة حينئذٍ في كفرطاب بل سمى نفسه مارونياً ليخدع الموارنة ثم اخبر توما عن نفسه انه سار بعد ذلك الى جبل لبنان وكان يظن انه لا يقيم به الا نصف سنة فحدث ان الافرنج حاصروا طرابلس حينئذٍ فلم يمكنه العود فسار الى جبة يانوح فاقام اربع سنين وعاد الى جبة بشري واقام بها سنتين وانه اتاه ذات يوم خوري ماهر قديس من اهل قرية فرشع وساله ان يجدد له تلك الرسالة التي كتبها الى يوحنا بطريرك انطاكية فجددها له وكتابه المقالات العشر يشتمل على

تلك الرسالة ويظهر من كتابه المذكور انه كتب رسالة الى ارسانيوس مطران العاقورة سماها رسالة العدل ليبين له فيها ان القديس مارون وقدماء الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة مستنداً الى اقوال سعيد بن البطريق وانه يلزم الموارنة ان يعودوا الى معتقد اجدادهم فاجابه المطران ارسانيوس ناقضاً زعمه ومبيناً ضلاله وكذلك قاومه البطريرك يوسف الجرجسي بطريرك الموارنة حينئذ حتى لم ينخدع بضلاله الا خوري فرشع او كفرشع ونفر قليل مع انه اقام بلبنان ست سنين جائلاً في جبة بشري وعملي البترون وجبيل ومحرفاً كتب الموارنة او زائداً عليها ما يوافق مقصده ويساعده على خدعة الموارنة وقد صنع مثل ذلك خاصة في كتاب ايضاح الايمان للقديس يوحنا مارون وفي كتاب الهدى للمطران داود الماروني (كما انبأنا في الكلام على يوحنا مارون وعلى المطران داود المذكور) ومع ذلك عصم الله الموارنة من احبولة خداعه وقد صرح بانه اراد تصحيح مذهب الموارنة ولم يذعن لزعمه الا خوري فرشع ونفر قليل فعاد بخفي حنين فكلامه اذاً في كتابه المذكور وفي رسائله للمطران ارسانيوس العاقوري وغيره هو حجة قاطعة للموارنة على تشبثهم حينئذٍ بعقيدة المشيئتين بالمسيح لا حجة عليهم بهذا الضلال فلو كانوا متمسكين به حينئذ ما كانت حاجة الى هذا التعب كله من قبله لتصحيح ايمانهم وردهم الى هذا الضلال ولا من قبل بطريرك الموارنة ومطرانهم لمناصبته في ذلك.

وقال فيه ابن القلاعي في قصيدة في ذوي البدع

تبعهم توما من حاران	من قمته الصدق يبان
في كورة حلب كان مطران	وكرسيه ليس هو سمعاني
قلت لي انه من ماردين	زدتني به رغبة ذا الحين
ماردين مسكن الشياطين	نسطور ويعقوب سكاني
قلت انه جاء لجبل لبنان	شهدت انه جا للطغيان

ومارون في سذاجة الان ينصت لمن هو سرياني

ومن قوله انه اتى لبنان عند حصار الفرنج لاطرابلس يظهر ان اتيانه كان سنة ١١٠٤ او سنة ١١٠٥ ومن قوله انه اقام بلبنان ست سنين يظهر ان رجوعه منه كان سنة ١١١٠ او ١١١١ ولم نعثر على ما ينبأنا ماكان من امره بعدئذ ولا متى كانت وفاته

﴿ غوليلمس الصوري ﴾

اقام الفرنج اساقفة لاتينيين لهم في كل من المدن الاسقفية وليس كبير فائدة في استقراء اسمائهم والبحث عن اعمالهم واشهر من كان منهم في هذا القرن غوليلمس رئيس اساقفة صور وهو سوري مولدًا واصلاً على ما قال بعضهم منهم نطاليس اسكندر وقد ولد في اورشليم نحو سنة ١١٢٧ وسار الى المغرب فتخرج هناك في العلوم ولما عاد الى اورشليم سنة ١١٦٢ احبه اموري ملك اورشليم واعتمد عليه واقيم بعنايته رئيس شمامسة في كنيسة صور المتربوليطية سنة ١١٦٧ وعهد اليه بتربية ابنه بودوين الرابع واوفد مرات الى قسطنطينية وروما وسعى بعقد معاهدة بين عمنوئيل ملك الروم وملك اورشليم سنة ١١٦٨ وصير اسقفاً على صور سنة ١١٧٤ وشهد مجمع لاتران الثالث سنة ١١٧٧ وابى ان يخضع لسلطة هرقل بطريرك اورشليم اللاتيني معترضاً على انتخابه وكان بينهما خلاف مشهور واختلف في سنة وفاته فقال بعضهم سار الى رومة سنة ١١٨٢ بسبب الاختلاف بينه وبين البطريرك وبقي في المغرب وقد دعا بمواعظه وخطبه الى حملة الفرنج الثالثة على سورية وتوفي سنة ١١٩٣ وعن مكمل تاريخه على ما في مجموعة تاريخ الصليبيين المطبوعة في باريس سنة ١٨٥٩ ان غوليلمس رجع من صور الى ايطاليا سنة ١١٨٠ لانه اعترض على انتخاب هرقل البطريرك الاورشليمي واغتابه فحرمه البطريرك فاستغاث بالحبر الروماني وسار الى رومة وارسل البطريرك خفية معه رجلاً رشاه بمبلغ من المال فدس له سماً مات به على ان الواضح من خلاصة تاريخ غوليلمس المعلقة في اخر المجلد الثاني من المجموعة

المذكورة ان وفاة اموري بطريرك اورشليم وانتخاب هرقل خليفته كانا في سنة ١١٨٠ وان غوليلمس عاد من رومة وقسطنطينية الى صور في ١٤ نيسان هذه السنة وان البطريرك اموري توفي في ٨ تشرين الاول من هذه السنة وان انتخاب هرقل واعتراض غوليلمس عليه كانا حينئذ في الشهر المذكور وان حرم هرقل البطريرك لغوليلمس اسقف صور كان بين سنة ١١٨٣ وسنة ١١٨٤ وانه حينئذ استغاث بالكرسي الرسولي وسار الى رومة فمات فيها تلك السنة مسموماً وقد قيل في مقدمة المجلد الثاني من المجموعة المذكورة المطبوعة في بريس بعناية جمعية الخطوط القديمة سنة ١٨٥٩ ما ترجمته . ان غوليلمس كان قد سار الى رومة ليبرئ ساحته من الشكايات التي اوردها عليه هرقل البطريرك الاورشليمي فمات هناك بغتة ضحية لبغض هرقل له فهذا ما نعتقده بعد البحث الوافي ومراجعة كثير من كتب التاريخ الموثوق بصدقها وسوف نورد في نبذة مخصوصة بينات لا ترد تثبت صحة هذا الراي .

قد كتب غوليلمس تاريخه الشهير في اثنين وعشرين كتاباً ضمن الاول منها بعض افادات تاريخية موجزة عن اخذ العرب اورشليم سنة ٦٠٦ ثم اخذ الفرس لها ونقل خشبة الصليب منها الى بلاد فارس ورد الملك هرقل لها الى اورشليم وملك الخلفاء سورية وحرق الحاكم بامر الله الخليفة العلوي كنيسة القبر المقدس وتجديد نيكوفور بطريرك اورشليم لبنائها سنة ١٠٤٨ الى غير ذلك ثم شرع في كتابة تاريخ الصليبيين من رجوع بطرس السائح الى رومة سنة ١٠٩٥ وقالوا ان ما تضمنه تاريخه في الكتاب الاول الى الكتاب الخامس عشر اعني من سنة ١٠٩٥ الى سنة ١١٤٤ لم يكن الا خلاصة ما كتبه غيره من المؤرخين واما ما كتبه من تاريخ سنة ١١٤٤ الى سنة ١١٨٤ فقد كتبه بعلم نفسه وقد قال في مقدمة مؤلفه ان اموري ملك اورشليم اقترحه عليه وانه دفع اليه بعض الكتب العربية وانه اعتمد منها على اقوال

الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الملكي الاسكندري وقد اخذ عنه ما قاله في تهمته الشهيرة للموارنة التي سنردها ان شاء الله في الملحق الآتي في تاريخ الموارنة في هذا القرن . ويقال ان له تاريخاً للعرب اضاعته الايام

عد ٨٥٤

في ديوانيسيوس بن صليبا

هو من ملاطية (بارمينية الصغرى) واسم ابيه صليبا فيعزى اليه وكان اسمه قبل استقفيته يعقوب فبدله بعدها بديونيسيوس وهو يعقوبي مذهباً وقال فيه البطريرك اسطفانس الدويهي في فصل ٧ من كتابه المنائر العشر ، ديوانيسيوس بن صليبا من ميليطيني اسقف آمدله شرح على رتبة القداس ارسله الى اغناتيوس مطران بيت المقدس سنة ١٤٨٠ يونانية الموافقة سنة ١١٦٩ م ليقاوم به الفرنج لذين كانوا قد ملكوا الارض المقدسة . وقال فيه ابن العبري في تاريخه السرياني ما ملخصه ، ان اثناسيوس بطريرك اليعاقبة رقاه الى اسقفية مرعش سنة ١١٥٤ ثم عقد مجمعاً في دير برصوما سنة ١١٥٥ والحق منبج باسقفية مرعش فصار ديوانيسيوس اسقف مرعش ومنبج وفي سنة ١١٦٦ نقله ميخائيل الكبير بطريرك اليعاقبة الى اسقفية آمد فدبرها خمس سنين وتوفي سنة ١١٧١ ، انتهى كلام ابن العبري وبعد ان رواه السمعاني رجع عما كان دونه في اول ترجمة ابن صليبا وملخصه ان ديوانيسيوس بقي حياً الى سنة ١١٩٢ التي بها صير ميخائيل الكبير بطريركاً على اليعاقبة والقى خطبة عند ترقيته بل لم يمت قبل سنة ١٢٠٧ لانه ذكر في كتابه في البدع فصل ٥٤ ارتقاء البطريرك ميخائيل الصغير ابن اخي البطريرك ميخائيل الكبير الى بطركية اليعاقبة في السنة المذكورة اي سنة ١٢٠٧ فقال السمعاني بعد ارتجاعه عن رايه ان تاريخ ترقية ميخائيل الصغير لم يذكره ابن صليبا بل مكمل تاريخه وقد اغتر نيرون البناني بقوله (في كتابه سلاح الايمان) ان ديوانيسيوس هذا كان بعيد المجمع

الحلكيدوني وقد كتب ابن صليبا باللغة السريانية الفصيحة كتباً كثيرة منها كتاب في تفسير اسفار العهدين القديم والحديث اعتمد فيه على تفسيرات فم الذهب وكيرلس وموسى بركيفا ويوحنا اسقف دارا وغيرهم واورد السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٥٧ وما يليها) عدة فقر من تفسيره في مباحث ذات اهمية . وله كتاب في اللاهوت وكتاب في الرد على البدع وشرح في الميرون المقدس وشرح في الدرجات المقدسة ومقالة في سر الاعتراف والتوبة اثبتها السمعاني في المجلد المذكور من المكتبة الشرقية. وله نافوران فاتحة احدهما: ܐܠܗܐ ܕܒܫܝܢܐ ܘܒܚܘܒܐ ܪܥܐ اللهمَّ يا من ترتضي بالمحبة وفاتحة الثاني ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܫܝܢܐ ܘܫܠܡܐ ܡܫܡܠܝܐ ܗܒ ܠܢ اعطنا حباً واتفاقاً وايماناً كاملاً وله نافور ثالث بدؤه ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܕܐܢܬ ܗܘ ܚܘܒܐ ܫܪܝܪܐ ܘܡܫܡܠܝܐ ايها الرب الاله الذي انت الحب الحقيقي والكامل ، وهذا النافور مثبت في كتاب في مدرسة الموارنة برومة وقد ذكر البطريرك اسطفانس الدويهي النافورين الاولين في كتابه المذكور وقال ان النافور الثاني طبع برومة سنة ١٥٥٤ وهو خطا لانه لم يطبع برومة نافور لابن صليبا بل طبع برومة تلك السنة نافور معزو الى ديونيسيوس الاريوباجيتي في كتاب قداس الكلدان

وله ديونيسيوس بن صليبا ثلث صلوات تتلى الاولى في قداس اليعاقبة يوم خميس الاسرار والثانية يوم السبت العظيم والثالثة يتلوها اليعاقبة قبل كسر القربان في القداس وله كتاب في شرح رتبة القداس وهو الذي ذكرناه اولاً نقلاً عن الدويهي وقد ذكره رينودوسيوس في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٥٤ وذكره نيرون الباني في كتابه سلاح الايمان وقال ان نسخة منه في كتب الحاقلي ونسخة اخرى كانت في مدرسة الموارنة المقامة في رافنا ويشتمل هذا الكتاب على عشرين فصلاً ذكرها السمعاني (في المكتبة الشرقية مج ٢ صفحة

١٧٧ الى ٢٠٨) فصلاً فصلاً مبيناً اهم ما حواه كل منها وقد ابنا في عد ٧٠٧ ان كتاب ابن صليبا هذا هو غير كتاب يوحنا مارون الموسوم بشرح القداس ايضاً وذكرنا ما بين الكتابين من الاختلاف واوضحنا ان ابن صليبا انتحل بعض كلام يوحنا مارون

الفصل الثاني

في مشاهير العلم الدينيين في القرن الثاني عشر

عـد ٨٥٥

في بعض المشاهير الشرقيين في هذا القرن

لم نهتدِ في ما لدينا من كتب التاريخ الى ترجمة احد من المشاهير الدينيين السوريين في هذا القرن فاقتصرنا على ذكر بعض المشاهير الشرقيين في هذا الفصل وسنذكر في الفصل التالي المشاهير الغربيين في هذا القرن بما امكن من الايجاز

البطريرك ميخائيل الكبير

هو احد بطاركة اليعاقبة وقد اشتهر في اواخر القرن الثاني عشر فيوخذ عن كتاب الاناجيل القديم الموجود في المكتبة الملكية في بريس ان هذا الكتاب خط في ايام هذا البطريرك سنة ١٥٠٣ يونانية الموافقة لسنة ١١٩٢م وقد ذكره رينادوسيوس في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٤٨ وقال في حقه ديوانيسيوس بن صليبا في جدول بطاركة اليعاقبة عد ١٠٠ انه كان راهباً في دير برصوما واشتهر في الفضائل وفي الكتاب الخامس من كتب الحاقلي التي في المكتبة الواتيكانية خطبة لابن صليبا هذا القاها يوم ترقيته الى المقام البطريركي ومن

مؤلفات هذا البطريرك نافور اي رتبة للصلوات التي تتلى في القداس ترجمه ديونوسيوس الى اللاتينية في كتابه المذكور آنفاً وهو مثبت في الكتاب الثالث من الكتب السريانية المخطوطة المأتي بها من الصعيد الى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٢٦ وفاتحته ܐܠܗܐ ܐܚܝܕ ܟܠ ܘܡܪܐ ܕܟܠ اي اللهم الضابط كل شي وسيد كل شي وذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر في الفصل السابع في مؤلفي النوافير المراطقة فقال ميخائيل البطريرك له نافور بدؤه ܐܠܗܐ ܐܚܝܕ ܟܠ ܘܡܪܐ ܕܟܠ وله مقالة في الاستعداد الى تناول القربان الاقدس ذكرها ديونوسيوس في كتابه المذكور ووصفها بلاهوتية وعلمية وقال انه ضمن كتابه هذا الجليل الكلام في فروض الانسان المسيحي وفي الايمان وكيف يستطيع الانسان ان يكون تلميذاً كاملاً للمسيح وفي لزوم التوبة والاعتراف الى غير ذلك وعده ابو الفرج ابن العبري في جملة المولفين الذين كتبوا في القوانين البيعية وله كتاب في الرتب الحبرية والطقوس البيعية وهو مثبت في الكتاب الرابع من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية ويعزى اليه كتاب قديم وجد في الرها مشتملاً على جداول في اسماء بطاركة اليعاقبة والاساقفة الذين رقاهم كل منهم من القرن الثامن الى الثاني عشر وقد ترجمه الى الافرنسية المونسنيور شابو ونشره في المجلة الموسومة بالمشرق المسيحي وتوفي هذا البطريرك في ٧ تشرين الثاني سنة ١٢٠٠ على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركتهم

﴿ يوحنا زوناراس ﴾

قد استشهدنا بكلامه متواتراً وهو مؤرخ يوناني كان في قسطنطينية في هذا القرن كاتباً للملكين يوحنا وعمنوئيل كومنانس ثم ترك العالم واتخذ السيرة الرهبانية على مقتضى قانون القديس باسيليوس وانفرد في جزيرة وانكب على التاليف فصنف تاريخه المشهور ابتدأ فيه من خلق العالم الى سنة ١١١٨ للميلاد التي توفي فيها الكسيس كومنانس واثني العلماء على هذا التاريخ ولا سيما ما كتبه في قسطنطين

الكبير والامراء آل بيته وقد طبع تاريخه مرات منها طبعة الاب مين في جملة
مكتبة الاباء الشرقيين وقد ترجمه الرئيس كوزن الى الافرنسية وطبعت هذه الترجمة
اولاً في بريس سنة ١٦٧٨ وله ايضاً قصائد شعرية وشروح على قوانين الرسل
والمجامع المقدسة وعلى الرسائل القانونية للقديسين ديونيسيوس وبطرس الاسكندريين
وغريغوريوس المعروف بذي العجائب وباسيليوس على ان العلما راوا ان هذه
الشروح نفسها تعزى الى توادس بلسامون البطريرك الانطاكي ولم يحققوا لايهما
هي حقيقة

حنة كومنانس

هي ابنة الملك الكسيس كومنانس وزوجة نيقوفور القيصر وكانت فقيهة عالمة
ضليعة بعدة فنون كتبت تاريخ ابيها الكسيس كومنانس في خمسة عشر كتاباً وانتقد
كلامها كثير من العلماء ولا سيما اللاتينيون في مبالغتها في تعظيم ابيها وفي بغضتها
للاتينيين وقد اثنى زوناراس عليها في المجلد الثالث من تاريخه صفحة ٢٤٢ وسماها
القيصرة العلامة وقال نيقيطا كونياتس (في تاريخه صفحة ٧) انها كانت منصبة على
الفلسفة وضليعة في كل فن

عــد ٨٥٦

في بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن

نكتفي بان نذكر من المشاهير الدينيين الغربيين في القرن الثاني عشر القديس
برندس وبطرس اللمبردي

القديس برندس

ولد القديس برندس بفونتان له ديجون Fontaine les Dijon
بافرنسة سنة ١٠٩٠ او سنة ١٠٩١ واتخذ طريقة الرهبانية وانشأ رهبانية تسمى رهبانها
البرنديين نسبة اليه واقيم رئيساً عليها سنة ١١١٥ وذاع صيت قداسته وفصاحته

حتى تقاطر اليه الرجال من كل فج طالبين الانضواء الى رهبانيته وعظمت شهرته
حتى كان الاساقفة والامراء والملوك بل الاحبار الرومانيون انفسهم يختارونه حكماً
في ما يختلفون به من المسائل ولما نازع اناكليتس اينوشنسيوس الثاني البابوية سنة
١١٣٠ استمال القديس برنردوس اريكس الثاني ملك انكلترا وغيره من الامراء
الى المدافعة عن اينوشنيوس البابا الشرعي واستدعاه هذا البابا الى رومة ثلث مرات
ليتعزز به وقد دعا الى حملة الصليبيين الثالثة سنة ١١٤٦ فلبى دعوته لويس السادس
ملك افرنسة وكونراد ملك المانيا وكان شديد المدافعة عن الدين الكاثوليكي فناصب
من المبدعين ابالاردوس وبطرس برديس وادنلدوس من براشيا وغيرهم واخمد
ثورة الراهب راول الذي حاول ان يهيج الناس على قتل اليهود جميعاً وانشأ
لرهبانيته نحو اثنين وسبعين ديراً منبثة في انحاء اوروبا كلها حتى قال فيه بعضهم انه
كان حلية عصره وزينة دهره ومعلم الباباوات والاساقفة والملوك والامراء برسائله
وقداسته ومطرقة اصحاب البدع بتفنيده ضلالهم واجرى الله على يده آيات باهرة
ونقله تعالى اليه سنة ١١٥٣ واحصاه البابا اسكندر الثالث في مصاف القديسين سنة
١١٧٤ وتعيد له الكنيسة اللاتينية في ٢٠ اب يوم وفاته وتعيد له طائفتنا المارونية في
ذلك اليوم ٠ والف كتباً كثيرة نشرها مايلون في ستة مجلدات بقطع كامل سنة
١٦٩٠ ثم طبعت بعد ذلك مرات وهي مشتملة على مقالات لاهوتية ورسائل
وخطب باللغة اللاتينية وله مدائح رنانة للعذراء الكلية الطوبى وهو الذي زاد على
الصلوة السلام لك ايتها الملكة ام الرحمة الفقرة الاخيرة وهي ٠ يا شفوقة يا راوفة
يا مريم البتول الحلوة اللذيذة صلي لاجلنا يا والدة الله القديسة ٠ وباقي هذه الصلوة
تاليف ويمر نائب البابا في حملة الصليبيين الاولى الذي صير بعد ذلك بطريركاً لاتينياً
على اورشليم ومما حكي عن القديس برنردس ان البابا امره يوماً ان يلقي خطبة
عليه وعلى الكرادلة والاساقفة المجتمعين للممارسات الروحية فاعتذر فلم يقبل البابا

عذره فاستمهل فامهله ثلثة ايام واتى في الوقت المعين وصعد على المنبر وأجال باصرتيه بالحاضرين وقال « اعملوا بما تعلمون » ونسل عن المنبر وتوارى فكانت عبارته عظة كبرى اشغلت سامعيها بالتامل بها مدة طويلة

﴿ بطرس اللمبردي ﴾

ولد في نوفاريا بلمبرديا احد اعمال ايطاليا في اواخر القرن الحادي عشر وتخرج في العلوم برنس بافرنسة ونال رتبة الملفنة في كلية بريس وعلم فيها اللاهوت ثم رقي الى اسقفية بريس سنة ١١٥٩ وفي رواية اخرى سنة ١٠٥٨ وتوفي سنة ١١٦٠ وله مؤلف في اللاهوت قسم الى اربعة كتب وسماها كتب الآراء جمع فيها اراء الآباء في كل مبحث من مباحث اللاهوت لكنه اهمل القطع بصحة كثير منها فيورد اقوال الآباء في ذلك المبحث وقلما يعني بتبيا ولذلك كان كتابه موضعاً للجدال بين العلماء وشرحه كثير من العلماء ولا سيما القديس توما الاكويني وانتقده كثيرون منهم في عدة مسائل واكسبه هذا التأليف لقب معلم الآراء ويسمى اللمبردي نسبة الى لمبرديا مولده وله تفسير للزبور ولرسائل القديس بولس الرسول . انتهى

ذيل

لم يكن في هذا القرن بدعة حديثة في المشرق بل كان في المغرب بعض المبدعين كبطرس ابايلاردوس وارنلدوس من براشيا وبطرس فالدوس وغيرهم ولم تكن بدعهم ذات اهمية او لم تدم الا زمناً وجيزاً وقل من شايعهم عليها ولذا لم نحفل الا بالاشارة اليها

ملحق

في تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

عد ٨٥٧

في حالتهم الدنيوية في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن الثامن عد ٧٤٢ ان حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان وتعذر احراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم والمزاحمة لهم على ارضيه وانه يظهر ان الخلفاء كانوا يولون عليهم ولاة مسيحيين وايدنا ذلك بشهادة العلامة السمعاني في مؤلفه مكتبة الناموس (مج ٤ صفحة ٣٩٤) والان نقول يظهر ان الموارنة سكان لبنان استمروا على ذلك الى هذا القرن وما بعده ايضاً متنعمين بنوع من الاستقلال الاداري بفضل الخلفاء ولما اتى الفرنج وملكوا السواد الاعظم من سورية لم ينزعوا عنهم هذه النعمة بل تركوهم واستقلالهم المذكور وهذا توكده لنا ادلة كثيرة قاطعة فلم نعثر في كل ما قلبناه من كتب التاريخ لاخذ تاريخ الخلفاء ما يؤذن بان الخلفاء نصبوا عاملاً على لبنان او على مدنه غير الساحلية فقد ذكروا متواتراً عمال النواحي كطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحماه وحمص وبعلبك ولكن لم نر ذكراً لعامل في لبنان او احدى مدنه او قراه الجبلية بل لم نجد اثراً لاقامة المسلمين في انحائه الا بعد اواخر القرن الثالث عشر ولا في سواحله او ما يقرب منها كاقامة امراء الغرب من آل تنوخ في عمل الغرب القريب من بيروت فان الملوك والامراء المسلمين اقاموا في مدة حربهم مع الفرنج هؤلاء الامراء في العمل المذكور وبعد طردهم الفرنج من هذه البلاد

اسكنوا عشائر من المسلمين في سواحل لبنان ليكونوا حاجزاً بين نصارى لبنان وبين الفرنج اذا عادوا الى سورية كما سياتي

ولما فتح الفرنج سورية وملكوا مدنها الساحلية لم يعترضوا النصارى سكان لبنان في تدبير امورهم الداخلية ولم يمسوا ما كانوا عليه من الاستقلال فلا نراهم نصبوا عاملاً على غير المدن الساحلية ولا الفينا ما يدل على انهم حاربوا سكانه او ان سكانه استسلموا اليهم او تركوا لهم تدبير شؤون بلادهم كما لا نرى ان الحكام المسلمين استعانوا بهم على حرب الفرنج او جندوا قوماً منهم لمحاربة الفرنج ولو كانوا يلونهم كغيرهم من سكان السهول والمدن البحرية لما اهملوا تكليفهم الى انجادهم في حروبهم كما كانوا يصنعون مع باقي مسوديهم بل لو كان للولاة المسلمين الولاية المطلقة على سكان الجبل لما استطاع الفرنج ان يتمكنوا في اطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا لاكتناف الجبل هذه المدن ومن عرف موقعها قضى بما نحن مثبتون

وقد جاء في كتاب تاريخ الموازنة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠ (صفحة ٢٧٩) ذكر امراء لبنان مع تعيين اسمائهم وسني ولايتهم نقلاً عن رسالة للخوري يوسف مارون الدويهي الاهدني فلا يمكن القطع بصحة هذه الرواية ولا سيما في تعيين الاسماء والسنين لان صاحب الرسالة لم يسند ما كتبه الى احد المؤرخين او احد الكتب القديمة وغموض التواريخ في تلك الحقبة معلوم مشهور فيتعذر على كاتب ان يحقق هذه الاسماء وهذه السنين واذا كان العلماء لم يستطيعوا ان يعرفوا اسماء بعض البطاركة وسني رياستهم في تلك القرون فلا يظن انه كانت وسيلة للعلم باسماء امراء منزوين في جبل وبسني ولايتهم. ولكن بقاء حكام او امراء في لبنان في تلك السنين لا ريبة فيه وكل ما مر آنفاً يؤيد ان هؤلاء الامراء كانوا وطنيين ولنا شهادة قاطعة على انه كان في لبنان في القرن الثاني عشر ملك او امير ماروني

في جبيل وهذه الشهادة كتبها البطريرك ارميا العمشيتي بخط يده على كتاب الاناجيل الاربعة الذي خط سنة ٨٩٧ يونانية الموافقة لسنة ٥٨٦ للميلاد وكان هذا الكتاب في بطريركية الموارنة في ايام البطريرك ارميا المذكور ثم اتصل الى المكتبة الماديشية في فيرنسا بايطاليا وذكره العلامة المطران اسطفان عواد السمعاني في الفهرست الذي وضعه للكتب الشرقية في هذه المكتبة وقد صنع مثالاً للكلمات نفسها التي خطتها يد ارميا بالسريانية وسنذكرها عند الكلام فيه ونجتزئ الان بذكر ما خص غرضنا منها فانه بعد ان ذكر دعوة البطريرك له وتصييره اسقفاً في دير كفتون قال ٠ وبعد مضي اربع سنين طلبني ملك (اي امير) جبيل والاساقفة ورؤساء الكنيسة والكهنة والقوا قرعة فاصابتني واقاموني بطريركاً في دير حالات ٠ فامير جبيل الذي دعا اسقفاً مارونياً وشهد انتخابه بطريركاً لا يمتري في انه ماروني

ونرى لويس التاسع ملك افرنسة لما كان في عكا في اواسط القرن التالي كتب في رسالته الى الموارنة ٠ الى امير الموارنة بجبل لبنان والى بطريرك واساقفة الطائفة المذكورة ٠ وصرح في رسالته بان الامير سمعان اتى اليه وقدم له هدايا فاخرة بل قد صرح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته في كرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ بانه لما ملك المسلمون انطاكية وطردوا الافرنج منها ولى هولاء فارين الى جبل لبنان فقبلهم بطريرك الموارنة بالايناس والترحاب فكتب اليه البابا اسكندر الرابع يشكر له صنيعه ولم تزل براءة البابا اسكندر الرابع التي اشار اليها بناديكتس الرابع عشر محفوظة في خزانة اوراق بطريركية الموارنة حيث يوصيه بهولا الفرنج ويخوله الحق ان يسوسهم كشعبه فلو لم يكن للموارنة حينئذ نوع من الاستقلال لما هرب الافرنج اليهم ولا استطاع بطريرك الموارنة ان يقبلهم ويضمهم الى شعبه وسوف ترى شيئاً كثيراً يثبت ذلك

عـد ٨٥٨

في بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر

لما قدم الفرنج الى سورية في اخر القرن الحادي عشر كان يوسف الجرجسي بطريركاً على الموارنة ولا نعلم في اية سنة قبل ذلك رقي الى هذا المقام بل علمنا انه لما فتح الفرنج اورشليم واقاموا غودفروا ملكاً عليهم واختاروا بطريركاً لاتينياً على اورشليم ارسلوا رسائل ووفداً الى الحبر الروماني البابا اوربانس الثاني يبشرونه بما وفقهم الله اليه وارسل يوسف الجرجسي مع وفدهم نائباً عنه ورسالة الى الحبر الروماني يحقق بها طاعته له وتشبثه بالايمان الكاثوليكي فبلغت هذه الرسائل الى البابا بسكاليس الثاني لان سالفه البابا اوربانس الثاني كان قد توفي قبل فتح اورشليم باربعة عشر يوماً فسر البابا بسكاليس بهذه الرسائل والوفد سروراً عظيماً وارسل الى بطريرك الموارنة تاجاً وعكازاً روى ذلك الاسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي في رسالة كتبها الى البطرك سمعان الحدثي سنة ١٤٩٤ ومرهج بن نيرون البانى في كتابه (افوبليا) سلاح الايمان صفحة ٦٧ واورد لكويان قولهما في المشرق المسيحي (مجلد ٣) في كلامه على بطاركة الموارنة وكان هذا البطريرك ساكناً في يانوح من عمل جبيل

وروى لكويان في المحل المذكور ما رويناه في كلامنا على توما اسقف كفرطاب انه كان يعقوبياً وصار من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة واتى الى لبنان قاصداً ان يستغوي الموارنة وانه قام لمناصبته يوسف بطريرك الموارنة وارسانيوس مطران الماقوره وفندا تعليمه برسائلهما فرذله الجميع ولم يضال الا خوري كفرشع وبعض المغفلين الى ان قال لكويان ان هذا البطريرك بقي حياً الى سنة ١١١٩ هذا اذا كان هو الذي كتب رسالة الى البابا جيلاسيوس الثاني يهنئه بها بارتقائه الى الحبرية العظمى ولما كان البابا جيلاسيوس لم يعش الا زماناً وجيزاً (سنة وخمسة

اشهر) جاوبه البابا كاليستوس الثاني على رسالته سنة ١١١٩ كما روى ابن نيرون الباني في كتابه سلاح الايمان صفحة ٦٨ وربما كان البطريرك بطرس خليفة يوسف المذكور هو الذي كتب هذه الرسالة

وصير بعد البطريرك يوسف الجرجسي البطريرك بطرس الاول ولا شك في انه كان بطريركاً على الموارنة سنة ١١٢١ لان الكتاب السابع من الكتب السريانية المخطوطة التي نقلها السمعاني الى المكتبة الواتيكانية علق كاتبه على صفحة ٢٦٢ منه هذه الحاشية بالسريانية وترجمتها • انا الحقير الراهب سمعان كتبت هذه الاسطر في هذا الكتاب الذي نسخته لابينا الطوباوي بطريركنا مار بطرس بطريرك الموارنة لساكن بدير ميفوق المقدس في وادي ايليج من عمل البترون الى ان امرني ان كون رئيساً وناظراً على دير القديس يوحنا في ارض كوزبند بجزيرة قبرس في ايام الرهبان الساكنين في دير القديس يوحنا المذكور وهذه اسماؤهم الراهب داود القس موسى الراهب يوسف النحومي والراهب جيورجيوس والراهب دانيال وهولاء كهنة يخدمون الله وكان ذلك سنة ١٤٣٢ يونانية (سنة ١١٢١ م) في اليوم الثاني عشر • يريد من تشرين الاول الذي كان السريان يتداولون السنة منه ذكر ذلك السمعاني في المجلد الاول من المكتبة الشرقية صفحة ٣٧٠ ثم ذكره صفحة ٦١١ و ٦١٢ من المجلد المذكور

وقد ذكر الدويهي في تاريخه البطريرك بطرس هذا فقال • وفيها (اي في سنة ١١٢١) كان البطرك بطرس قاطناً في دير سيدة ميفوق من اعمال البترون وبعث الرهبان القاطنون بدير مار يوحنا كزبند يخبرونه بوفاة رئيسهم ويسالونه ان يراس عليهم القس سمعان الذي كان كاتباً عند قدسه وله اليد الطولى في الخط وفي تزويق التصاوير كما هو واضح من كتاب ميامر مار يعقوب السروجي الذي كتبه بخط استرنكالي على رق وهو مصان عندنا بدير سيدة قنوبين • انتهى كلام الدويهي

ويظهر منه ان هذا الكتاب الذي كان في قنوبين نقله السمعاني الى المكتبة الواتيكانية

وخلف غريغوريوس الثالث من حالات بطرس الاول وقد ذكره الاسقف جبرائيل القلاعي في رسالته الى البطريرك سمعان الحدثي ومرهج بن نيرون الباني في كتابه سلاح الايمان وقال انه ارسل سنة ١١٣٠ وفداً الى البابا اينوشنسيوس الثاني يهنئه بارتقائه الى الحبرية العظمى ولما ارسل هذا البابا الكردينال غوليلمس الى المشرق بسبب الخلاف الشهير الذي كان حينئذٍ اذ غصب البابوية بطرس لاون وسمى اناكليتس الثاني التقى البطريرك غريغوريوس الكردينال غوليلمس الى اطرابلس وقدم صك طاعته للبابا اينوشينسوس الثاني البابا الشرعي وقد ذكر ذلك البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخه فبعد ان اورد خبر هذا الخلاف ورجوع الاكثرين الى طاعة البابا الشرعي واقتداء الفرنج الذين بسورية بهم قال • وعلى شبه من تقدم ذكرهم نزل رؤساء الملة المارونية وعلماؤها الى مدينة اطرابلس وعلى يد الكردينال غوليلمس قاصد البابا زخيا (اينوشنسيوس) حلفوا له الطاعة واعطوه خطوط ايديهم انهم لا يتمسكون بغيره ولا يكرزون الا باسمه •

وصير بعد غريغوريوس الثالث الحالاتي يعقوب الاول من رامات بلاد البترون وقد روى العلامة السمعاني (في المجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠٧) انه علق على احد كتب القديس يعقوب السروجي (وهو السابع من الكتب السريانية التي نقلها السمعاني الى المكتبة الواتيكانية) هذه الحاشية بالعربية • لما كان تاريخ سنة ١٤٥٢ يونانية (توافق سنة ١١٤١ م) في شهر تموز المبارك بعشرة ايام مضت منه حضر الى عندي انا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي باسم يعقوب من قرية رامات من عمل البترون الولد الراهب دانيال من رهبان دير كفتون وقد اعطيته سلطان من الله ومن حقارتي بانه يكون رئيساً ومدبراً على دير مار يوحنا الكوزبند في جزيرة قبرس المحروسة من الله تعالى بحسب ما

ورد من الاولاد الرهبان واولهم الراهب عيسى والياو الراهب موسى الراهب يوحنا واخاه يعقوب برضاهم وخاطرهم وخط ايديهم ولربنا المجد امين ، وقال البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١١٤٠ ، وفيها كانت وفاة الرجل الفاضل القس سمعان رئيس دير مار يوحنا الكوزبند بقبرس وارسل لهم بدله البطريرك يعقوب من رامات من عمل جبيل القس دانيال من رهبان سيدة كفتون الذي في كورة اطرابلس ومن بعد يعقوب الراماتي رقي الى الكرسي البطريركي يوحنا السابع سنة ١١٥١ وقد ولد في لحفد من عمل جبيل وسكن اولاً في دير مار الياس في قريته ثم انتقل الى دير السيدة بهابيل واقام هناك ديراً ووصفه الدويهي في تاريخ بطاركة الموارنة بانه كان ذا مكارم وفصاحة كما يظهر من النافور الذي كتبه وانه في مدة اقامته بلحفد رقى اربعة اساقفة لمعاونته على تدبير الشعب فسكن احدهم في دير القديس حوشب والثاني في دير القديس سمعان والثالث في دير القديس اليشاع والرابع في دير السيدة بلحفد وانه لما كان عيد العنصرة حضر اليه شعب كثير ومعهم شمامسة وكهنة ورهبان ورؤساء كهنة فانتقل من ديره الى دير السيدة الذي فوق هابيل حيث لم يكن ماء فحفر بئراً وانشأ ديراً كبيراً وقد جاء في الآثار القديمة وفي الرسالة التي كتبها جبرائيل بن القلاعي الى القس جرجس بن بشاره في الفصل الحادي عشر ان دير هابيل المذكور استمر كرسياً لبطاركة الموارنة الى ايام البطريرك ارميا الا اننا لم نعثر على اسماء هولاء البطاركة الذين اقاموا به لنثبت ذكرهم انتهى كلام الدويهي وقد وجد مكتوباً على كتاب الاناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة ثم نقل الى المكتبة الماديشية بفيرنسا وذكر المطران اسطفان عواد الخطوط المعلقة عليه في كتابه فهرست هذه المكتبة فقال انه كتب على صفحة ١٨ سطر ٢٣ وما يليه ما ياتي بالعربية « لما كان تاريخ سنة ١٤٦٥ يونانية توافق سنة ١١٥٤ م) ثامن يوم مضت من شهر ايلول حضر الى عندي انا بطرس بطرك الموارنة الجالس على الكرسي

الانطاكي القاطن بدير سيدة ميفوق في وادي ايليج الولد الراهب اشعيا من دير قزحيا وعمله رئيس على الرهبان القاطنين في دير مار يوحنا دير الكوزبندو في جزيرة قبرس حسبما ورد من الاولاد الرهبان بخط ايديهم وهم الولد الراهب جبرائيل ورفيقه الراهب شمعون والراهب حبقوق والراهب ميخائيل وللرب المجد امين . فبطرس هذا هو يوحنا اللحفدي المذكور ويظهر ان بطاركتنا كانوا منذ تلك الايام يزيدون على اسمهم بطرس. ويظهر ايضاً انه كان يقيم بسيدة ميفوق ايضاً. وقد ذكره السمعاني (في المجلد الاول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٢) وقال انه ولد في لحفد وانه خلف البطريرك يعقوب الراماتي وانه دبر الكنيسة المارونية من سنة ١١٥١ الى سنة ١١٧٣ وانه كتب نافوراً ذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر في الفصل الثاني في مؤلفي النوافير الكاثوليكيين فقال . يوحنا اللحفدي الذي جلس على الكرسي الانطاكي بعد الالف والماية من سني السيد المسيح له نافور بدؤه ܐܠܗܐ ܩܕܝܫܐ ܘܡܫܒܚܐ ايها الاله الكلي القداسة وهو مثبت في كتب القداس الموجودة في دير قنوبين

ان البطريرك اسطفانس الدويهي ذكر بعد البطريرك يوحنا اللحفدي البطريرك ارميا العمشيتي لكن قال ما رويناه انفاً ان دير هابيل استمر كرسياً لبطاركة الموارنة الى ايام البطريرك ارميا الا اننا لم نعثر على اسماء البطاركة الذين اقاموا هناك لنذكرهم فظهر انه كان بين يوحنا اللحفدي وارميا العمشيتي بطاركة اخرون ولكويان في كلامه على بطاركة الموارنة جعل يوحنا اللحفدي الثامن والعشرين منهم ثم وضع الاعداد ٢٩ و ٣٠ و ٣١ وبعدها بياضاً لانه لم يهتد الى اسماء ثلاثة بطاركة ثم ذكر لوقا ايضاً قبل ارميا . وقال المطران اسطفانس عواد السمعاني في فهرست المكتبة المادينشية صفحة ١٦ متكلماً في كراسي بطاركة الموارنة . رابعاً في دير القديس الياس بلحفد من ابرشية جبيل حيث جلس يوحنا اللحفدي خليفة

يعقوب وهو الذي نقل الكرسي الى دير القديسة مريم بهابيل من ابرشية جبيل المذكورة وهناك جلس بطرس وبطرس الاخر ولوقا المسمى بطرس . خامساً نقل الكرسي البطريركي ثانية الى دير القديسة مريم بيانوح من ابرشية البترون حيث جلس ارميا . ولا اشك البتة في انه كان بين يوحنا اللحفدي وارميا العمشيتي بطاركة اخرون وعلى ذلك دليل قاطع غير ماص من شهادة المؤرخين فقد ذكر السمعاني وغيره ان يوحنا اللحفدي توفي سنة ١١٧٣ كما رايت وان ارميا توفي سنة ١٢٣٠ فلو كان ارميا خلف يوحنا للزم ان يكون ارميا استمر بطريركاً سبعاً وخمسين سنة وهذا لا يصدق ومما لا ريب فيه ان ارميا العمشيتي شهد المجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥ وان البابا اينوشنسيوس الثالث كتب اليه براءته المثبتة في سجلات البراءات تلك السنة فلو كان قد صير بطريركاً سنة ١١٧٣ لكان له في البطريركية حينئذ اثنتان واربعون سنة فان فرضنا انه صير بطريركاً وعمره اربعون سنة فقط فيكون عمره سنة ١٢١٥ اثنين وثمانين سنة ومن يصدق ان هرماً بهذا العمر يتحمل مشاق السفر في تلك الايام الى رومة فاذاً لا بد من ان كان بطاركة اخرون بين يوحنا اللحفدي وارميا العمشيتي افلم نظر ما يقوله المؤرخون في ذلك

قال لكويان في المشرق المسيحي (متكلماً في بطاركة الموارنة) روى مرهج بن نيرون الباني في مقالته في اسم الموارنة واصلهم ودينهم نقلاً عن جبرائيل بن القلاعي في قصيدته في اصحاب البدع ان من ابدوا ضلال توما اسقف كفرطاب (الذي كان قد توفى) اطغوا غيرهم من الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة وتوافر عدد المطغين حتى ان البطريرك نفسه لم يذكر اسمه جنح الى ذلك فان ابن القلاعي يقول ما معناه انه بعد توما قام ابن شمبان واخذ يكتب ويعلم الاحداث ويبذر الضلال بين الموارنة وملأ كتبهم من الزوان وقام بعده ابن حسان من حدشيت واطغى اهل كفر ياشيت وكتب وغير الصلوات وانبث سم الضلال في قرى اخرى

حتى اتصل الى الراس ايضاً اذ قال . ان البطرك ابتلع السم بقدر ما يسع الفم .
ولذلك اجتمع رؤساء الموارنة واعيانهم وكثيرون من الشعب وجزموا جميعاً براي
واحد على ان ينفصلوا من شركة البطريرك فلم يعودوا يؤدونه الطاعة ولا يقبلونه
في البلاد بل حملتهم الحمية والغيرة الدينية على انهم حطوه عن مقامه وانتخبوا
بطريركاً آخر فحنق لذلك اصحاب البطريرك المعزول وقتلوا البطريرك الجديد وبعد
قتل هذا البطريرك تعاظم الخلاف والشغب بينهم فتدارك امرهم ايمريكس
البطريرك الانطاكي على اللاتين وسكن روعهم وخمد جزوة غضبهم وود المغوين
عن غيهم فاتفقوا جميعاً على انتخاب بطريرك صحيح المعتقد . قال لكويان هذا ما جاء
في التاريخ المذكور . ان ايمريكس ذا الذكر الصالح انتزع السم منهم وارشدهم
فطاعوه واهتم بنيل البركة لهم من الكرسي الرسولي واختاروا بطريركاً سكن في
هايل وحفظ كلما في الانجيل وكان ضليعاً في تفسير الاسفار المقدسة والف اشعاراً
كثيرة في الايمان . واختتم لكويان كلامه بقوله لا ريب عندي في ان هذا ما حمل
غوليلمس اسقف صور على ما كتبه من ان الموارنة كلهم رجعوا عن الضلال سنة
١١٨٢ على يد ايمريكس البطريرك الانطاكي مع ان هذا لا يصدق على الملة كلها
بل على بعضها فقط ويؤيد ذلك ما جاء في التاريخ المذكور . لهم ثبتوا في ايمان
مارون وذل المعاندون وعاد الوفاق والسلم ثابتين بين من كانوا مختلفين . وكان
لكويان قد قال في مقدمات كلامه على الموارنة كما لم يعب افرنسة اتباع كثيرين من
اكليرسها واعيانها مذهب لوتارس وكاوينس هكذا لا يعب الملة المارونية اتباع بعض
افرادها الضلال مدة ما

وبعد ايراد لكويان خبر هذه الاحداث ذكر لوقا الاول قائلاً ما خمدت
جذوة الاضطراب بين الموارنة الا وقام رجل يسمى ابن شعبان رومي اصلاً
وعاونه مطران اسمه عيسى فبثا الضلال في بعض قرى لبنان وكان البطريرك اسمه

لوقا وكان في اخر القرن الثاني عشر او بدء الثالث عشر فانحاز اليهما واستشهد لكويان لذلك نيرون الباني (في مقالته في اسم الموارنة صفحة ٩٨) الذي قال ان المطران عيسى وابن شعبان علما الناس ان يصنعوا اشارة الصليب باصبع واحدة ونبذا المجمع الرابع واوجس الشيطان الى راهبين احدهما من يانوح والاخر من دير نبوح فزعما ان المسيح لم تكن له نفس ولا تألم ولا كان يستطيع ان يشعر بالالام وان البابا ارسل قاصدًا لم يقبله البطريرك لوقا فحرم البابا اصحاب هذا الضلال ونشأ بين الموارنة شقاق بسبب ذينك الراهبين الى ان يقول لكويان ان هذا الشقاق استمر الى ان قام البطريرك ارميا خليفة لوقا المذكور انتهى

ان العلامة لكويان اعتمد في ايراد هذا الخبر وذكر البطريرك لوقا على قول نيرون الباني ونيرون اعتمد فيه على قول جبرائيل ابن القلاعي في بعض جزلياته على ان البطريرك اسطفانس الدويهي افرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم عن الموارنة لتفنيد قول ابن القلاعي المذكور مبينًا ان البطريرك لوقا من بنهوان لم يكن في القرن الثاني عشر او اول الثالث عشر بل في اخر القرن الثالث عشر او اول الرابع عشر وانه لم يعب بضلال وان الحكام الذين ذكر ابن القلاعي ان هذه الاحداث كانت في ايامهم لم يكونوا في ذلك العصر بل بعده بسنين كثيرة وان جل مقصد ابن القلاعي كان يبين للمقدم عبد المنعم حاكم بشري الذي زاغ عن الايمان القويم وشايع اليعاقبة ان كل من شذوا عنه انتقم الله منهم فلم يرع نظام تاريخ السنين الى غير ذلك من الادلة القاطعة فضلاً عن ان ابن شعبان الذي ذكره لكويان هنا كان ذكره قبلاً وعن انا سنبين ان ارميا العمشيتي كان بطريركًا في المدة التي عينها لكويان للبطريرك لوقا

قد افضل علينا العلامة المطران اسطفانس عواد السمعاني بنشره مثالاً لخط بيد البطريرك ارميا عثر عليه في كتاب الاناجيل القديم الموجود الان في المكتبة

الماديشية بفيرنسا وكان قبلاً في بطريركية الموارنة وطبع هذا المثال في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المذكورة ومنه يتبين زمان ارتقاء ارميا الى الاسقفية وسنة انتخابه بطريركاً والخط بالسريانية والاحرف المسماة استرنكلية وهذه ترجمه بحروفه

في سنة ١٥٩٠ يونانية في اليوم التاسع من شباط اتيت انا الحقير ارميا من قرية دملصا المباركة الى دير سيدتنا القديسة مريم بميفوق في وادي ايليج من عمل البترون الى سيدنا بطرس بطريرك الموارنة وسمني بيديه المقدستين وجعلني مطراناً على دير كفتون المقدس الذي على ضفة النهر وبقيت هناك اربع سنين وكان سكان الدير المذكور الراهب حزقيال ورفيقه الراهب اشعيا والراهب دانيال والراهب يشوع ورفيقه ايليا والراهب داود واثنين وثلاثين راهباً اخرين وبعد انقضاء السنين الاربع طلبني امير جبيل والاساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة والقوا قرعة فاصابتني وصيروني بطريركاً في دير حالات المقدس ثم ارسلوني الى رومة المدينة العظمى وتركت اخانا المطران تاودورس يدبر الرعية ويهتم بشؤونها •

ان في هذا الخط زلة قلم اما من الذي اخذ المثال او من ارميا الذي كتب الخط فسنة ١٥٩٠ يونانيـة توافق سنة ١٢٧٩ مسيحية وارميا كان قبل هذه السنة بنحو قرن ويكفينـا مؤنة بيان هذا الغلط براءة البـابا اينوشنسيوس الثالث المنفذة اليه باسمه مؤرخة في سنة ١٢١٥ وقد اجمعوا على انه شهد المجمع اللاتراني الرابع ولا يختلف اثنان في ان هذا المجمع عقد سنة ١٢١٥ وليس بين اسماء بطاركتنا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر اسم ارميا الا ارميا هذا ولذلك روى المطران اسطفان عواد في ترجمة هذه العبارة الى اللاتينية سنة ١٤٩٠ لا سنة ١٥٩٠ وذكر موافقتها لسنة ١١٧٩ لا لسنة ١٢٧٩ وعليه فلما كان ارميا رقي الى درجة الاسقفية سنة ١١٧٩ كما في صحيح الخط وقال انه انتخب بطريركاً بعد اربع سنين كان انتخابه بطريركاً سنة ١١٨٣ اي بعد حصول الوفاق بين الحزبين المختلفين من الموارنة بسنة

واحدة او ببعض اشهر فقط لانه يحتمل ان يكون الوفاق حصل في اخر سنة ١١٨٢ وانتخاب البطريرك كان في اول سنة ١١٨٣ ولما كان راينا هذا مستندًا الى ما خطته يد ارميا قد اعتمدناه مفضلاً على غيره لهذا الاستناد

قال لكويان في المشرق المسيحي قال البطريرك اسطفانس الدويهي في الجدول الذي وضعه لبطاركة الموارنة ان ارميا ارتقى الى البطريركية سنة ١٢٠٩ وكان من عمشيت من عمل جبيل وكان رجلاً فاضلاً بارًا ذا غيرة على الدين القويم اقام بيانوح ودخل رومة العظمى بنفسه وحضر المجمع الذي انعقد بلاتران في ايام البابا اينوشنسيوس الثالث وقال نيرون البافي في مقالته المذكورة صفحة ١٠١ انه عندما صير بطريركاً مضى الى رومة اغراه بذلك امير جبيل وترك المطران تواودورس من كفرفو (بجبة بشري) نائباً له في البطريركية ليلتمس علاجاً للشؤون التي كانت في ايام سالفه وهذا يظهر ايضاً من براءة البابا اينوشنسيوس الثالث حيث يقول انه شهد المجمع اللاتراني ولما بلغ الى رومة خر على قدمي البابا وكلمه متذللاً وساله بركته له ولشعبه فعزاه البابا واجابه الى كل ما ساله وبقي هناك مسرورًا خمس سنين وستة اشهر وروى ابن القلاعي والبطرك اسطفان الدويهي ان البطريرك ارميا كان يوماً يقدس بحضرة البابا ولما انتهى الى رفع القربان رفعه وبقي معلقاً فوق راسه فعظم البابا قداسته وامر بنقش صورة هذه الآية على جدار الكنيسة قال الدويهي بقيت هذه الصورة الى ايامنا في كنيسة القديس بطرس القديمة وبعد ان فرغ ارميا من مهامه برومة سال البابا ان يرخص له بالعود الى بلاده فخرج من رومة مبتهجاً طيب القلب لان البابا نوله كل سلطان طلبه وارسل معه الكردينال غوليلمس مفوضاً اليه ان ياخذ من شعب لبنان دستور اعترافهم بالايمان وكان خروج ارميا من رومة في ٣ كانون الثاني سنة ١٢١٥ (قال لكويان في حسابنا سنة ١٢١٦ لان المجمع اللاتراني عقد سنة ١٢١٥ وهو سافر في ٣ كانون الاخر) وبلغ الى

اطرابلس في شهر اذار ولما علم المطران تواودرس نائبة بخبر قدومه جمع جماً غفيراً من الموارنة ولم يبدوا شعائر سرورهم الا بعد ما بلغهم البطريرك بركة الحبر الروماني وانشأوا صكاً اثبتوا به بايمانهم واختامهم انهم متشبثون بايمان بطرس لا يزيغون عنه وسلموا ذلك الصك الى الكردينال غوليلمس وكان عدد من وقعوا عليه ميئتين وسبعين رجلاً وفي جدول بطاركة الموارنة الذي وضعه البطريرك الدويهي ان ارميا توفي سنة ١٢٣٠ في دير السيدة بميفوق انتهت رواية لكويان

وعندي في وفاة البطريرك ارميا سنة ١٢٣٠ نظر من قبل انه اذا كان صير بطريركا سنة ١١٨٣ وهذا ثابت بخط ارميا نفسه فيكون استمر بطريركاً سبعاً واربعين سنة وهذا يصعب القطع به ولهذا ارى صيرورته بطريركاً سنة ١١٨٣ اثبت من ان وفاته كانت سنة ١٢٣٠ لان الاول مسنود الى خط يده واما الثاني فلا سند له كهذا ويضاده طول مدة بطريركيته والله اعلم . وقد اتحف البابا اينوشنسيوس البطرك ارميا بتاج وعكاز وغيرها من الملابس الحبرية واخذ قدماؤنا منذ ذلك الحين يقتربون من عادات اللاتينية في الملابس الكهنوتية وغيرها كما حقق السمعاني في المجلد الرابع من مكتبة الناموس

عدد ٨٥٩

في ما نعرفه من اديار الموارنة وكنائسهم الى اخر القرن الثاني عشر

لا نقصد ان نتكلم عن اديار الموارنة وكنائسهم القديمة مستندين الى قدمها بهيئة بنائها فهذا يستلزم معاينتها ولا حظ لنا في ذلك ويقتضي علم الآثار القديمة ولا مخبرة لنا فيه فكلامنا مقصور على ما ورد له منها ذكر في التواريخ

فاول اديار الموارنة الدير الذي بناه اهل حماة على ضريح القديس مارون بين حماه وحمص على العاصي وسمي دير البلور لحسن بنائه وكثرة الرهبان فيه حتى كان به ثمانماية راهب وكان اول الاديرة في سورية الثانية كما يظهر من توقيع رئيسه على

العريضة التي رفعت الى البابا هرمزدا وعلى غيرها من العرائض المعلقة في ذيل اعمال المجمع الخامس وقد دك هذا الدير الملك انسطاس وقتل من رهبانه ثمانية وخمسين راهباً لسبب مدافعتهم عن رسوم المجمع الخلكيدوني المقدس ثم جدد بناه الملك يوستنيانس الاول كما شهد بروكوب القيصري (في كـ ٥ في ابنية يوستنيانس فصل ٩) وعاد مزهراً برهبانه الى ان نقضته عساكر يوستنيانس الثاني الاخرم سنة ٦٩٤ وقتلوا من رهبانه خمس مائة راهب (طالع ما ذكرناه في تاريخ الموارنة في القرون الخامس والسادس والسابع)

والدير الثاني القديم للموارنة هو الدير الذي انشأه القديس يوحنا مارون بطريركنا الاول على اسم القديس مارون في شرقي كفرحي من عمل البترون ونقل اليه هامة القديس مارون وكرس كنيسته في الخامس من كانون الثاني وامر ان يعيد للقديس مارون في ذلك اليوم واستمر الموارنة يعيدون له فيه قروناً وقد عاد البطريرك دانيال الشاماتي الى السكنى بهذا الدير في القرن الثالث عشر

والثالث دير السيدة العذراء في يانوح انشأه جبرائيل الثالث من بطاركة طائفتنا او خليفته يوحنا الثاني المعروف بمارون ايضاً واقام هناك بطاركتنا الى سنة ١١٢٠ ثم سكنوا في دير ميفوق ودير لحفد ودير هابيل الآتي ذكرها ثم عادوا الى دير يانوح حيث اقام ارميا العمشيتي والبابا اينوشنسيوس الثالث يسمي كنيسة السيدة في يانوح كنيسة البطريركية في براءته الى البطريرك ارميا المذكور ثم تركوا هذا الدير مدة وعادوا اليه فسكنه البطريرك شمعون الموجهة اليه رسالة البابا اسكندر الرابع مؤرخة في اول شباط سنة ١٢٥٦ وفيها ذكر الكنيسة البطريركية في يانوح

والرابع دير السيدة بميفوق وقد جاء في مجمعنا اللبناني (صفحة ٤٣١ من الطبعة الحديثة) انه استقر في هذا الدير البطريرك بطرس خليفة البطريرك يوسف الجرجي

وغريغوريوس الحالاتي ويعقوب الراماتي وقد ذكرنا في العدد السابق خطين مؤذنين باقامة البطريرك بطرس المذكور في هذا الدير سنة ١١٢١ وفي الدير المذكور الى الان آثار دالة على ذلك منها خط منبيء بتجديد الدير المذكور ومشير الى بنائه القديم وهو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܩܝܘܡܐ ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܫܒܥܡܐܐ. ܘܐܪܒܥܝܢ ܘܫܬ ܐܬܚܕܬ ܗܝܟܠܐ ܗܢܐ ܡܢ ܬܪܝܢ ܐܚܐ ܟܗܢܐ ܐܡܘܢ ܘܡܢܝܥ ܘܗܘܐ ܫܘܪܝܗ ܡܢ ܐܪܒܥܐ ܦܛܪܝܪܟܐ ܦܛܪܘܣ ܘܐܪܡܝܐ ܘܝܥܩܘܒ ܘܝܘܚܢܢ ܒܫܢܬ ܐܠܦ. اي بسم الله الحي الدائم في سنة ١٧٤٦ جدد بناء هذا الهيكل اخوان كاهنان امون ومنيع وكان قد انشأه اربعة بطاركة بطرس وارميا ويعقوب ويوحنا سنة ١١٢١. وهناك خط اخر ذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخه (صفحة ١١٣) ولم يزل موجودًا وهو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܠܥܠܡ ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܚܡܫܡܐܐ ܘܬܡܢܝܢ ܘܬܡܢܐ ܕܝܘܢܝܐ ܫܘܟܠܠܗ ܗܢܐ ܗܝܟܠܐ ܥܠ ܫܡ ܝܠܕܬ ܐܠܗܐ ܨܠܘܬܗ ܥܡܢ ܥܠ ܐܝܕܝ ܐܢܫܐ ܚܛܝܐ ܕܘܝܕ ܩܫܝܫܐ ܘܡܪܩܘܣ ܘܝܘܚܢܢ. اي بسم الله الحي الابدي في سنة ١٥٨٨ من سني اليونان (وهي سنة ١٢٧٧ م) كمل بناء هذا الهيكل على اسم والدة الله صلاتها معنا على يد اناس خطاة داود القس ومرقس ويوحنا . وفي وسط هذا الخط صليب كتب حوله بك نقهر اعداءنا وباسمك نذل مبغضينا والذي رواه الدويهي من هذا الخط نرى فيه كلمة ܫܘܟܠܠܐ بدلاً من كلمة ܫܘܟܠܠܗ اي كمل هذا الهيكل المنسوب الى يعقوب احد البطاركة وهو الثالث من البطاركة الاربعة المذكورين بالخط الاول وقد ترك بطاركتنا السكنى بهذا الدير ثم عادوا اليه فاستقر به البطاركة يعقوب ودانيال الحدشيتي ولوقا البنهراني وشمعون ويوحنا وجبرائيل من حجولا الذي توفي شهيدًا سنة ١٢٦٧

والخامس دير القديس الياس في لحفد من عمل جبيل استقر فيه البطريرك

يوحنا اللحفدي خليفة البطريرك يعقوب الراماتي وقد مرَّ في كلامنا على البطريرك يوحنا المذكور انه كان في لحفد اربعة اديار اخرى : دير القديس حوشب ودير القديس سمعان ودير القديس اليشاع ودير السيدة العذراء اقام بها اربعة اساقفة على ما في الرواية المذكورة

والسادس دير السيدة العذراء في هابيل انشأه البطريرك يوحنا اللحفدي بعد ان انتقل من لحفد الى هابيل في اواسط القرن الثاني عشر

والسابع دير القديس انطونيوس المعروف بدير قزحيا ويظهر ان هذا الدير قديم جدًا لانه جاء في براءة البابا اينوشنسيوس الثالث الى البطريرك ارميا في سنة ١٢١٥ ذكر دير قزحيا بمنزلة اول كرسي لاساقفة الموارنة لانه عند تعداده كراسي الاساقفة الخاضعين لبطريركيته ذكر دير قزحيا اولاً وكان بعض علمائنا لترجمتهم كلام هذا البابا عن اللغات الاجنبية تصحف عليهم قزحيا بمار اسيا وتابعناهم على ذلك عند ذكرنا كلام هذا البابا في بعض كتبنا الى ان رأينا العلامة السمعاني يسميه في كتاب المجمع اللبناني باللاتينية hassaya فانتبهنا الى ان المراد قزحيا

وقد علق البطريرك بطرس وهو يوحنا اللحفدي على كتاب الاناجيل القديم الخط الذي ذكرناه في كلامنا في العدد السالف على هذا البطريرك منبئاً بانه حضر اليه سنة ١١٥٤ الراهب اشعيا من دير قزحيا ورأسه على دير الكوزبند في قبرس

الثامن دير القديس يوحنا في كوزبند بقبرس فهذا الدير قد جاء ذكره في عدة خطوط منها خط الراهب سمعان المعلق على الكتاب السابع من الكتب التي نقلها السمعاني من المشرق الى المكتبة الواتيكانية مبيناً فيه ان البطريرك بطرس الذي كان سنة ١١٢١ جعله رئيساً وناظرًا على دير القديس يوحنا في كوزبند وقد ذكرنا هذا الخط بحروفه عند كلامنا على البطريرك المذكور ومنها الخط الذي علقه البطريرك يعقوب الراماتي على احد كتب السروجي وفحواه انه قد رأس دانيال راهب

دير كفتون على دير القديس يوحنا بكوزبند سنة ١١٤١ وقد ذكرنا هذا الخط ايضاً بحروفه في كلامنا على البطريرك المذكور ومنها الخط الذي ذكرناه آنفاً المؤذن بتسمية البطريرك يوحنا اللحفدي اشعيا راهب دير قزحيا رئيساً على دير كوزبند

ومنها خط في القرن الثالث عشر علقه البطريرك يوحنا الجاجي على كتاب الاناجيل المذكور بالسريانية وهذه ترجمته « لما كانت سنة ١٥٥٠ يونانية (توافق سنة ١٢٣٩ م) انا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي والمسمى يوحنا من قرية جاج والساكن بالدير المبارك دير السيدة مريم بميفوق اتى اليَّ من دير الكوزبند القس المسمى متى وهو كاهن تقي بتول واخذ مني ثلث مئة دينار وحقاً للميرون للدير المذكور واخذ معه كتاب التوراة لموسى بالعربية وكتاب الناموس وكتاب الايمان ولله المجد امين »

التاسع دير كفتون وقد جاء ذكره في ما خطته يد البطريرك ارميا العمشيتي على كتاب الاناجيل المذكور مراراً قال ان البطريرك بطرس رقاه الى الاسقفية على هذا الدير وان رهبانه حينئذٍ كانوا اثنين وثلاثين راهباً وفي الخط الذي علقه البطريرك يعقوب الراماتي المؤذن بانه راس دانيال راهب دير كفتون على دير كوزبند وهذا الدير الذي كان للموارنة انتقل في ما بعد الى يد الروم الملكيين غير الكاثوليكيين كما سوف ترى

العاشر دير القديس سرجيوس او سركيس في حردين قد استدللنا على قدم هذا الدير بخطوط علقت على كتاب الاناجيل وهو الثاني من الكتب السريانية التي ذكرها اسطفان عواد في كتابه فهرست المكتبة المادينية وقال انه كتب قبل القرن التاسع وانه كان يخص قديماً اقليمس رئيس الكهنة ثم انتقل الى وارثيه اولاده برصوما وسليمان وفيلبس وهولاء وقفوه على دير القديس سرجيوس في حردين من ابرشية طرابلس ثم انتقل الى دير القديسة مريم في يانوح ثم الى دير

القديسة مريم بقنوبين كما يظهر من الخطوط المعلقة عليه فقد كتب عليه في الصفحة الاولى ما ترجمته ، بقوة الله الحي القدوس انا عبد المسيح ارميا البطريرك وقفت هذا الكتاب وما تركه داود ويوسف لديري وقفاً موبداً وكل من اخذه منه كان ملعوناً من الله ومن كهنته ، فيظهر ان داود ويوسف المذكورين كانا من الاقارب الادنين لارميا واوصيا عند احتضارهما بهذا الكتاب وما يملكان من حقول وكروم وغيرها فوقفها على ديره وقد كتب على هذا الكتاب ايضاً بخط البطريرك ارميا في الصفحة المذكورة ، قد استراحت وانتقلت من هذه الحياة عالم الشرور الى العالم الاخر المفعم بالسرور الراهبة المحصنة ابنة داود يوم الجمعة في السادس من تشرين الثاني سنة ١٥١١ لاسكندر (توافق سنة ١١٩٩) ويتبين من هذا الخط ايضاً ان ارميا صير بطريركاً سنة ١١٨٣ كما روينا سنداً الى خطه الاخر لا سنة ١٢٠٩ كما روى غيرنا وجاء بعد ذلك ، قد استراحت الراهبة ساره بعد عشرة اشهر من تحصنها يوم الاحد في الثامن من آب فلتكون اهلاً للذكر الصالح لانها تعبت كثيراً في دير القديس سركيس مع باقي الراهبات اولاهن الله السلام والراحة مع العذارى الحكيمات ، وقال المطران اسطفان عواد بعد ايراد هذا الخط انه كان بالقرب من حردين ديران قديمان جداً حذاء كنيسة القديس سركيس احدهما كان مدة كرسياً بطريركياً ومقاماً لرهبان كثيرين من الموارنة والثاني ديراً للراهبات وبقي الديران الى سنة ١٤٥٠ وبعدئذ ترك الرهبان والراهبات الديرين لتوالي صروف الدهر ولم يبق الى الآن الا اطلال كنيسة القديس سركيس وقال انه كان قديماً عند الموارنة والنساطرة واليعاقبة عدا راهبات الاديرة راهبات محصنات او حبيسات فهولاء بعد ان يعشن في الدير ثلث سنوات ينقطعن في صومعة قريبة من الدير متحجبات عن معاشرة الناس والخطان المذكوران يبنا انه كان عند الموارنة في ذلك العصر مثل هولاء الحبيسات قلت ومثل هولاء كورا

ومارانا راهبات القديس مارون الماد ذكرها

وجاء في الكتاب المذكور ايضاً صفحة ٩٨ بسم الله الحي قد وقفت اشمونة ابنة لياس على دير القديس سركيس الكرم الذي لها عند العين ليخولها الله خلاص نفسها وصحة جسدها وكان هذا الوقف سنة ١٥٠٩ يونانية (توافق سنة ١١٩٨ م) يوم عيد القديس سركيس ونشهد بذلك نحن الكهنة تادي وجيودجيوس وبولس.

الحادي عشر كنيسة القديسين نهرا وباسيليوس في صماد جبيل قال المطران اسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور ان كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا التي تسميها العامة ماري نوهرا والتي يكرمها من اقدم الايام الموارنة بل الاراطقة والمشاقون وغير المؤمنين ايضاً وهي في ابرشية جبيل (تحسب الان من عمل البترون) حذا القلعة الحصينة التي بناها حكام طرابلس من اللاتينيين في القرن الثاني عشر للذب عن هذه الناحية من غارات المسلمين واطلالها الباقية الى الان دالة على عظمتها وقد اعتاد المؤمنون بل غير المؤمنين ايضاً ان يقدموا البخور والشموع وغيرها من التقادم لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا القائمة بجانب هذه القلعة توسلاً بشفاعة هذين القديسين وذكر من الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل الثاني المذكور خطاً علق على الصفحة الاولى منه بالسريانية هذه ترجمته. بسم علة كل مخلوق في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩ م) اقتسم بنو الخوري اقليمس خدمة كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بينهم مشاهرة فاصاب برصوما كانون وكانون وحزيران وتموز واصاب اخويه سليمان وفيلبس الثمانية الاشهر الباقية. وخطاً اخر علق على صفحة ٤ بالسريانية وهذه ترجمته. بسم الله الحي في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩ م) قد وقف الشماس يوسف لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا جميع متروكات امرأته المتوفاة. وخطاً علق على صفحة ٩ بالعربية الا البسملة وهذا هو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ (بسم الله الحي) في سنة الف وسبعماية كذا كتبت ولكن

ترجمها المطران اسطفان المذكور سنة ١٥٦٥ لانه وفقها الى سنة ١٢٤٥ م) وخمسة وستين يونانية سليمان ابن توما من حردو (لعلها حردين) اوهب لكنيسة مار باسيليوس ومار نهرا حقلتين زيتون بقرب قرية بشري عن نفسه ونفس اخوه من يستخلصها يكون حظه مع بوداس الاسخريوطي ، فهذه الخطوط مؤرخة في القرن الثالث عشر لكنها مشعرة بان هذه الكنيسة اقدم من ذلك العصر . الثاني عشر كنيسة القديس ادنه في العاقورة فقد ورد مرات ذكر المطران ارسانيوس اسقف العاقورة الجالس في دير القديس ادنه في العاقورة واطلال هذه الكنيسة ما زالت في العاقورة وتعرف بهذا الاسم الان وجاء في تاريخ سنة ١٢١١ من تاريخ البطريرك اسطفانس الدويهي . في هذا الزمان اخذ ابناء ملتنا بلبنان يقرعون نواقيس من نحاس بدل الخشب للصلاة والقداس وفاضت نعم الله بين ايديهم فانشأوا كنائس واديارًا ومدارس يقصدها الناس لخدمة الله وخلاص نفوسهم وكان للخوري باسيل من بشري ثلث بنات اسماهن تقلا وصالومي ومريم نذرنَ لله عذرتهن وانفقن جميع ما يملكنَ في بناء الكنائس وتجهيزها فبنت تقلا في هذه السنة كنيسة القديس جيورجيوس والقديس دومط في بقرقاشا وكنيستين للقديس لابي الرسول والقديس سرجيوس الشهيد في بشنين بالزاوية . وفي سنة ١١١٣ رقدت بالرب وبنت اختها مريم كنيسة القديس سابا في بشري واختها صالومي كنيسة القديس دانيال في الحدث ،

واما دير قنوبين فهو اقدم من هذه الكنائس اذ يقال ان الملك توادوسيوس امر ببنائه وفي رواية ان توادوسيوس الذي بناه ليس هو الملك بل سائح يسمى توادوسيوس نسك في المغارة التي هناك وبنى شيئًا حولها وسوف نتكلم عليه فيما بعد عند ما نذكر نقل الكرسي البطريركي اليه في اواسط القرن الخامس عشر ان قدرنا الله على ايصال تاريخنا الى ذلك القرن

عـــد ٨٦٠

في تفنيد زعم غوليلمس الصوري ان الموارنة ارعووا عن الضلال سنة ١١٨٢

روى غوليلمس اسقف صور اللاتيني في كتابه ٢٢ في الحرب فصل ٨ ما ترجمته • لما استراحت المملكة (مملكة اورشليم) من حرب صلاح الدين سرت سرورًا موقوتًا في ان ملة من السريان تسكن في عمل من فونيقي في سفح لبنان قريب من جبيل طرأ عليها تغير مهم لانهم بعد ان كانوا اتبعوا مدة خمسماية سنة ضلال مارون المبتدع وتسموا موارنة نسبة اليه وكانوا يتمون اسرارهم منفصلين عن جماعة المؤمنين استفاقوا بالهام الله وهبوا من تقاعدهم وهلموا الى ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني وهو الثالث من البطاركة اللاتين الذين تراسوا هذه الكنيسة وارعووا عن الضلال الذي كانوا متمسكين به ورجعوا الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية واعتنقوا الايمان القويم وحافظوا على تقليدات الكنيسة الرومانية بكل احترام واجلال ولم يكن عدد هذا الشعب يسيرًا بل كان يقال انهم يجاوزون الاربعين الفًا منتشرين في اسقفيات جبيل والبترون وطرابلس وسفح لبنان وهذا الجبل كما مر وكانوا رجالاً اشداء مدربين بالحروب وكانوا نافعين لنا جدًا في مهامنا الخطيرة وفي اغاراتهم المتواترة على الاعداء ولهذا سر قومنا كل السرور برجوعهم الى الايمان القويم واما ضلال مارون وتباعه فهو انه كان في ربنا يسوع المسيح مشيئة واحدة وفعل واحد كما يظهر من المجمع السادس انه عقد لنبذ ضلالهم والذي حكم عليهم بالحرم وزادوا على هذا المعتقد المرذول من الكنيسة الارثوذكسية اشياء اخرى مضرة بعد ان انفصلوا من جماعة المؤمنين ولما ندموا على هذه الاشياء جميعها كما قدمنا ارعووا الى الكنيسة الكاثوليكية مع بطريركهم وبعض اساقفتهم الذين كما تقدموهم بالضلال تقدموهم بالعود التقوي الى الاقرار بالحقيقة انتهى مترجمًا بكل دقة عما رواه بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٢ بحروفه اللاتينية من كلام غوليلمس الصوري

ان كلام غوليلمس هذا يتضمن امرين الاول اخباره عن تمسك الموارنة خمس مئة سنة في الضلال تبعاً لمارون المبتدع وانعقاد المجمع السادس لنبذ ضلالهم وحرمه لهم . والثاني خبره عن ارتجاعهم على يد ايميريكس بطريرك انطاكية فالاول كاذب بجملته والثاني صادق في بعض الموارنة لا كلهم وهاك البيان للاول ان غوليلمس يقول ان المجمع السادس عقد ضد الموارنة (كما هي حرفية العبارة) وانه حرمهم فنراهن كل من شاء على ان يبين لنا كلمة او اشارة في النص اليوناني لهذا المجمع او في ترجمته اللاتينية القديمة تشعر بان هذا المجمع عقد ضد الموارنة او بانه حرمهم فان اباءنا سلمنا طائعين بكل ما يتهمنا به خصومنا من هذا القبيل وان استحال عليه ان يجد مثل هذه الكلمة او الاشارة فلينكف عن ثلبنا ويوقن بان غوليلمس اغتر باعتماده على تاريخ سعيد بن البطريق الذي جعل البابا انوريوس والملك هرقل وسرجيوس وبيروس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريرك اسكندرية جميعاً موارنة وهو امر مضحك يسخر منه كل عالم وانكره على ابن البطريق كل محقق حتى بوكوك اول من ترجم تاريخه وسلدانس الذي طبعه

ان زعم غوليلمس ان الموارنة اتبعوا ضلال مارون المبتدع وتمسكوا به خمس مئة سنة لا اس له الا خرافة سعيد بن البطريق وقد ذكرناها مراراً ولا بد الان من مراجعة خلاصتها . كان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول ان في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ولما مات بنى له سكان حماه ديراً واتبعوا اعتقاده سموا موارنة . وقد اقر غوليلمس نفسه انه اعتمد على شهادة سعيد بن البطريق اذ صرح في مقدمة كتاب تاريخه ان اموري ملك اورشليم دفع اليه بعض كتب عربية في جملتها تاريخ سعيد المذكور واقترح عليه كتب تاريخ فاعتمد خاصة على تاريخ الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري وقد اشار الى ذلك البابا باديكتس الرابع عشر في منشوره الاتي ذكره بقوله . ان

شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الراي المضاد للموارنة ولربما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله ولذلك عزاه الى المجلد الثاني من تاريخ سعيد الاسكندري ، واما كون حكاية سعيد هذه هي التي اعتمد عليها غوليلمس من الترهات البسابس فقد اجاد بيانه العلامة البابا بنادكتس الرابع عشر في منشوره في اثبات قداسة القديس مارون الذي اثبتنا ترجمته في عدد ٧١١ حيث اورد هذا البابا الجهبذ ادلة على ذلك يستحيل نقضها منها ان القديس مارون كان في اخر القرن الرابع واول القرن الخامس وبدعة المشيئة الواحدة لم تظهر الا في القرن السابع فبينه وبين ظهورها قرنان فمن المحال ان يكون مارون ابتدعها ومنها ان دير القديس مارون الذي روى ابن البطريق ان سكان حماه بنوه على اسمه كان قبل ظهور هذه البدعة بقرنين ايضاً اذ كان ديراً مشهوداً برهبانه الافاضل من القرنين الخامس والسادس كما يظهر من رسائلهم الى البابا هرمزدا وغيره المعلنة في ذيل المجمع الخامس ولما دك هذا الدير انسطاس الملك جدد بناه الملك يوستينيانس الاول الذي توفي سنة ٥٦٥ كما حقق بروكوبيوس القيصري في الكتاب الخامس في ابنية يوستينيانس وهذا المؤرخ كان من رجال دولة يوستينيانس المذكور وعليه فمن شاء ان يكابر مدعياً صحة شهادة غوليلمس المؤسسة على شهادة ابن البطريق فليرد ولو هذين الدليلين اللذين اوردهما البابا بنادكتس او يثبت ان غوليلمس اعتمد على غير سعيد في زعمه هذا عن الموارنة فنسلم طائعين

بقي ان يقال ان مارون الذى ذكره ابن البطريق وانتحل غوليلمس قوله ليس مارون الرئيس بل يوحنا مارون البطريرك الذى كان في القرن السابع . فنجيب ان هذا الزعم ايضاً باطل بل محال لان يوحنا مارون لم يكن في ايام موريق ولا بنى اهل حماه على اسمه ديراً كما قال ابن البطريق بل صير اسقفاً على البترون سنة ٦٧٥ او سنة ٦٧٦ وبطريركاً سنة ٦٨٥ وتوفي سنة ٧٠٧ فاشتهر في عصر الملك قسطنطين اللحياني ويوستينيانس الثاني الاخرم لا في عصر موريق الذى كان في اخر القرن

السادس وقد صرح البابا باديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ ان الموارنة انما انتخبوا بطريركاً خاصاً عليهم وهو يوحنا مارون ليقوا نفوسهم من بدعة المشيئة الواحدة فما الذي يبقى من القوة لزعم غوليلمس او غيره من خصومنا ان يوحنا مارون ابتدع هذه البدعة فضلاً عن الاجماع على ان يوحنا مارون توفي سنة ٧٠٧ وان ظهور بدعة المشيئة الواحدة كان سنة ٦٢٨ فلو فرضنا انه عاش ثمانين سنة لكان مولده سنة ٦٢٧ فكيف يبتدع بدعة وعمره سنة او سنتان وان قيل اتبع هذه البدعة بدءاً فلِمَ لا نجد اسمه بين من حرمهم المجمع السادس وغوليلمس يزعم ان المجمع السادس عقد ضد الموارنة وحرمهم ولا يستطيع هو او غيره اياً كان ان يحجنا بكلمة او اشارة من النص اليوناني لهذا المجمع او من ترجمته اللاتينية يتبين بها اسم مارون او الموارنة مع ان هذا المجمع عدد اسماء كل منشئي هذه البدعة ومن شايعهم عليها فلِمَ صمت عن مارون او يوحنا مارون او الموارنة

ان كلما اوردناه في المجلد الخامس لاثبات براءة المارونيين والموارنة من هذه البدعة من شهادات الاحبار الاعظمين وكرادلة الكنيسة الرومانية وقصادها والعلماء المحققين والادلة القاطعة على ثبوت الموارنة في الايمان الكاثوليكي منذ ظهور هذه البدعة الى سنة ١١٨٢ كل ذلك يصلح ان يكون برهاناً قاطعاً على بطلان زعم غوليلمس ان الموارنة تشبثوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة وارعووا عنها سنة ١١٨٢

وقد فند هذه التهمة كثيرون من العلماء الغربيين والشرقيين وزيفها من علمائنا كثيرون نخص بالذكر منهم البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخه وفي كتابه ردّ التهم والعلامة السمعاني في مواضع كثيرة من المكتبة الشرقية ومن مكتبة الناموس وغيرهما من كتبه والمطران اسطفانس عواد السمعاني في محاماته

عن القديس يوحنا مارون وفي كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية والبطريرك يوسف اسطفان في محاماته عن قداسة القديس يوحنا مارون والخوري انطون القيالة في رده رسالة القس يوحنا عجيمه والبطريرك بولس مسعد في كتابه الدر المنظوم وانا احقر هؤلاء العلماء الذي لا استحق ان اذكر في عديدهم في كتابي روح الردود وفي كتيب رفعته في السنة السالفة الى علماء مجتمع الآثار القديمة الذي التأم برومة سنة ١٩٠٠ وساذكر شهادة بعض مشاهير المؤرخين اللاتينيين

واما القسم الثاني من شهادة غوليلمس الصوري وهو ما رواه عن ارتداد الموارنة على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية اللاتيني فلا نجحد صدقه على فريق من الموارنة فقد رايت ما ذكرناه في الكلام على بطاركة طائفتنا في هذا القرن عدد ٨٥٨ عن انخداع فريق من الموارنة لمقالة توما اسقف كفرطاب وبث بعد وفاته ابن شمبان وابن حسان ضلاله بين الموارنة حتى اطغوا سكان بعض القرى منهم اهل كفرياشيت وجنح البطريرك نفسه الى ضلالهم فنهض لمقاومته باقي رؤساء الملة واعيانها والسواد الاعظم من شعبها وحماتهم الحمية والغيرة الدينية على حطه عن مقامه واقامة بطريرك اخر صحيح المعتقد فلم يكن من الاغرار المفوين بالضلال الا انهم جسروا على قتل البطريرك الحديث فعظم الامر على الاكثرين المتشبثين بالايمان القويم وعزموا ان يهلكوا اولئك الشاذين عن اخرهم فتدارك امرهم ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني وارشد اوليك الضالين فارتدوا الى محجة الدين القويم وصالحهم مع اخوانهم وادخلهم في طاعة روسائهم فانتخبوا متفقين بطريركاً عوضاً عن البطريرك المقتول وكل منصف يرى ان التهمة بالضلال والارتداد عنه لا تصدق في هذا الحادث الا على ذلك الفريق القليل ولا تمس شان الطائفة بجملتها ولا يصدق عليها اتباع الضلال والرجوع عنه فجنوح بطريرك الى ضلال وقتل بعض الاغرار المتحمسين للضلال بطريركاً من الكبائر الفظيعة لكنها من الاعمال الفردية

المقصورة على فاعليها ولا تتعدى الى الملة كلها ونهوض باقي رؤسائها واعيانها وشعبها على البطريرك المفتري وحطه عن مقامه بينة دامغة على براءة ساحة الملة بجملتها من شائبة الضلال بل دليل قاطع على تشبثهم المتين بعروة الايمان القويم ونجتزي بان نورد اثباتاً لكل ما جئنا به في هذا الفصل شهادات باجيوس ولكويان وهما من كبار المؤرخين المدققين فالعلامة باجيوس انتقد تاريخ الكردينال بارونيوس امام المؤرخين ونقحه سنة فسنة ولما كان بارونيوس ذكر رواية غوليلمس عن ارتداد الموارنة في تاريخ سنة ١١٨٢ الحق باجيوس بكلامه انتقاداً وتنقيحاً هذا ملخصه « عدد ١٠ غلط غوليلمس الصوري في كل ما رواه عن ارتداد الموارنة ابنا في عد ٤ كم انخدع غوليلمس الصوري وما اشد بغضه للفرسان الاورشليميين اذ كتب انهم كانوا قبلا ينتمون الى حماية القديس يوحنا الرحوم ولما ازداد مالهم استبدلوه بالقديس يوحنا المعمدان ونبين هنا كم اخطأ بنسبته بدعة المشيئة الواحدة الى ملة الموارنة بجملتها وقد ذكر بارونيوس كلامه بجملته فاكتفي انا بايراد ملخصه » ولحصه الى ان قال « عد ١١ ان غوليلمس الصوري اعتمد على حكايات كاذبة لا شك في ان الصوري انتحل في كتابة تاريخه اشياء كثيرة من تواريخ سعيد البطريرك الاسكندري وهذا لم يكن مدققاً في تواريخه بل ادخل بها حكايات كثيرة وروى اموراً تخالف راي المؤلفين وهي عن الصدق بمراحل وقد صرح غوليلمس نفسه في مقدمة كتابه « بان اموري ملك اورشليم دفع الي كتباً عربية فكتبت تاريخاً اخر يبتدئ من ظهور الاسلام الى هذه السنة التي هي سنة ١١٨٤ للميلاد فينطوي على تاريخ خمس مئة وسبعين سنة وقد تبعت خاصة الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري » ... فتاريخ الصوري هذا لم يصل الينا وما بقي منه في تاريخ الحرب المقدسة قال هو فيه « لم يكن لدي في هذا القسم ما يرشدني اليه من الكتب اليونانية او العربية فاعتمدت فيه على التقليدات وحدها الا شيئاً يسيراً كنت فيه

شاهدًا عيانيًا ونظمت سلسلة اخباره • على ان التقليدات التي اتبعها كانت غالبًا غير صحيحة ومما لا ريب فيه انه اعتمد في اكثرها على حكايات سعيد المذكور عن اصله العربي فقال • كان في ايام موديق ملك الروم راهب اسمه مارون • الى اخر كلامه المعروف الذى رواه باجيوس هنا الى ان قال • عدد ١٢ ان تاريخ سعيد مشحون بالاقاصيص لان بدعة المشيئة الواحدة لم تظهر في ايام موديق هذا ولا في عصر فوقا خليفته بل في ايام هرقل وهذا يعلمه جميعهم والدير الذى ذكره سعيد لم يكن بعد وفاة مارون هذا (اى يوحنا مارون) بل كان قبله بنحو مائتي سنة وكان مكرسًا على اسم القديس مارون الرئيس وقد استدل نيرون على هذا بشهادة بروكوبيوس القيصرى في الكتاب الخامس من ابنية يوستيانس حيث قال • جدد واصلح فندق الفقراء على اسم القديس رومانس ودير القديس مارون فوق حماه • ومما لا يمترى فيه ان . يوستيانس توفى سنة ٥٦٥ وموديق تسنم منصة الملك سنة ٥٨٣ وتوفي سنة ٦٠٢ فتجديد بناء الدير في ايام يوستيانس يستلزم ان يكون حينئذٍ قديمًا جدًا وتؤيد ذلك اعمال المجمع الخامس المسكوني الذى عقد سنة ٥٥٢ في عصر يوستيانس المذكور اذ شهد هذا المجمع قصاد دير القديس مارون الذى كان طائر الشهرة وكان اول جميع اديار سورية الثانية ورئيسها وهذا بيِّنٌ ايضًا من توقيع سفراء هذا الدير على اعمال المجمع المذكور • وقد ابنا ان مارون هذا • اى يوحنا مارون • كان راهبًا في الدير المذكور نفسه وكان اسمه يوحنا فزاد عليه مارون آخذًا اياه من اسم دير القديس مارون الرئيس وقد استوفينا رد هذه الحكاية باسهاب في تاريخ سنة ٦٣٥ • (نكتفي برده هنا عن رده في تاريخ السنة المذكور لئلاّ يملّ القارى)

• عدد ١٣ ان بعض الموارنة زاغوا عن الايمان • بقي لنا هنا ان نفند ما رواه بارونيوس عن الصودي من ان ملة الموارنة بجملتها ارتدت الى الايمان الكاثوليكي

فلا ريب في ان بدعة المشيئة الواحدة انسربت في جبل لبنان واتصل السم الى البطريرك نفسه كما روينا في تاريخ سنة ١١٠٩ وكان انسرابها في نحو اوائل هذا القرن بواسطة توما الحاراني اسقف كفرطاب كما قلنا في المحل المذكور

عدد ١٤ وفي هذه السنة ١١٨٢ اوقع ايميريكس البطريرك الانطاكي الصلح في كنيسة الموارنة ان الموارنة بعد ذلك وبعد ما ذكرناه في تاريخ سنة ١١٠٩ انتخبوا بطريركاً كاثوليكياً فقتله الشاذون عن الايمان وتوافرت الانقسامات والقلق بين الموارنة على انتخاب بطريرك اخر كما روى نيرون فتسارع ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني وخمد جذوة حنقهم ورد من اوجدوا الشقاق او اتبعوه الى الطاعة وحلهم بسلطان الحبر الروماني من الحرم الذي حلَّ بهم لاقترافهم الجريمة الكبرى بقتل البطريرك واجتمعت كلمة الموارنة على انتخاب بطريرك حديث مشهور باستمساكه بالايمان القويم • وايد باجيوس كلامه بما جاء في مقالة نيرون من انقياد الموارنة بواسطة ايميريكس وطلبه الحل لهم من الكرسي الرسولي وانتخابهم بطريركاً سكن في دير العذراء القديسة في هابيل وحفظ كل ما في الانجيل وكان ضليعاً في تفسير الاسفار المقدسة والف ميامر كثيرة في الايمان ولم ينبذ ايمان مارون بل ثبت وتأيد الى ان قال • ومن ذلك ينتج نتجاً واضحاً ان الصوري لما علم ان الموارنة الذين اتبعوا شقاق توما الكفرطابي جحدوا ضلاله على يد ايميريكس واقروا بالايمان الروماني هم والبطريرك بعد وقوع الصلح ظن ان الموارنة جميعاً كانوا متلوثين ببدعة المشيئة الواحدة فنسب الى كل الملة ما لا يصدق الا على فريق يسير منها ولا اهمية له فيها وقد زاغ مدة فقط الا ان نقول ان الصوري انخدع باخبار احد من الذين ارتبكوا بشقاق توما الكفرطابي ولكن لا معذرة البتة للصوري بزعمه ان المجمع السادس عقد ضد الموارنة وانه حرمهم اذ لا كلمة واحدة في اعمال هذا المجمع تشير الى ذلك

عدد ١٥ قد اخطاء الصوري بنسبته الى الملة جمعاء الضلال فكيف حق له ان يقول ان الموارنة تمسكوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة واسقفهم داود الذى كان سنة ١٣٧٠ لاسكندر وهي سنة ١٠٥٩ الف كتاباً جمع فيه قوانين الكنائس الشرقية كما يظهر من رسالة الانبا يوسف اليه في طلب هذا الكتاب وقد اثبت الاسقف داود في الفصل الاول منه ان الموارنة يعترفون بمشيئتين في المسيح اذ قال « ان الروم يتفقون مع الموارنة بالاقرار بالمشيئتين والموارنة يعترفون بالمشيئتين تبعاً للطبيعتين الالهية والبشرية » فكيف يزعم الصوري انهم كانوا ملوثين ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة ولم يرعووا عنها الا سنة ١١٨٢ اجل ان بعض الموارنة سافر الى قبرص حين انقسامهم واطغى كثيرين ولكن لا ينتج من هذا الأ ان كثيرين من الموارنة كانوا ضالين عن الايمان الصحيح على ان هذا لا يوجب الضلال على الامة جمعاء كما ان كثيرين من الافرنسيين والجرمانيين تلوثوا بضلال كاوينوس ولا ينتج من ذلك ان الامتين ليستا كاثوليكيتين وقد ندد بعضهم بالموارنة لانه وجد في كتبهم ما يدل على بدعة ولا سيما بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة لكن هذا ادخله مكر اليعاقبة على كتب الموارنة لانه لما كانت الملتان تستعملان اللغة السريانية في صلواتهما فمني اليعاقبة بان يدخلوا ضلالهم في كتب الموارنة محرفين لها او زائدين عليها وهذا ظاهر مما كتبه بطرس بطريرك الموارنة الى الكردينال انطونيوس كارافا في ٢٥ آب سنة ١٥٨٣ ورواه نيرون صفحة ٧٧ في مقالته المذكورة وهو « قد كتب اليكم بعض الناس ان في كتبنا بعض كلمات تخالف راس الكنيسة المقدسة فنحن لا نقبل الا ما تقبله الكنيسة المقدسة وما يوجد في بعض النسخ يمكن ان يكون ادخل على كتب الموارنة من كتب الملل المحدقة بنا من زمان مديد فدع يا اخي جانباً كل شبهة باستقامة ايماننا فاساسنا ثابت منذ القديم على ايمان الكنيسة المقدسة الرسولية الرومانية ولم نزغ عن هذا الايمان

ألبتة ولا نكلمكم بفينا فقط بل بفمنا وقلبنا معاً والله الشاهد على ذلك . فصح اذا ان غوليلمس الصوري وكثيرين غيره من الحديثين الذين تساهلوا بتصديق اخباره عن ارتداد الموارنة قد انخدعوا انخداعاً كبيراً

. انتهى كلام باجيوس وقد اوردناه مطولاً لما اشتمل عليه من الفوائد في هذا المبحث

واما لكويان فقد ذكرنا شهادته في عدد ٨٥٨ فانه بعد ان ذكر ما كان بين الموارنة حينئذ وعناية ايميريكس بارتداد الزائغين عن الايمان الى محجته القويمة واذعانهم لارشاده والصلح بينهم قال . لا ريب عندي في ان هذا ما حمل غوليلمس الصوري على ما كتبه من ان الموارنة كلهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢ على يد ايميريكس البطريرك الانطاكي مع ان هذا لا يصدق على الملة كلها بل على بعض افرادها فقط . وكان قد قال في مقدمة كلامه على الموارنة . كما لم يعب افرنسة اتباع كثيرين من اكليرسها وشعبها مذهب لوتاروس وكالوينوس هكذا لا يعيب الملة المارونية اتباع بعض افرادها الضلال مدةً ما .

اني ارى هذه الادلة التي اوردتها حتى الان تجاوز حد الكفاية في دحض دعوى سعيد بن البطريق وغوليلمس اسقف صور على الموارنة الضلال الهم الله من يحسدوننا على نعمته وفضله ان ينصفونا ولا اقل من ان يجارونا في طريق الجدال المفروضة ولا يحجونا في ما بعد باقوال سعيد وغوليلمس قبل ان يردوا الادلة الواضحة والبينات القاطعة التي جئنا بها هنا وفي مواضع اخرى

